من إصدارات دار الإفتاء الفلسطينية

غيض من روض المقال

الجزء الأول

1437هـ - 2016م

من إصدارات دار الإفتاء الفلسطينية
غيض من روض المقال
الجزء الأول
1437هـ - 2016م

دولة فلسطين
دار الإفتاء الفلسطينية

غيض من روض المقال

إعداد
الشيخ إبراهيم خليل عوض الله
الوكيل المساعد لدار الإفتاء الفلسطينية
مفتي محافظة رام الله والبيرة

القدس
1437هـ ـ 2016 م

هدية

من إصدارات

دار الإفتاء الفلسطينية

القدس
1437هـ - 2016 م

الإشراف العام:

الشيخ محمد أحمد حسين / المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية

إعداد:

الشيخ إبراهيم خليل عوض الله/ الوكيل المساعد لدار الإفتاء الفلسطينية

مفتي محافظة رام الله والبيرة

منسق أعمال الفريق	أ. مصطفى أعرج
مراجعة	أ.د. حسن السلوادي
المونتاج وتصميم الغلاف	يوسف تيسير
تدقيق لغوي	هالة عقل
تخريج الآيات والأحاديث	نجود بدران

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد الصادق الأمين، إمام المهتدين، وقائد الغر الميامين، وبعد؛

فهذا إصدار آخر لدار الإفتاء الفلسطينية عنوانه (غيض من روض المقال)، يجمع في جنباته عدداً من المقالات المتنوعة، التي روعي فيها الوضوح في العرض، والبساطة في الفكرة، والدقة في المعلومة، أملاً أن يكون عوناً للقارئ في تحقيق متطلبات دينه ودنياه، إن شاء الله تعالى.

ويسرني في هذا المقام أن أتقدم من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل الأدبي، بالشكر والتقدير، ونخص بالذكر فضيلة الشيخ إبراهيم خليل عوض الله، الوكيل المساعد لدار الإفتاء الفلسطينية/ مفتي محافظة رام الله والبيرة، الذي أعد هذه المقالات، والإخوة والأخوات الذين راجعوا المادة، وحققوا آياتها، وخرجوا أحاديثها، ووثقوا نصوصها، وعملوا على صفها وتصميمها، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، وأن ينفع الله بهذا الإصدار قارئيه.

سائلين الله العلي القدير أن يكون قد وفقنا في عملنا هذا، إنه هو العليم الحكيم.

الشيخ محمد أحمد حسين
المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية
خطيب المسجد الأقصى المبارك

القدس : 1437هـ / 2016م

مقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، الحمد لله الذي أنار بالإسلام طريق الهداية والرشاد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، البشير النذير، وعلى آله وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

فهذا إصدار نوعي آخر لدار الإفتاء الفلسطينية يضم مقالات متنوعة، تشمل موضوعات تتعلق بالعقيدة، والعبادات، والسيرة النبوية، والسياسة، والاقتصاد، وغير ذلك... عُرضت بطريقة ميسرة، مع العناية بوضوح الفكرة، ودقة المعلومة، عسى الله أن يفيد منها خلقه من بني آدم على اختلاف مستوياتهم العلمية والثقافية والعمرية، وقد اخترنا عنونة هذا الإصدار بـ(غيض من روض المقال)، ليدل على منهج اختيار محتواه الذي اعتمد على جمع مقالات متناثرة يجمعها قاسم مشترك، يتلخص في المساهمة في نشر الوعي الديني حول قضايا ومسائل ذات صلة وثيقة بواقع الناس وحياتهم.

ويسرني في هذا المقام أن أتقدم بالشكر والتقدير البالغيْن من الذين ساهموا في إنجاز هذا العمل المتواضع، سائلاً المولى عز وجل أن يجعله في ميزان حسناتهم، ولا يفوتني أن أشكر دار الإفتاء الفلسطينية، وعلى رأسها سماحة الشيخ محمد أحمد حسين، المفتي العام للقدس والديار الفلسطينية، على تبني هذا الإصدار وطباعته ونشره.

وأختم بالتأكيد على إيماننا بأن توفيقنا للصواب فبنعمة من الله وفضل، وأما أخطاؤنا فهي من عند أنفسنا، سائلين الله العفو والعافية، وقبول الأعمال الصالحة، بفضل جوده وكرمه.

الشيخ إبراهيم خليل عوض الله
الوكيل المساعد لدار الإفتاء الفلسطينية
مفتي محافظة رام الله والبيرة

القدس : 1437هـ / 2016م

الفصل الأول
عقيدة

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
.1	ما أحوجنا إلى البصيرة	7
.2	الإعانة على النوائب	15
.3	عباد الله المخلصون	22
.4	تجارة المؤمن مع الله	27
.5	مسألة وقت ليس إلا	33
.6	لماذا يحقدون على الإسلام؟!	42

ما أحوجنا إلى البصيرة

تعيش اليوم بعض بلاد العرب والمسلمين حالة اندفاع قوية نحو تغيير قياداتها، وأنظمة حكمها، على أثر معاناة أبنائها الأمَرَّين في حياتهم، وحريتهم، وكرامتهم، مما زعزع الثقة بين الجانبين، وجعل القابضين على جمر الصبر يتحينون أقرب الفرص للانقضاض على أنظمة السادة؛ الذين عاثوا في الأرض الفساد، ونهبوا خيرات البلاد، واستبدوا بالعباد، وقهروا الصغار والكبار، وأهانوا الرجال والنساء، وجلبوا لأمتهم العار تلو العار، وما انتصروا لمظلوم، ولا خاضوا سوى معارك الكلام، واللف والدوران، حتى أضحت شعوبهم تغلي كالبركان، فما وجدوا باباً مشرعاً للتنفس حتى ولجوه، لكن بطريقة يلزم فحصها، وتدبر أمرها؛ حتى لا يكون المنتفضون أداة للمتربصين، من حيث يعلمون أو يجهلون، وحتى لا تختلط الأوراق، على طريقة الفوضى الخلاقة، التي أريد لها أن تجعل الحليم الناظر فيها حيراناً، فقد استشرى القتل، وانتشر الدمار، فدكت المساجد بالقذائف، وخربت مواقع الآثار، وأحرقت موارد الاقتصاد ومنشآته، وأهلك الزرع والنسل، وفقد الأمن والأمان، واغتصبت الأعراض، ودنست الحرائر، واختلط الحابل بالنابل، وإزاء ذلك يشرع السؤال عن المستفيد مما يجري، سواء سمي الحادث ثورة أم انقلاباً، أم خروجاً عن الشرعية، أم غير ذلك من المسميات والشعارات؟!

الأمر بالمعروف وتغيير المنكر:

يبرر بعض المتحذلقين ما يجري في العالم العربي في هذه الأيام بأنه شر لا بد منه، أو أنه جهاد للتحرير، أو أن المسؤول عنه الطرف الآخر، أو أنه استجابة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، من هنا تنطلق الدعوة لإعمال البصيرة، واستخدام الحكمة، والتأني في اتخاذ

المواقف الصعبة والمصيرية، والله جل في علاه حث رسوله الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم؛ ليعلن على الملأ منهجه في الدعوة إلى الله، الذي يقوم على درب البصيرة، فقال تعالى: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}. (يوسف: 108)

وللدعوة إلى الله صلة وثيقة بعملية تغيير المنكر، التي أمرت بها آيات القرآن، وأحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى أمر عباده المخلصين؛ أنبياء وصالحين؛ ليقوموا بمهمة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتصدرت هذه المهمة أعمال الرسل والأنبياء، عليهم السلام، وأتباعهم المؤمنين، فخاطب الله تعالى المسلمين بالأمر بها قائلاً: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (آل عمران: 104)، وجعل الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز مؤهلات الأمة الإسلامية لنيل مقام الخيرية على الأمم، فقال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}.(آل عمران: 110)

فتغيير الفساد المسمى بالمنكر في عرف الشرع ومفاهيمه، والسعي إلى إحلال العدل والصلاح الذي ينطبق عليه وصف المعروف وفق المصطلحات الشرعية، هو من أسمى الأعمال التي تقرب إلى الله تعالى، فعن سَعِيدِ بن أبي بُرْدَةَ، عن أبيه، عن جَدِّهِ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (على كل مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، قِيلَ: أَرَأَيْتَ إن لم يَجِدْ؟ قال: يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ، قال: قِيلَ: أَرَأَيْتَ إن لم يَسْتَطِعْ؟ قال: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قال: قِيلَ له: أَرَأَيْتَ إن لم يَسْتَطِعْ؟ قال: يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أو الْخَيْرِ، قال: أَرَأَيْتَ إن لم يَفْعَلْ؟ قال: يُمْسِكُ عن الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ).(*)

* صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

مراعاة رجحان المصلحة على المفسدة ضمن ضوابط التغيير المنشود:

لحركة التغيير الإصلاحي على نهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضوابط وطرائق وإرشادات ينبغي أن لا تُغفل؛ حتى لا يكون التيه، ولا يكون الخراب على يد المصلحين أنفسهم، فالمنكر ينبغي أن يحجم عن إصلاحه إن كانت عملية تغييره ستقود إلى منكر أشد، وضرر أكبر، حتى إن الصالح الذي يسعى لتغيير المنكر يؤمر أحياناً بالكف عن التغيير، مع المحافظة على تجنب الانخراط في بوتقة المنكر، وهذا هو نهج العارفين بهذا الدين من العلماء والدعاة الصالحين، فمما يُؤثر عن ابن تيمية، رحمه الله تعالى، قوله: (إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به، ولهذا قيل: ليكن أمرك بالمعروف، ونهيك عن المنكر، غير منكر، وإذا كان هو من أعظم الواجبات والمستحبات، فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة؛ إذ بهذا بعثت الرسل، ونزلت الكتب، والله لا يحب الفساد، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح، وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين، والذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع، فحيث كانت مفسدة الأمر، والنهي، أعظم من مصلحته، لم تكن مما أمر الله به، وإن كان قد تُرِكَ واجبٌ، وفُعِلَ محرمٌ؛ إذ المؤمن عليه أن يتقي الله في عباد الله، وليس عليه هداهم).(*)

فمراعاة رجحان المصلحة على المفسدة ينبغي أن يضعها العاملون للتغير في اعتبارهم، وما ورد عن ابن تيمية، أكده ابن القيم، رحمهما الله تعالى، حيث شدد على أهمية فحص نتائج التغيير المتوقعة قبل الإقدام عليه، فإن كان يجلب شراً أعظم وجب تجنبه، ومما ورد عنه بهذا الخصوص في كتابه إعلام الموقعين، قوله: (إنَّ النبي، صلى اللهُ عليه وسلم، شَرَعَ

* كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، 28/ 126.

لأُمَّتِهِ إيجاب إنْكَارِ الْمُنْكَرِ؛ لِيَحْصُلَ بِإِنْكَارِهِ من الْمَعْرُوفِ ما يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فإذا كان إنْكَارُ الْمُنْكَرِ يَسْتَلْزِمُ ما هو أَنْكَرُ منه، وَأَبْغَضُ إلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فإنه لا يَسُوغُ إنْكَارُهُ، وإن كان اللهُ يُبْغِضُهُ، وَيَمْقُتُ أَهْلَهُ، وَهَذَا كَالإِنْكَارِ على الْمُلُوكِ، وَالْوُلَاةِ بِالْخُرُوجِ عليهم، فإنه أَسَاسُ كل شَرٍّ، وَفِتْنَةٍ إلَى آخِرِ الدَّهْرِ، وقد اسْتَأْذَنَ الصَّحَابَةُ رَسُولَ اللهِ، صلى اللهُ عليه وسلم، في قِتَالِ الأُمَرَاءِ الَّذِينَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلَاةَ عن وَقْتِهَا، وَقَالُوا: أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ فقال: لا، ما أَقَامُوا الصَّلَاةَ، وقال: من رَأَى من أَمِيرِهِ ما يَكْرَهُهُ، فَلْيَصْبِرْ، وَلَا ينزعن يَدًا من طَاعَتِهِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ ما جَرَى على الإِسْلَامِ في الْفِتَنِ الْكِبَارِ وَالصِّغَارِ، رَآهَا من إضَاعَةِ هذا الأَصْلِ، وَعَدَمِ الصَّبْرِ على مُنْكَرٍ، فَطَلَبَ إزَالَتَهُ، فَتَوَلَّدَ منه ما هو أكبر منه، فَقَدْ كان رسول اللهِ، صلى اللهُ عليه وسلم، يَرَى بِمَكَّةَ أَكْبَرَ الْمُنْكَرَاتِ، وَلَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَهَا، بَلْ لَمَّا فَتَحَ اللهُ مَكَّةَ، وَصَارَتْ دَارَ إسْلَامٍ، عَزَمَ على تَغْيِيرِ الْبَيْتِ، وَرَدِّهِ على قَوَاعِدِ إبْرَاهِيمَ، وَمَنَعَهُ من ذلك مع قُدْرَتِهِ عليه؛ خَشْيَةُ وُقُوعِ ما هو أَعْظَمُ منه، من عَدَمِ احْتِمَالِ قُرَيْشٍ لِذَلِكَ؛ لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ بِالإِسْلَامِ، وَكَوْنِهِمْ حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِهَذَا لم يَأْذَنْ في الإِنْكَارِ على الأُمَرَاءِ بِالْيَدِ؛ لِمَا يَتَرَتَّبُ عليه من وُقُوعِ ما هو أَعْظَمُ منه، كما وُجِدَ سَوَاءٌ).(*)

ومن ضوابط عمليات التغيير المجتمعية التي يقودها الدعاة نحو الصلاح، التركيز على صلاح النفس إلى جانب توقع إصرار أهل الضلال على حالهم، مما يستدعي العمل دون إحباط، ولا رضوخ لحال الفساد، فيقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}(المائدة: 105)، فالله يوجه المؤمنين إلى أن يحفظوا أنفسهم، ويقوموها بالصلاح والإصلاح، غير مكترثين بضلال الضالين، ولا فساد الفاسدين، فعن ابن تيمية أن الاهتداء إنما يتم بأداء الواجب،

* إعلام الموقعين، 3/ 4.

فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، كما قام بغيره من الواجبات، لم يضره ضلال الضلال.[1]

وورد في الحديث عن أَبي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ، قَالَ: (أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الآيَةِ؟ قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ}(المائدة: 105)، قَالَ: أَمَا وَاللهِ؛ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعِ الْعَوَامَّ؛ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلاً يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ رَجُلاً مِنْكُمْ).[2]

أهمية العلم والحكمة وتفهم الرأي المخالف لحاملي لواء التغيير:

مما ورد في كتب التفسير حول ضوابط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قول صاحب أضواء البيان، إنه يشترط في الآمر بالمعروف أن يكون له علم، يعلم به أن ما يأمر به معروف، وأن ما ينهى عنه منكر؛ لأنه إن كان جاهلاً بذلك، فقد يأمر بما ليس بمعروف، وينهى عما ليس بمنكر، ولا سيما في هذا الزمن، الذي عمَّ فيه الجهل، وصار فيه الحق منكراً، والمنكر معروفاً، والله تعالى يقول: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي...} (يوسف: 108) فدلَّ على أن الداعي إلى الله لا بد أن يكون على بصيرة، وهي الدليل الواضح الذي لا لبس في الحق معه، وينبغي أن تكون دعوته إلى الله بالحكمة، وحسن الأسلوب،

1. كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه، 82 /721.
2. سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المائدة، وقال أبو عيسى: حسن غريب، وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب، 4 /231.

واللطافة مع إيضاح الحق، لقوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ} (النحل: 125)، فإن كانت دعوته إلى الله بقسوة، وعنف، وخرق، فإنها تضر أكثر مما تنفع، فلا ينبغي أن يسند الأمر بالمعروف إسناداً مطلقاً، إلا إلى مَنْ جَمع بين العلم، والحكمة، والصبر على أذى الناس؛ لأن الأمر بالمعروف وظيفة الرسل وأتباعهم، وهو مستلزم للأذى من الناس؛ لأنهم مجبولون بالطبع على معاداة من يتعرض لهم في أهوائهم الفاسدة، وأغراضهم الباطلة، ولذا قال العبد الصالح لقمان الحكيم لولده، فيما قص الله تعالى عنه: {يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}.

(لقمان: 17)

وَلَمَّا قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِوَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ: (أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟) يَعْنِي قُرَيْشًا، أَخْبَرَهُ وَرَقَةُ: أَنَّ هَذَا الدِّينَ الَّذِي جَاءَ بِهِ لَمْ يَأْتِ بِهِ أَحَدٌ إِلَّا عُودِيَ، وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: (مَا تَرَكَ الْحَقُّ لِعُمَرَ صَدِيقًا)، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يُحْكَمُ عَلَى الْأَمْرِ بِأَنَّهُ مُنْكَرٌ، إِلَّا إِذَا قَامَ عَلَى ذَلِكَ دَلِيلٌ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى، أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ إِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ مَسَائِلِ الِاجْتِهَادِ فِيمَا لَا نَصَّ، فَلَا يُحْكَمُ عَلَى أَحَدِ الْمُجْتَهِدِينَ الْمُخْتَلِفِينَ بِأَنَّهُ مُرْتَكِبٌ مُنْكَرًا، فَالْمُصِيبُ مِنْهُمْ مَأْجُورٌ بِإِصَابَتِهِ، وَالْمُخْطِئُ مِنْهُمْ مَعْذُورٌ كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَحَلِّهِ.(*)

فالعمل لتحقيق الخير، وبناء صروحه، يعتمد على الحكمة، والحجة، لا على الاندفاع، والتخبط، وحرق الأخضر واليابس، واستنزاف قوة الأمة، وجرها إلى حال الضعف والوهن، فالله عز وجل أعلنه منهجاً قويماً للدعاة إليه، والعاملين في سبيله، فحث على استخدام

* أضواء البيان، 1/ 463 - 464.

الحكمة والموعظة الحسنة، فقال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}.(النحل: 125)

فالذين يحملون لواء الإصلاح ينبغي أن لا تغيب الحكمة عن مناط أساليبهم، ومناهج عملهم، فلا بدَّ لهم من أن ينطلقوا من بصيرة ثاقبة، في منأى عن تشويش تراكمات الفساد، وضغط أباطيل الظلم، مع ضرورة أخذ الحيطة والحذر من أخطبوط التهور، ودهاليز التربص، التي يقودها جند الشيطان، الذين لا يرقبون في هذه الأمة إلا الشر، وتفتيت العضد، ونهب الخيرات، وإبقاءها ضعيفة، بل نهباً للطامعين بخيراتها المالية، وثرواتها المعدنية، وأرضها ومقدساتها.

ظلم الداعي إلى إعمال البصيرة:

قد يتسرع بعض الناس عن جهل أو عن نوايا خبيثة للحكم بالتخاذل، أو التواطؤ على من يدعو لمثل إعمال البصيرة، انطلاقاً من رفض المخالف، والإصرار على فرض الآراء والمواقف على الموافقين والمخالفين من الناس، وفي ذلك ظلم شديد، وبغي عظيم، وهنا يرد سؤال عاجل عن وجه الاختلاف بين الذين يحملون عصا التغيير، ويمنعون الناس من إبداء آرائهم، وبين الذين انتفض الناس عليهم لممارستهم أساليب القهر والقمع ضد شعوبهم، ومنعوا حريات الفكر، والرأي بالحديد والنار. من المؤكد أن قاسماً مشتركاً يجمع الفريقين، وإن اختلفت الأسماء، والصور، وتنوعت الشعارات، فالقمع هو القمع، والقهر هو القهر، لا يعقل قبولهما من بعض الظالمين دون بعض، فليتق اللهَ الناسُ في بعضهم بعضاً، وليرفقوا بالآخرين منهم، بعيداً عن ممارسة احتكار الحق والحقيقة، أو استباحة محظورات دون ضرورات تلجئ إليها، وإلا وقع الظلم، وهو ظلمات يوم القيامة، والله أعلنها حرباً على الظالمين، بغض النظر عن أسمائهم، وألقابهم، وأسبابهم، وذرائعهم.

وفي الختام؛ لا بدَّ من التأكيد على أنه لا أحد يستطيع أن ينكر أن أمتنا في أمس الحاجة إلى التغيير نحو الرشاد والعدل، غير أن الغايات النبيلة لا يقبل أن يسعى إليها إلا بأساليب طاهرة، نقية من ممارسة الرذيلة، وبريئة من الاستهانة بحرمة الدماء والأرواح والأعراض، ولا بد لها كذلك من تجنب العمل المفضي إلى تحقيق مصالح الأعداء، أو الذي يجري بالتواطئ معهم، فهم لن يريدوا لنا خيراً، ولا تتعدى مواقفهم المعسولة نطاق دس السم في الدسم، والإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، يحذر من الانخداع بحيل المتربصين من المنافقين وغيرهم، فيقول:

يلــــقاكَ يحلفُ أنه بــــكَ واثقٌ	وإذا توارى عنكَ فهو العقربُ
يعطيكَ من طرفِ اللسانِ حلاوةً	ويروغُ منكَ كما يروغُ الثعلبُ

فما أحوجنا إلى إبصار الحقيقة بعيون يقظة، وقلوب يافعة، وعقول نيرة، والله تعالى يقول: {قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}. (الأنعام: 104)

هدانا الله وأمتنا إلى خير الهدى، وأنار بصائرنا بالحق المبين، لنكون ممن يدعون إلى الله على بصيرة، وممن يعملون للتغيير، لتحقيق الأهداف النبيلة بالأساليب المشروعة، ابتغاء مرضاة الله سبحانه، وعلى سنة رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وصحابته الغر الميامين.

الإعانة على النوائب

خبران نُشرا على موقع إخباري في يوم واحد، يتعلقان بسلوكين متناقضين في الدلالة على الموقف من النوائب التي تنزل بالآخرين، أحد هذين الخبرين، نقل عن مصادر إعلامية كردية في العراق، ويفيد أن ستة شباب تناوبوا على اغتصاب لاجئة سورية في السادسة عشرة من عمرها، عندما كانت الفتاة عائدة من العمل في السابعة مساء، سابع أيام العام الميلادي الجديد، فاعترضها ثلاثة شباب يستقلون سيارة (هونداي) بيضاء، وزجّوا بها إلى داخل السيارة، وقاموا بتعصيب عينيها، وربط قدميها، وبدأوا بالاعتداء عليها جنسياً.

ثم شارك ثلاثة آخرون في جريمة الاغتصاب لاحقاً في ضواحي المدينة، ثم فروا من المكان لتجدها عائلة كردية من أربيل عارية، فقامت بتغطية جسدها، وتسليمها للشرطة، وأفاد لاجئ سوري أن الفتاة تنتمي إلى عائلة محدودة الدخل، لجأت إلى أربيل قبل فترة، بسبب الحرب الدائرة في سوريا، وهي تعمل في أحد مراكز التسوق في عاصمة الإقليم، وكانت تقارير لمنظمات محلية وأجنبية أشارت إلى أن عددًا من اللاجئات السوريات تعرضن إلى الاستغلال الجنسي خلال الفترة الماضية.(*)

وفي اليوم الذي نشر فيه الخبر عن حادثة الاغتصاب المزرية هذه، نشر خبر آخر مناقض تماماً لصفاقة الاعتداء الآثم الذي تعرضت له تلك الفتاة، حيث كان للخبر الثاني وجه آخر للتعاطي مع النوائب التي تحل بالناس، عماده قيم الشجاعة والشهامة، والتفاني في المحافظة على النفس البشرية، وإنقاذها عندما تحل بها النوائب، وذلك بما يتماشى مع دلالة قوله تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ

* موقع دنيا الوطن، تاريخ النشر: 1 / 10 / 2014م.

فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}(المائدة: 32)، ويفيد الخبر أن رجلاً صينياً كان يقود سيارته في منطقة (ليبوهراي بوكيت تيمه) شاهد حادث تصادم مروّعاً بين سيارة وشاحنة، فهرع إلى السيارة المشتعلة ليجد زوجين عالقين بداخلها، في البداية تمكن من إخراج السيدة من النافذة، ولكن زوجها كان عالقاً داخل الشاحنة، ومن ثم لم يتمكن من الوصول إلى نافذته، فاستعان بسائق الشاحنة، ومن ثم زحف إلى داخل السيارة من المقعد الخلفي، وتمكن من حمل السائق الفاقد للوعي إلى الخارج، وبعد إنقاذه بثلاث دقائق، انفجرت السيارة برمتها، ونجا الزوجان.[1]

وعلى صعيد آخر؛ فقد سجّل طالبان فلسطينيان موقفاً مشرفاً في مجال الإعانة على النوائب، حين سلما مبلغاً مالياً وجهازاً خلوياً ثميناً إلى الشرطة الفلسطينية في نابلس، بعد عثورهما عليهما مؤخراً، مما استدعى تكريمهما من قبل شرطة محافظة نابلس، التي أشارت إلى الأثر الطيب لفعلهما، الذي أفضى إلى عودة المال والجهاز لأصحابهما، بعد أن فجعوا بفقدهما، وأشاد مدير شرطة المحافظة بالدور الذي تقوم به الأسرة في تربية أبنائها على الأخلاق الحميدة والأمانة، ودور أفراد المجتمع ومساهمتهم الفاعلة في الارتقاء في تعزيز الحالة الأمنية.[2]

فكيف يتساوى من يهب إلى إغاثة الملهوف، مع الانتهازي الذي يستغل ضعف المشرد ليضيف إلى معاناته المزيد بأفعاله الشائنة؟؟!!! حتماً لا يستويان عند الله وخلقه، فشتان بين الثرى والثريا، والله تعالى يقول: {مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ}.(هود: 24)

---

1. موقع دنيا الوطن، تاريخ النشر : 1/ 10/ 2014.
2. جريدة القدس، 25/ 2/ 2014، ص8.

الإعانة على النوائب من شيم الكرام:

مما لا شك فيه أن إعانة صاحب الحاجة من شيم الكرام، ومن خير الأعمال، التي يتقرب بها الناس إلى الله، فعن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (على كل مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ، فَقَالُوا: يا نَبِيَّ اللهِ؛ فَمَنْ لم يَجِدْ؟ قال: يَعْمَلُ بيده، فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ، وَيَتَصَدَّقُ، قالوا: فَإِنْ لم يَجِدْ؟ قال: يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ، قالوا: فَإِنْ لم يَجِدْ؟ قال: فَلْيَعْمَلْ بِالْمَعْرُوفِ، وَلْيُمْسِكْ عن الشَّرِّ، فَإِنَّهَا له صَدَقَةٌ).[1]

وعن أبي هُرَيْرَةَ، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (السَّاعِي على الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالمُجَاهِدِ في سَبِيلِ اللهِ، أو القَائِمَ اللَّيْلَ، الصَّائِمَ النَّهَارَ).[2]

وأفعال الكرام في هذا المجال تختلف عن بشائع انتهازيِّي الظروف القاهرة، كما يشاهد من انتشار السرقة والنهب، عند نزول النكبات والزلازل في بعض البلاد، فما أن تحل الكارثة الطبيعية، أو ينقطع التيار الكهربائي، ويحل الظلام، حتى تبدأ عمليات النهب، والسرقة، والتخريب، من قبل أناس، جعبهم خاوية من مكارم الأخلاق، والقيم النبيلة، ولا يقل سلبية عن هذا المستوى استغلال نوائب الفلسطينيين وأمثالهم من الشعوب، والجماعات البشرية، خلال معاناتهم من ظروف القهر البشري، التي فرضت عليهم على سمع العالم وبصره، وكان من أبرز إفرازات تلك المعاناة وجود مشكلة التشريد والتشتيت عن الديار، والبيوت، والأراضي، بما أضحى يعرف بمشكلة اللاجئين، الذين ينتظرون عوناً لاستعادة حق عودتهم إلى بلداتهم ومساكنهم، التي أخرجوا منها عنوة، وظلماً، وعدواناً.

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب على كل مسلم صدقة فمن لم يجد فليعمل بالمعروف.
2. صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل.

في كل زمن تقع نوائب ببعض الناس، يتجند الكريم النبيل للإعانة عليها، بخلاف من يقف حيالها متفرجاً، أو في الحال الأسوأ يعمل على مضاعفة آثارها؛ ليكون جزءاً من مُركباتها بدلاً من العون عليها، وقد شُهد للرسول الأكرم، صلى الله عليه وسلم، حتى قبل تكليفه بحمل رسالة الله للعالمين، أنه كان يعين على نوائب الحق، فلما تلقى الوحي أول مرة، رجع إلى زوجه خديجة، رضي الله عنها، يرتعد من مفاجأة ما لقي، فقال قولته التي نزل فيها قرآن كريم، وسميت سورتان منه بمتعلقات ذلك، وهما: المزمل والمدثر؛ تخليداً لقوله صلى الله عليه وسلم لما نزل عليه الوحي، قال: (زمِّلوني زمِّلوني، فأنزل الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ*قُمْ فَأَنْذِرْ})[1]، والشاهد هنا من بعض ما ردت به تلك المرأة الوفية والحكيمة في أثناء تلك الحادثة، فعملت على تهدئة روع زوجها النبي، صلى الله عليه وسلم، قائلة: (والله ما يُخْزِيكَ الله أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ على نَوَائِبِ الْحَقِّ).[2]

وفي شرح النووي على صحيح مسلم أن النوائب جمع نائبة، وهي الحادثة، وإنما قالت نوائب الحق؛ لأن النائبة قد تكون في الخير، وقد تكون في الشر، قال لبيد:

نوائبُ من خيرٍ وشرٍ كلاهما   فلا الخيرُ ممدودٌ ولا الشرُّ لازبُ

قال العلماء، رضي الله عنهم، معنى كلام خديجة، رضي الله عنها، أنك لا يصيبك مكروه؛ لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق، وكرم الشمائل، وذكرت ضروباً من ذلك، وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق، وخصال الخير، سبب السلامة من مصارع السوء، والله أعلم.[3]

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب منه.
2. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب منه.
3. صحيح مسلم بشرح النووي، 2/ 202.

ولم يقتصر الثناء على الرسول، صلى الله عليه وسلم، لعونه على النوائب، وإنما كان لصحابته الأخيار نصيب منه، كونهم من أصحاب المكارم، المساهمين في العون الجاد على النوائب حين تنزل بأهلها، وعلى رأسهم أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، الذي لما خَرَجَ مُهَاجِرًا قِبَلَ الْحَبَشَةِ، حتى إذا بَلَغَ بَرْكَ الْغِمَادِ، لَقِيَهُ ابن الدَّغِنَةِ، وهو سَيِّدُ الْقَارَةِ، فقال: (أَيْنَ تُرِيدُ يا أَبَا بَكْرٍ؟ فقال أبو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَسِيحَ في الأرض، فَأَعْبُدَ رَبِّي، قال ابن الدَّغِنَةِ: إِنَّ مِثْلَكَ لا يَخْرُجُ، ولا يُخْرَجُ، فَإِنَّك تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ على نَوَائِبِ الْحَقِّ، وأنا لك جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلادِكَ، فَارْتَحَلَ ابن الدَّغِنَةِ، فَرَجَعَ مع أبي بَكْرٍ، فَطَافَ في أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فقال لهم: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لا يَخْرُجُ مِثْلُهُ ولا يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الْكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ على نَوَائِبِ الْحَقِّ).[1]

وأثنى الرسول، صلى الله عليه وسلم، على الأشعريين؛ لتعاونهم في مواجهة نوائب الفقر، والحاجة، والظروف الصعبة، فعن أبي مُوسَى، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (إن الأَشْعَرِيِّينَ إذا أَرْمَلُوا[2] في الْغَزْوِ، أو قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا ما كان عِنْدَهُمْ في ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ في إناء وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي، وأنا منهم).[3]

وحث الإسلام على تفريج كرب المكروبين بالنوائب وغيرها، فعن عَبْدَ اللهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أخبره أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كان في حَاجَةِ أَخِيهِ، كان الله في حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عن مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ الله عنه كُرْبَةً من كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ الله يوم الْقِيَامَةِ).[4]

1. صحيح البخاري، كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر في عهد النبي، صلى الله عليه وسلم، وعقده.
2. أَرْمَلُوا: نفد زادهم، فتح الباري، تعليق ابن باز، 1 / 125.
3. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب مِنْ فَضَائِلِ الأَشْعَرِيِّينَ، رضي الله عنهم.
4. صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه.

ومن سبل الإعانة على النوائب، رفع الشرع الرباني الحرج عن المبتلين بها، فالله تعالى يقول: {لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَاباً أَلِيماً}.(الفتح: 17)

الله المستعان و عنده المخرج:

الإعانة الأعظم على النوائب تكون من الله العلي القدير، الذي يكشف الضر عن عباده، دون سواه، وفي هذا يقول تعالى: {قُلِ ادْعُواْ الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً}.(الإسراء: 56)

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (يا غُلاَمُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ، فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأمة لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ)(*)

ومن شعر الإمام الشافعي في ذلك، قوله:

وَلَرُبَّ نازِلَةٍ يَضيقُ لَهـــا الفَتى ذَرعــاً وَعِندَ اللَهِ مِنها المَخرَجُ
ضاقَت فَلَمّا استَحكَمَت حَلَقاتُها فُرِجَت وَكُنتُ أَظُنُّها لا تُفرَجُ
سَـــهِرَتْ أَعينٌ، وَنَامَتْ عُيونٌ في أمورٍ تكـــونُ أو لاتكونُ
فَادْرَأ الهَمَّ مَـا استَطعْتَ عَنِ النَّفْـ ـس فحملانك الهمومَ جنونُ
إن رَّباً كفاكَ بالأمسِ مـــا كـــا نَ سَيَكْفِيكَ في غَـدٍ مَا يَكُونُ

وكان رحمه الله تعالى يناجي ربه قائلاً:

يـــا من تُحَلُّ بذكره عقد النوائب والشدائد
يا من إليه المشتكى وإليه أمـــرُ الخلقِ عائدْ

* سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب منه، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني.

يـــا حيٌّ يا قيومُ يا صمدٌ تَنَــزهَ عن مضـادد

أنتَ العليمُ بما بُليـ ـتُ بِهِ وأَنتَ عليهِ شاهدْ

أنت الرقيب على العباد وأنت في الملكوت واحد

أنت المنزهُ يا بــــــديـ ـعَ الخلقِ عن ولدٍ ووالد

أنت المعزُ لمن أطا عك والمذُل لكل جــاحد

إني دعوتك والهمو مُ جيوشُها قلبي تُطــارد

فرجْ بحولْكَ كُربتي يا من لَهُ حُسْنُ العوائد

فخفيٌّ لطفك يستعا نُ بِهِ على الزمنِ المعاند

أنت الميسر والمسبب والمساعد

يسر لنا فـــــرجاً قريـ ـباً يا إلهي لا تبـــــــاعد

كــــن راحمي فلقد يئسـ ـتُ من الأقاربِ والأباعدِ

ثـــم الصلاة على النبي وآله مــــــا خرَّ ساجد

فرج الله كرب المبتلين بالنوائب، وأجزل لهم ثواب الصبر عليها، وجزى المعينين عليها خير الجزاء.

عباد الله المخلصون

يمر المسلمون بمواسم تعبدية عديدة، يفترض بهم أن يتوجهوا فيها إلى الله، قاصدين رضاه سبحانه، والسير على هداه، فيصومون رمضان، ويتبعونه ستاً من شوال، ويقيمون ليلة القدر، ويصلون العيدين، ويؤدون الصلوات الخمس اليومية، ويقيمون الليل، ويؤتون الزكاة، لمن ملك نصابها، ويحجون البيت الحرام إذا استطاعوا إليه سبيلاً، ويؤدون العمرة، ويذكرون الله آناء الليل وأطراف النهار، ويستغفرونه سبحانه وينيبوا إليه، متماشين بكل ذلك مع الغاية الإلهية من خلق الإنس والجن، إذ يقول تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ}. (الذاريات: 56)

وقد أمر الله المؤمنين والناس أجمعين بعبادته، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (الحج: 77)، وقال سبحانه تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}. (البقرة: 21)

ومن مقتضيات عبادة الله حق العبادة إخلاصها لله، ففي كل صور العبادة ينبغي أن يخلص العابد لله، عملاً بمقتضى قوله تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}. (البينة: 5)

وقد حفلت سورة الصافات بتأكيد فضل عباد الله المخلصين، فاستثنتهم من العقاب وأوصاف الشر، في خمس من آياتها الكريمة، في أربع منها قال تعالى: {إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ} (الصافات: 40 + 74 + 128 + 160)، وفي الآية الخامسة نطق حال عباد الله، ومقالهم، بإخلاص العبودية لله، فقال تعالى: {لَكُنَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ}.(الصافات: 169)

وجاء الثناء على عباد الله المخلصين في مقابل بيان مآل الجاحدين والمنكرين، فقال تعالى: {إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ * إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * أُوْلَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ * فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ * بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ * لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ * وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}.

(الصافات: 34 - 48)

فيستثنى من مصير المجرمين، أصحاب استحقاق العذاب الأليم، عباد الله المخلصون، الذين لهم الرزق المعلوم، والتكريم، وجنات النعيم، وما فيها من طيبات ولذات في المطعم والمشرب والمعاشرة.

وفي السورة نفسها–الصافات– استثني عباد الله المخلصون من عاقبة الضالين، الذين لم يأبهوا للنذير، فقال تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ * إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ}.(الصافات: 71 - 74)

وقال سبحانه: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ * أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ * اللهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ* فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ}.(الصافات: 123 - 129)

وعباد الله المخلصون يستثنون من التلبس بالإثم والإفك في عقيدتهم وسلوكهم وأقوالهم، فيقول تعالى: {فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ*أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِنَاثاً وَهُمْ شَاهِدُونَ* أَلا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ* وَلَدَ اللهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ*

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ* أَفَلا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ* سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ* إِلا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ}. (الصافات: 149 - 160)

وفي سورة الحجر، ورد استثناء إبليس لعباد الله المخلصين من إغوائه وتزيينه الانحراف والمعاصي، فذكر الله تعالى قول إبليس، فقال سبحانه: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ} (الحجر: 39 - 40)

وأثنى الله تعالى على رسوله الكريم يوسف، عليه السلام، أنه كان من عباد الله المخلصين، فقال تعالى: {...إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}. (يوسف: 24)

أعمال عباد الله المخلصين ومنطلقاتهم

حتى يكون عبد الله من المخلصين ينبغي أن يخلص التوجه إلى الله، ليُشمل مع مَن كتب الله لهم النجاة من النار، والفوز بالجنة، وعليه الحذر من الوقوع في الشرك والرياء، لمنافاتهما معنى الإخلاص، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يروي عن الله تعالى في الحديث القدسي، فيقول: (قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أنا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عن الشِّرْكِ، من عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فيه مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ).[1]

ويتوعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، المرائي، فيقول ابن عَبَّاسٍ: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (من سَمَّعَ، سَمَّعَ الله بِهِ، وَمَنْ رَاءَى، رَاءَى الله بِهِ).[2]

وعباد الله المخلصون يعبدون الله على يقين وثبات، فلا يتأرجحون بين الانتظام بأداء العبادة، وبين الانقطاع عنها، وهم يعبدون الله في السراء والضراء، في المنشط والمكره، فلا

1. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله.
2. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله.

تفتنهم الدنيا وزينتها عن عبادة ربهم، ولا تؤدي بهم المصائب إلى الزيغ عن عبادة الله، فيتحرزون عن أن يعبدوا الله على حرف، لئلا يكونوا من الخاسرين، الذين قال الله تعالى فيهم: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ}. (الحج: 11)

وينبغي لمن عزم على أن يكون من عباد الله المخلصين أن يحرر عبادته من التقليد الأعمى، فلا يكون من الذين أخبر الله تعالى عن أقوالهم الضالة، فقال جل شأنه: {قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}. (الأعراف: 70)

وعبد الله المخلص يعبد الله على بصيرة ويقين، رافضاً أن يكون مطيعاً في أصل عبادته وهيئاتها وشروطها إلا لله رب العالمين ورسوله الأمين، صلى الله عليه وسلم، ويطيع بعد ذلك من لزمت طاعتهم من العلماء والأمراء، ما داموا مطيعين لله، آخذين بمنهجه ومنهج رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، وفي هذا يقول سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}. (النساء: 59)

والذي يخلص العبادة إلى الله، لا يقع في حبال عبادة الطاغوت، فيستحق بشرى الله ورضاه، مصداقاً لقوله تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ} (الزمر: 17)

وعباد الله المخلصون يعبدون الله دون سواه، مستجيبين لأمر الله وإرشاده، حيث أمرهم قائلاً: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ}(قريش: 3)، فلا يعبدون نبياً ولا أحداً من الخلق، عملاً بمقتضى قوله تعالى: {اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا

أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَـهاً وَاحِداً لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}. (التوبة:31)

ويحافظ عباد الله المخلصون على اقتفاء منهج من صدقوا الله، فصدقهم الله وعده بالاستخلاف والتمكين في الأرض، واستبدال خوفهم وفزعهم بالأمن والأمان والاستقرار والسكينة، مصداقاً لقوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (النور: 55)

هدانا الله إلى صراطه المستقيم، ونوره المبين، لنكون من عباده المخلصين، الذين أعد لهم جنة عرضها السماوات والأرض، تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً.

تجارة المؤمن مع الله

دلت الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة على فضل التقرب إلى الله تعالى بالطاعة، وبينت جزاء أهل البر والإحسان، ممن أخلصوا لربهم، فباعوا أنفسهم لله؛ رجاء أن ينالوا رضاه سبحانه وتعالى، وأن يفوزوا بالجنة التي وعدهم، ووصفت تجارة المؤمنين مع الله بأوصاف عديدة، منها: أنها تجارة لن تبور، وهي المنجية، إضافة إلى الحديث عن عملية الشراء والبيع فيها، وبيان جزاء الساعين إلى الله بحسن الطاعة، وخالص العبادة والبر.

تجارة لن تبور:

يحرص العاقل على الأخذ بأسباب نجاح تجارته، أياً كان نوعها، وبالغاً حجمها ما بلغ، فنجاحها يعني الربح والفوز، وخسارتها تعني الفشل والانتكاس، من هنا يبذل التاجر أقصى جهده حين يشتري، وعندما يبيع؛ ليحقق الربح، الذي يمثل الفرق بين كلفة الشراء وثمن البيع، ومع تراكم الأرباح تتضخم ثروته، ويصبح ممن يشار إليهم بالبنان، وتظهر عليهم آثار الآلاء.

وأي إنسان على وجه البسيطة مطلوب منه أن يكون تاجراً من نوع آخر، تاجراً للآخرة، يراكم الربح لها؛ ليفوز بسعادتها مقابل الأثمان التي دفعها في الدنيا، فالمؤمن يعمل الصالحات على هذا الدرب، فيتلو القرآن، ويحافظ على إقامة الصلاة، وينفق في السراء والضراء، سراً وعلانية، رجاء أن تربح تجارته، فيفوز بنعيم الآخرة، والله تعالى يقول: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ}. (فاطر:29 - 30)

جاء في تفسير القرطبي، أن التجارة في اللغة عبارة عن المعاوضة، ومنه الأجر **الذي** يعطيه البارئ سبحانه للعبد، عوضاً عن الأعمال الصالحة التي هي بعض فعله، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}(الصف:10)، وقال تعالى: {يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ}(فاطر:29)، وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ}(التوبة: 111)، فسمى ذلك كله بيعاً وشراء على وجه المجاز، تشبيهاً بعقود الأشرية والبياعات، التي تحصل بها الأغراض.[1]

ومعنى (يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ)؛ أي لن تكسد، ولن تهلك بالخسران أصلاً، فـ(لَّن تَبُورَ) صفة لتجارة، جيء بها للدلالة على أنها ليست كسائر التجارات الدائرة بين الربح والخسران.[2]

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في تجارة لن تبور، حيث باعوا الفاني الخسيس، واشتروا الباقي النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات، فيا لها من صفقة ما أربحها![3]

التجارة المنجية:

وصفت تجارة المؤمنين مع ربهم في الآية سالفة الذكر بأنها لن تبور، وأورد القرآن الكريم لهذه التجارة صفات أخرى؛ منها أنها تجارة تنجي صاحبها من النار.

جاء في صحيح البخاري، بَاب أَفْضَلُ الناس مُؤْمِنٌ يجاهد بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ في سَبِيلِ **اللهِ**، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هل أَدُلُّكُمْ على تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ من عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

1. تفسير القرطبي، 5/ 151.
2. تفسير أبي السعود، 7/ 152.
3. تفسير أبي السعود، 9/ 197.

وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلك الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (الصف: 10 – 12)، وفيه عن عطاء بن يزيد الليثي، أن أبا سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال: قِيلَ: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَيُّ الناس أَفْضَلُ؟ فقال رسول اللهِ: (مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، قالوا: ثُمَّ من؟ قال: مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ من الشِّعَابِ، يَتَّقِي اللهَ، وَيَدَعُ الناس من شَرِّهِ).[1]

قال المفسرون: نزلت هذه الآية: {... هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ...} حين قالوا لو علمنا أي الأعمال أحب إلى الله لعملنا به أبداً، فدلهم الله على ذلك، وجعله بمنزلة التجارة؛ لمكان ربحهم فيه.[2]

تجارة فيها الجنة بدل الأنفس والأموال:

من خصائص تجارة المؤمن مع الله في ضوء آيات القرآن الكريم، أن الله سبحانه وتعالى يتفضل بتقديم الجنة بدل الأنفس والأموال التي يقدمها المؤمن في سبيل الله، فقال تعالى: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}. (التوبة:111)

وورد ذكر بيع النفس لله في الحديث الصحيح، فعن أبي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ لِلهِ، تَمْلآنِ (أو تَمْلأُ) ما بين السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لك أو عَلَيْكَ، كُلُّ الناس يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أو مُوبِقُهَا).[3]

ومن عرف طريقه إلى التجارة الرابحة مع ربه، فإنه لا يقبل بديلاً عنها تجارة أخرى، فاستحق بذلك ثناء الله تعالى ورضاه سبحانه، وفي هؤلاء يقول جل في علاه: {رِجَالٌ لا

1. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله.
2. زاد المسير، 8/ 254.
3. صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء.

تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ}. (النور:37)

فما عند الله خير وأبقى، وقد نبه الله إلى زيغ المفتتن بتجارة الدنيا وزينتها، وحب مالها، وزخارفها؛ لأن ما عند الله خير من اللهو، والتجارة في الدنيا، فقال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} (الجمعة: 11)

شواهد لصفقات تجارة العابدين:

المؤمن الذي يعبد الله كما أمر، يربح العتق من النار، والفوز بالجنان، فالصائم الذي يصوم لله إيماناً واحتساباً، ومثله القائم الذي يقوم لله إيماناً واحتساباً، فإن الله يجزيهما غفران الذنوب، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[1]

والذي يحسن الوضوء ينال غفران الذنوب، فعن حُمْرَانَ، قال: رأيت عُثْمَانَ، رضي الله عنه، تَوَضَّأَ، فَأَفْرَغَ على يَدَيْهِ ثَلاثًا، ثُمَّ تَمَضْمَضَ وَاسْتَنْثَرَ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إلى الْمَرْفِقِ ثَلاثًا، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُسْرَى إلى الْمَرْفِقِ ثَلاثًا، ثُمَّ مَسَحَ بِرَأْسِهِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى ثَلاثًا، ثُمَّ الْيُسْرَى ثَلاثًا، ثُمَّ قال: رأيت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، تَوَضَّأَ نحو وَضُوئِي هذا، ثُمَّ قال: (من تَوَضَّأَ وُضُوئِي هذا، ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ، لا يحدث نَفْسَهُ فِيهِمَا بِشَيْءٍ، إلا غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[2]

والحاج يرجع نقياً من رجس الذنوب والخطايا، فعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: (من حَجَّ لِلهِ فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب السواك الرطب واليابس للصائم.

أُمُّهُ)[1]. من هنا يدعو الناس والمقربون للحاج بأن يكون حجه مبروراً، وسعيه مشكوراً، وذنبه مغفوراً، ويرجون له الفوز بالتجارة التي لن تبور.

والذي ينفق مالاً في سبيل الله، يقرض الله قرضاً حسناً، فيجازيه الله بالمثوبة الوافرة، ويضاعف أجره أضعافاً كثيرة، والله تعالى يقول في محكم التنزيل: {مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}(البقرة: 245)، وقد فقه الصحابة الأخيار دلالة هذه الوعود، وآمنوا بها بيقين، فباعوا الغالي والنفيس رجاء أن تربح صفقاتهم مع ربهم، كما صنع أبو طلحة، رضي الله عنه، في أحب ماله، فعن أَنَسَ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، يقول: كان أبو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالاً من نَخْلٍ، وكان أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إليه بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ، وكان رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ من مَاءٍ فيها طَيِّبٍ، قال أَنَسٌ: فلما أُنْزِلَتْ هذه الآيَةُ: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ} قام أبو طَلْحَةَ إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ}(آل عمران: 92)، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلهِ، أَرْجُو بِرَّهَا، وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللهِ، فَضَعْهَا يا رَسُولَ اللهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللهُ، قال: فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (بَخٍ، ذلك مَالٌ رَابِحٌ، ذلك مَالٌ رَابِحٌ، وقد سمعت ما قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا في الأَقْرَبِينَ، فقال أبو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يا رَسُولَ اللهِ، فَقَسَمَهَا أبو طَلْحَةَ في أَقَارِبِهِ، وَبَنِي عَمِّهِ).[2]

فهذه صور للصفقات الرابحة، التي يكون أحد بَدَلَيْها عملاً يقدمه العبد تقرباً إلى الله تعالى، ووفق شرعه وأحكامه، وبدلها الآخر يتفضل به الله عز وجل، على عباده، فيغفر ذنوبهم، ويتجاوز عن خطاياهم، وينعم عليهم الفوز بالجنة، والرحمة الربانية، وتلك لعمري تجارة لن تبور أبداً.

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور.
2. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب.

تجارة الضالين:

وقبل الختام؛ يجدر التذكير بإجمال، بأن تجارة المؤمن مع الله لن تبور، وهي المنجية من الهلاك، والمفضية إلى النعيم المقيم، بخلاف تجارة الضالين، من المنافقين وأشياعهم، ممن استحقوا العذاب بما قدمت أيديهم، وانحراف تفكيرهم، وزيغ قلوبهم، الذين قال الله تعالى في طائفة منهم: {أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} (البقرة: 16)، فتجارة هؤلاء إلى بوار وخسران؛ لأنهم تنكبوا درب الهدى، واشتروا عوضاً عنه الضلال في عقائدهم وسلوكهم، فاستحقوا غضب الجليل، فأعمى أبصارهم، فأضحوا صماً وبكماً وعمياً، وضرب الله لهم مثلاً بمستوقد النار الذي أذهب الله نوره، وتركه في ظلمات لا يبصر، فقال تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ}. (البقرة:17 - 18)

أعاذنا الله من أن نكون من أصحاب التجارة البائرة، والحواس المعطلة، وهدانا الكريم إلى صراطه المستقيم، وحبله المتين، حتى تربح تجارتنا، ونفوز بالنعيم المقيم، والنصر المبين، آمين آمين يا رب العالمين.

مسألة وقت ... ليس إلا

أخبر زميل عن ذهابه لأداء واجب العزاء بشاب في العقد الثالث من عمره، لم تُكتشف إصابته بالسرطان إلا قبل أسبوع من وفاته، وبعد أيام حضر والد شخص من المنطقة نفسها أخبر خلال حديثه عن وفاة ابنه بالسرطان، وهو في العقد الثالث من عمره، فوقع الظن أنه الشخص الأول نفسه غير أنه لما سئل عن الفترة التي مكثها ابنه حياً منذ أن اكتشف مرضه بالسرطان، فقال ما يقارب الشهرين، فدعي الزميل ليرى صورة المتوفى للتأكد من أنه الشخص نفسه الذي أخبر عنه، أم لا؟ فلما رآها تبين أنه شخص آخر.

شخصان بالعمر نفسه تقريباً يموتان بالمرض نفسه، وبعد اكتشافه بمدة وجيزة، يا لله ما أقصر الأمد الذي يقضيه الإنسان على هذه الدنيا، يا لله كم هي الدنيا غريبة!! وكم هي غرورة!! غير أنها تبقى فيها الحياة، وفيها الموت، ومنها الخروج، مصداقاً لقوله تعالى: {قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ}(الأعراف: 25)، والمرء يفارقها بعد طول عمر أو قصره بالموت، الذي هو حق لازم، ومقتضى واجب، لا يملك أن يفر منه غني ولا فقير، ولا مالك ولا مملوك، ولا صحيح الجسم ولا عليله، فنهاية كل إنسان به، وكل مخلوق مصيره الموت، وصدق الشاعر حيث يقول:

كلُّ ابنِ أُنْثى وإنْ طالَتْ سَلامَتُهُ يوماً على آلةٍ حَدْباءَ مَحْمولُ (*)

لذا كان الموت كافياً للوعظ، ونصح الناس بزيارة القبور؛ لأنها تذكرهم بالآخرة، والمتابع لأخبار الأموات التي تنشرها الصحف اليومية، يدرك مدى اتساع نطاق الموت، وأنه لا يحده عمر، ولا نوع بشري دون آخر.

فمكوث الخلائق على وجه البسيطة يكون خلال فترة عمرية تبدأ بالولادة، وتنتهي

* هذا بيت من قصيدة البردة لكعب بن زهير، وتعد من أشهر القصائد في مدح الرسول، صلى الله عليه وسلم، وسميت بالبردة؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أعطى بردته لكعب، ديوان كعب بن زهير، 1/ 49.

بالموت والزوال، ويقرر الله هذه الحقيقة، فيقول تعالى في سورة الرحمن: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ}. (الرحمن: 26 – 27)

ويثني الرسول، صلى الله عليه وسلم، على بيت الشعر الذي نطق بهذه الحقيقة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم: (أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ: ألا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا اللهَ بَاطِلُ).[1]

ومن شعر الإمام علي، رضي الله عنه، في حتمية الموت وفجأته، قوله:

تُؤَمِّلُ في الدُّنْيا طـــويلاً ولا تدري — إِذا جَنَّ لَيْلٌ هَلْ تَعيشُ إلى الفَجْرِ
فكم مِنْ صَحِيْحٍ مَاتَ مِنْ غَيرِ عِلَّةٍ — وكم من عليل عاش دهراً إلى دهر
وَكَــمْ مِنْ فَتىً يُمْسِي وَيُصْبِحُ آمِناً — وَقَدْ نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وَهْوَ لَا يَدْرِي[2]

والله تعالى يقول: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}. (الأنبياء: 34 – 35)

فالانتقال من الحياة الدنيا إلى الآخرة ما هي إلا مسألة وقت، فعمر الإنسان عليها قد يطول أو يقصر، غير أنه في نهاية المطاف يبدو قصيراً للغاية، فنوح، عليه السلام، عاش ما يقرب من الألف عام، وكان كرجل دخل بيتاً له بابان، فقام في وسط البيت هنيهة –القليل من الزمان–، ثم خرج من الباب الآخر، وإخوان نوح من النبيين، عليه وإياهم الصلاة والسلام، عاشوا حياتهم الدنيا، وحملوا على كواهلهم أعظم المهمات، إذ تلقوا وحي ربهم، وبلغوا دعوته، ثم ما لبثوا أن ارتحلوا بعد أن حانت آجالهم، وانتهت أعمارهم.

يا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ:

مثل بقية الأنبياء والناس، مات النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بعد أن أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة، وتركها على محجة بيضاء، فجرى عليه حق الموت، الذي سبق

1. صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية.
2. ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، وكرم الله وجهه، جمع وترتيب عبد العزيز الكرم، ط1 1409 – 1988 – ص50.

أن أخبره تعالى في قرآنه المنزل على قلبه الطاهر بحتميته، فقال تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ}(الزمر: 30)، ومن أروع ما قيل في موته صلى الله عليه وسلم، قول ابنته الزهراء فاطمة، كما جاء في الحديث الصحيح عن أَنَسٍ، قال: (لَمَّا ثَقُلَ[1] النبي، صلى الله عليه وسلم، جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ[2]، فقالت فَاطِمَةُ، عليها السَّلام: واكرب أَبَاهُ! فقال لها: ليس على أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ، فلما مَاتَ قالت: يا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يا أَبَتَاهْ إلى جِبْرِيلَ نَنْعَاهْ. فلما دُفِنَ، قالت فَاطِمَةُ، عليها السَّلام: يا أَنَسُ؛ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا على رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، التُّرَابَ؟!).[3]

ومن أخبار الزهراء، رضي الله عنها، في هذا السياق ما روي عنها بشأن إخبارها عن دنو أجل والدها الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأنها أول من سيلحق به من أهل بيته، وفرحها بأنها ستكون سيدة أهل الجنة، فهي فرحت لهذه الميزة المباركة، رغم أن ذلك يعني رحيلها عن الدنيا بالموت، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، قالت: (أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: مَرْحَبًا بِابْنَتِي، ثُمَّ أَجْلَسَهَا عن يَمِينِهِ، أو عن شِمَالِهِ، ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا، فَبَكَتْ، فقلت لها: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا، فَضَحِكَتْ، فقلت: ما رأيت كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ من حُزْنٍ، فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قال، فقالت: ما كنت لِأُفْشِيَ سِرَّ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، حتى قُبِضَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فَسَأَلْتُهَا؟ فقالت: أَسَرَّ إِلَيَّ إِنَّ جِبْرِيلَ كان يُعَارِضُنِي[4] الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، ولا أُرَاهُ إلا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي فَبَكَيْتُ، فقال: أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، أو نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ، فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ).[5]

1. لما ثقل: أي لما اشتدَّ به المرض. عمدة القاري، 18/ 74.
2. جعل يتغشاه: الغاشية هي الداهية من شر أو مرض أو مكروه، والمراد هنا من كرب الوجع. فتح الباري، 3/ 175.
3. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرض النبي، صلى الله عليه وسلم، ووفاته.
4. يعارضني: من المعارضة، وهي المقابلة، ومنه عارضت الكتاب بالكتاب أي قابلت به، وماتت فاطمة بعد أبيها، صلى الله عليه وسلم، بستة أشهر، عن خمس وعشرين سنة، وقيل: ماتت بعده بثلاثة أشهر. عمدة القاري، 16/ 154.
5. صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

الابتلاء الصعب بالموت ومنزلة الصابرين المحتسبين:

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} (البقرة: 155)، وفي صحيح البخاري عن عُمَر، رضي الله عنه، قال: (نِعْمَ الْعِدْلانِ، وَنِعْمَ الْعِلاوَةُ، {الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالوا إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عليهم صَلَوَاتٌ من رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُهْتَدُونَ}(البقرة: 156-157)).[1]

فلا ريب أن الموت ابتلاء صعب، ليس للميت فحسب، بل لمن فقده من أحبابه وأقاربه ومخالطيه، فالذي كان بينهم يوم أمس سميعاً بصيراً، ها هو لفظ الأنفاس، وأضحى بلا أي حراك ذاتي، والناس سواء رضوا أم أبوا سيبتلون بالموت، وقد ابتلي النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، بموت الأحبة، فحزن حزن الفطرة والجِبلة، غير أنه لم يفقد استحضار حسن الرضا بقضاء الله وقدره، ففي صحيح البخاري، بَاب قَوْلِ النبي، صلى الله عليه وسلم: إِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ، وقال ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، عن النبي، صلى الله عليه وسلم: تَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ، وفيه، عن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: دَخَلْنَا مع رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، على أبي سَيْفٍ الْقَيْنِ، وكان ظِئْرًا[2] لِإِبْرَاهِيمَ، عليه السَّلام، فَأَخَذَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إبراهيم فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عليه بَعْدَ ذلك، وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ[3]، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، تَذْرِفَانِ، فقال له عبد الرحمن بن عَوْفٍ، رضي الله عنه: وَأَنْتَ يا رَسُولَ اللهِ؟ فقال: يا ابن عَوْفٍ؛ إِنَّهَا رَحْمَةٌ، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فقال صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، ولا نَقُولُ إلا ما يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ).[4]

---

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الصبر عند الصدمة الأولى.
2. ظئراً: أي أباً من الرضاعة، ويطلق على المرضعة أيضاً. فتح الباري، 1 /151.
3. يجود بنفسه: أي يخرجها ويدفعها، كما يجود الإنسان بإخراج ماله. عمدة القاري، 12 /355.
4. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: إنا بك لمحزونون.

وللاحتساب معايير، وللحزن المقبول سقف، فإن وصلت مصيبة الموت بذوي القرابة والصداقة إلى حد الجزع والمبالغة في العويل، فإنها تصل إلى حد المرفوض والممنوع، من هنا كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، واضحاً في اعتبار الصبر المقبول للثواب والأجر هو الذي يكون عند الصدمة الأولى، فعن أَنَسِ بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، قال: (مَرَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فقال: اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، قالت: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لم تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، ولم تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لها: إنه النبي، صلى الله عليه وسلم، فَأَتَتْ بَابَ النبي، صلى الله عليه وسلم، فلم تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فقالت: لم أَعْرِفْكَ، فقال: إنما الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى).[1]

وموعد الموت من مفاتح الغيب التي احتفظ الله بسرها وعلمها، فعن سَالِمِ بن عبد اللهِ، عن أبيه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَفَاتِحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ: {إِنَّ اللهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}).(لقمان: 34)[2]

سكرات الموت:

ذكر القرآن الكريم وبينت السنة النبوية المطهرة أن للموت سكرات، وهي غمرته وشدته، فالله تعالى يقول: {وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ}.(ق: 19)

وتروي أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، وصفاً لآخر لحظات الرسول، صلى الله عليه وسلم، قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى، ففي صحيح البخاري، بَاب سَكَرَاتِ الْمَوْتِ، وفيه عن ذَكْوَانَ مولى عَائِشَةَ، أَنَّ عَائِشَةَ، رضي الله عنها، كانت تَقُولُ: (إِنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، كان بين يَدَيْهِ رَكْوَةٌ، أو عُلْبَةٌ فيها مَاءٌ، -يَشُكُّ عُمَرُ- فَجَعَلَ يُدْخِلُ يده في الْمَاءِ، فَيَمْسَحُ بها وَجْهَهُ، وَيَقُولُ: لا إِلَهَ إلا الله، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ، ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يقول:

1. صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب زيارة القبور.
2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الأنعام، باب {وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو}(الأنعام: 59)

فِي الرَّفِيقِ الأعلى حتى قُبِضَ، وَمَالَتْ يَدُهُ، قال أبو عَبْد اللهِ: الْعُلْبَةُ من الْخَشَبِ، وَالرَّكْوَةُ من الأَدَمِ).[1]

ووصف الله سكرات الموت بالغاشية، إذ شبه الله الذين يرتعدون إذا جاءهم الخوف، بالمغشي عليه الذي تعتريه سكرات الموت، فقال تعالى: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً}.(الأحزاب: 19)

يصف الله حال المنافقين في حالات الخوف والشدة بأنهم ينظرون نظراً كائناً كنظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت؛ حذراً وخوراً ولوذاً بك[2]، أو تدور أعينهم في الرؤوس من الخوف والجبن، كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت، وذلك أن من قرب من الموت غشيه أسبابه، يذهب عقله، ويشخص بصره، فلا يطرف.[3]

وتكرر في القرآن الكريم تشبيه حال المنافقين عند الخوف بالذي تتغشاه سكرات الموت، ففي سورة محمد يقول تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ}.(محمد: 20)

الحذر من الموت والهرب منه:

وحيث إن الموت له سكرات وصفت بالغاشية، وبه يكون فراق الحياة الدنيا، وترك الأحبة، والأموال، والمتاع، والزينة، والأزواج، والأبناء، يفارقها بكفن بسيط من غير جيوب، ثم يلقى فوقه التراب، فهو لا ريب صعب، ويحذره الناس ويخافونه، وفي وصف حال من أحوال الحذر

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب سكرات الموت.
2. تفسير أبي السعود، 7/ 96.
3. تفسير البغوي، 3/ 518.

منه، يقول تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ واللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ}. (البقرة: 19)

وضرب القرآن الكريم مثلاً بالذين خرجوا من ديارهم حذراً من الموت، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ}. (البقرة: 243)

وخلال محاججة بني إسرائيل، أرشد الله رسوله الكريم محمداً، صلى الله عليه وسلم، إلى الطلب منهم أن يتمنوا الموت، إن كانوا فعلاً أحباء الله وأولياءه، الذين خصهم الله بالخيرات، فجعل لهم الجنة دون الناس على حدّ زعمهم، فقال تعالى: {قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.(البقرة: 94)

وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.(الجمعة: 6)

وردَّ الله على جبنهم من تمني الموت، بالتأكيد على أن الموت لاحق بهم، سواء تمنوه أم لم يتمنوه، فقال تعالى: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.(الجمعة: 8)

فالموت لا يتأخر ولا يتقدم عن موعده المحدد لكل إنسان، إن حانت ساعته، والله تعالى يقول: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}.(الأعراف: 34)

والفرار من الموت لا يجدي ولا ينفع، إذ يقول تعالى: {قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلا قَلِيلاً}.(الأحزاب: 16)

ويقول سبحانه: {...قُل لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ...} (آل عمران: 154)، فلن تمنع الحصون الموت من إدراك الذي دنت منيته، وانتهى عمره، والله تعالى يقول: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ...}. (النساء: 78)

كراهية تمني الموت:

على الرغم من أن الموت واقع لا محالة، وكل نفس ستذوقه وترحل عن الدنيا به، فإن ديننا الحنيف ينهى عن تمني الموت كون هذا التمني يقود إلى سلبيات تحول دون تحقيق أهداف الشرع، وغايات الخلق، فقد جاء في الحديث الصحيح عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ، صلى الله عليه وسلم: (لاَ يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لاَ بُدَّ فَاعِلاً فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي).[1]

الحرص على أن لا نموت إلا مسلمين:

أمر الله عباده المؤمنين أن يبذلوا جهدهم ليلتزموا طاعة الله، حتى إذا ما جاءهم الموت أو فاجأهم كانوا متأهبين له بإسلامهم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}(آل عمران: 102)، ومن كان هذا حالهم، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، بل يكون أمثال هؤلاء -جعلنا الله منهم- متشوقين إلى لقاء ربهم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ؛ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَذْكُرُ عَنْ رَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، حَدِيثًا إِنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ هَلَكْنَا. فَقَالَتْ: إِنَّ الْهَالِكَ مَنْ هَلَكَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ، وَلَيْسَ مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ وَهُوَ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، فَقَالَتْ: قَدْ قَالَهُ رَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم: وَلَيْسَ بِالَّذِي تَذْهَبُ إِلَيْهِ، وَلَكِنْ إِذَا شَخَصَ الْبَصَرُ، وَحَشْرَجَ الصَّدْرُ، وَاقْشَعَرَّ الْجِلْدُ، وَتَشَنَّجَتِ الأَصَابِعُ،[2] فَعِنْدَ ذَلِكَ؛ مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقَاءَهُ).[3]

1. صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت.
2. ومعنى (وشخص البصر): أي: فتح المحتضر عينيه إلى فوق، فلم يطرف، (وحشرج الصدر): أي ترددت الروح في الصدر، (وتشنجت الأصابع): أي تقبضت، واقشعر الجلد، وهذه الأمور تجري على الإنسان حالة المحتضر، فتح الباري، 11 /359.
3. صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.

وكانت وصية الأنبياء لبنيهم وأقوامهم، الحرص على أن يبقوا محافظين على طاعة ربهم، حتى إذا ما جاءهم الموت، ماتوا على الإسلام والطاعة، فقال تعالى:{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ}. (البقرة: 132)

وقد قدَّم سيدنا يعقوب، عليه السلام، وهو يحتضر للموت نموذجاً في الحرص على صلاح دين ذويه؛ لينجوا بذلك من عذاب أليم، ويفوزوا بجنة عرضها السماوات والأرض، أُعدت للمتقين، فقال تعالى: {أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}.(البقرة: 133)

وحثَّ الله عباده على أداء الأعمال الصالحة، التي يتقربون بها إلى مولاهم الله، قبل أن يأتي الموت، ولا يجدي طلب التسويف، ورجاء التأخير، فيقول تعالى: {وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ* وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}.(المنافقون: 10 - 11)

ونَوّه القرآن الكريم بثواب الذي يموت وهو يسير لعمل الخير والمعروف، فقال تعالى: {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً}.(النساء: 100)

فالمطلوب من الإنسان أن يستعدَّ للموت استعداده للحياة وحرصه عليها، بل أشد وأبلغ؛ لأن الدنيا التي نَكدّ من أجلها، ونبذل الجهود المضنية لنيل بعض ملذاتها زائلة، ونحن لها مفارقون، طال العمر بنا أم قصر، وما بين كل نفس خلقها الله والموت إلا مسألة وقت ... ليس إلا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، سائلين الله السميع العليم أن يلطف بنا، وأن يحسن خواتيم أعمالنا، وأن لا يأمر بقبض أرواحنا إلا وهو راض عنا؛ لننجو من عذابه، ونفوز برضوانه وجنته، آمين يا رب العالمين.

لـمـاذا يحقدون على الإسلام ؟؟!

لا تكاد شمس يوم تغيب، حتى ترد أخبار من هنا وهناك عن إساءة للإسلام أو رموزه، على تنوع في أشكالها، واختلاف في مصادرها، فبعضها صريح كحملة حرق المصحف الشريف التي دخل جزء منها مرحلة التنفيذ، وأرجئ جزء آخر، وحملة الإساءة للنبي، صلى الله عليه وسلم، والتطاول على صحابته، رضي الله عنهم، وأزواجه الطاهرات، وملاحقة المسلمين والمسلمات، لا لذنب سوى أنهم يمارسون شعائر الإسلام، أو يلتزمون بأحكامه في لباسهم وأفكارهم، أو حتى لمجرد انتسابهم إليه.

والسؤال الذي يطرح نفسه بقوة هنا: **لماذا هذا الحقد الأعمى على الإسلام؟ وما بواعث هذا التطرف ضد المسلمين؟**

وعند محاولة الإجابة على هذا التساؤل، يظهر أن من أبرز القواسم المشتركة لإفساح المجال أمام الانتهاكات المتعمدة ضد الإسلام ورموزه، تكمن في التذرع بحرية الرأي، فتحت هذا الشعار تفتح الأبواب على مصاريعها للتعبير المتفلت عن القيم والمعايير، ومن أغرب العجائب والتناقضات أن الكيل بمكيال حرية التعبير يتسم بالنفاق والازدواجية، فإذا مس التعبير بعض القضايا أو الناس من المحصنين بحمايات معينة، فإن الدنيا تقوم ولا تقعد، وينهال الشجب من كل حدب وصوب، لانتهاك قدسية هذه الفئة من الناس، أو التعرض لشيء من قضاياها.

أما حين يكون الانتهاك ضد فئات أخرى مثل المسلمين ورموزهم ومقدساتهم، فإن المتحذلقين والمسوغين ينبرون لتبرير ذلك، بحجة احترام الحريات، وأن ذلك من نفحات الديمقراطية ونعيمها، ومن سمات قداستها.

وللتوضيح أكثر؛ فإن مسائل التعدي على المقدسات ينظر إليها حسب جانبين، أولهما

الطرف المعتدي، وثانيهما الطرف المعتدى عليه، فهناك فرق بين أن يصدر التعدي عن أصحاب جنسيات، أو ديانات، أو انتماءات معينة، وبين أن يصدر عن فئات أخرى، فصدوره عن المشمولين بالحماية العالمية، أو عن فئات تنتمي إلى أصحاب القوة والنفوذ العالمي، يختلف عن صدوره عن المقموعين عالمياً، والتقسيم نفسه يشمل الجهة المعتدى عليها، وسبق أن قيل:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر ... وقتل شعب كامل مسألة فيها نظر

وما يحدث في ضوء تعدد المكاييل الخاصة بانتهاك حرمة المقدسات حسب المعتدين والمعتدى عليهم ينضوي في سياق ذاك القول العنصري البغيض.

ظاهرة التباهي بالتطاول على القرآن الكريم

من أحدث صرعات استباحة انتهاك حرمة المقدسات تحت هذه الذريعة، ما يحدث من تفشي لظاهرة التباهي بالتطاول على القرآن الكريم، سواء بالحرق أو الدوس، أو ما شابه ذلك من الأفعال المشينة، وتزعم حملة لذلك القس تيري جونز -أسقف كنيسة فلوريدا-، من مركز (دوف وورلد أوت ريتش)، الذي أعلن عن نيته حرق المصحف أمام إحدى الكنائس في مدينة جينسفيل بولاية فلوريدا الأمريكية، في الحادي عشر من أيلول 2010م الذي يوافق الذكرى التاسعة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة عام 2001م. وقد علقت هناك إعلانات كتب عليها (اليوم العالمي لإحراق المصحف)، وبين جونز أن الهدف من خطة حرق المصحف هو (توجيه رسالة واضحة إلى العناصر المتطرفة في الإسلام، بأنه لن يتم التسامح معهم في الولايات المتحدة). **ووصف** الإسلام (من عمل الشيطان)، واعتبر أن القرآن الكريم مسؤول عن هجمات 11 سبتمبر، وتقول كنيسة فلوريدا: إنها تريد أن تتصدى لما وصفته بـ (شر الإسلام).

ومما يلاحظ أنه لم تتخذ إجراءات عملية لمنع تلك الحملة من التنفيذ، على الرغم من وصف هذا العمل من بعض المسؤولين الرسميين بأنه (خطير وأحمق)، وأمر (مقيت)

و(يتعارض مع القيم الأمريكية)، وأنه فكرة (مستفزة ومتعصبة وغير محترمة). وقال نجيب جبرائيل - رئيس منظمة الاتحاد المصري لحقوق الإنسان: إن ما يعتزم القس جونز تنفيذه يندرج تحت أعمال التطرف والإرهاب[1].

ويذكر أنه سبق للدنمارك أن أعلنت عن دعوة لحرق المصحف الشريف في الساحة الكبرى في كوبنهاجن، رداً على مقاطعة البلاد الإسلامية لمنتوجاتها، حيث أطلقت دعوة وقتها لكل دنماركي أن يشتري نسخة من القرآن، ويأتي بها إلى الساحة العامة الرئيسة ليتم حرقها.

وفي سياق متصل؛ نقلت بعض وكالات الأخبار أن متطرفين يهود مزقوا القرآن الكريم في القدس الغربية، وداسوه بأقدامهم وسط شارع يافا بالقدس الغربية[2].

ومما يدعو للاشمئزاز أن بعض المواقف الغربية الشاجبة لحرق المصحف لم تنطلق من حرص على العلاقات المتبادلة بين الدول والشعوب، ولا مراعاة للمحافظة على القيم والمقدسات وقبول الآخر، وإنما انطلقت تحسباً من ردود الفعل التي قد تقع في بعض أنحاء العالم، فدافعها تمثل في الخوف على المصالح الخاصة بها، وهي قادرة لو شاءت أن تمنع هذا الاعتداء وأمثاله، مستندة إلى مبادئها المزعومة التي تنادي بالعدل والمساواة.

وحملات حرق القرآن تندرج ضمن المحاولات القديمة الجديدة للنيل من القرآن الكريم، سواء ما تعلق منها بوصفه بالسحر، أم بإثارة الشبهات حوله، أم بالتعرض المباشر للاعتداء المادي عليه، وبعض الجهات تغمز وتلمز بالقرآن على طريقة المستهزئين الأقدمين ونهجهم، وبعضهم يتستر تحت عباءة مسميات تبدو أحياناً في ظاهرها إسلامية، ومثل أولئك مثل بعض أهل الكتاب الذين قال الله تعالى فيهم: {وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُواْ بِالَّذِيَ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُواْ آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ }(آل عمران: 72).

فكانت خطتهم من التظاهر بالاتباع المؤقت للإسلام، ثم الرجوع عنه، تشكيك

1. موقع أخبار مصر، تاريخ النشر: 9/ 9/ 2010.
2. موقع وكالة معا الإخبارية، 15/ 09/ 2010.

الناس والمؤمنين به، إذ يقول بعضهم: ما رجع هؤلاء عنه بعد دخولهم فيه وهم أولو علم إلا لعلمهم ببطلانه.

وبالتزامن مع حملة حرق القرآن أثار خبر تكريم المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل للدنماركي كورت ويسترغارد، صاحب الرسوم المسيئة للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، غضباً واسعاً بين مسلمي العالم وبخاصة في ألمانيا.

ومما لا شك فيه أن الحملات العنصرية والمتطرفة ضد الإسلام ورموزه لا تخدم حالة الاستقرار والسلام العالمية، وإنما تذكي روح العداء والحروب بين الشعوب والأمم والديانات، وتدل على مدى التعصب الأعمى الذي يسيطر على عقول هؤلاء الناس وفكرهم وسلوكهم، وهي تدل كذلك على الحقد التاريخي الكامن في نفوس القائمين على هذه الحملات وعقولهم، وقد حذر القرآن الكريم ممن يكنون الحقد والكراهية للمسلمين، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاء مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ}(آل عمران:118)

وهذه المواقف والحملات تنم أيضاً عن عقلية الغرور والغطرسة التي تنطلق منها موجات الاعتداء والكراهية للإسلام والمسلمين في الغرب، والتي يغذيها ضعف المسلمين، وقصور فاعلية ردود أفعالهم، بالإضافة إلى الخوف مما يسمى بالإرهاب الإسلامي، وقد أثار مشروع بناء مسجد قرب موقع مركز التجارة العالمي الذي تعرض لهجوم في 11 أيلول 2001م، موجة من الاعتراض والسخط لدى بعض الجهات هناك، ويحتج بعض هؤلاء المعترضين بالتحسب مما يسمى الإرهاب الإسلامي، والذي بات يعرف بـ (الإسلامو – فوبيا) أي التخوف من الإسلام، وقد استُغِلت أحداث 11 أيلول 2001م منذ وقوعها، ولغاية الآن في التحريض الواسع ضد الإسلام والمسلمين، سواء على المستوى السياسي أم الديني أم الثقافي أم الاجتماعي، ويتزعم حملة التحريض هذه المحافظون الجدد، واستبيحت حرمات المسلمين في بلدانهم وخارجها، بحجة محاربة الإرهاب، وملاحقة الإرهابيين، حتى

إن (أوباما) الرئيس الأمريكي نفسه لم يسلم من براثن هذه الحملة، لوجود صلة بين واحد من سلالته والإسلام.

وإذا ما تمت مراجعة متروية للوقائع التاريخية في ظلال الآيات القرآنية، فإن المراجع يلحظ التعنت حيال القرآن وآياته من قبل المكابرين الحاقدين، والله تعالى يقول: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ...} (سبأ:31)، وهم {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ }(الحجر:91).

والكافرون كانوا يقولون عند قراءة النبي، صلى الله عليه وسلم، القرآن: إئتوا باللغط ونحوه، وصيحوا في زمن قراءته، فيسكت عن القراءة، قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ}(فصلت:26).

وعند الاسترسال في تدبر الحقائق ذات الصلة بالانتهاكات السافرة ضد الإسلام ورموزه، يلاحظ أنها تفقد وجه غرابتها، فالحقد الأعمى على الإسلام والمسلمين، يأتي في طليعة الدوافع لشن هذه الحملات المسعورة ضد الإسلام، فلا يروق لهؤلاء الحاقدين أن يكون القرآن نوراً من الله مبيناً، أنزله على قلب خاتم المرسلين محمد، صلى الله عليه وسلم، فالله تعالى يقول: {فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}(التغابن:8).

ويقول سبحانه:{يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً} (النساء:174)، والذين يتبعون هذا النور هم المهتدون، فالله تعالى يقول: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(الأعراف:157).

والدعاة إلى الإسلام يتصدرهم الرسول، صلى الله عليه وسلم، يهدون بالقرآن إلى الصراط المستقيم، لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

{الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّك لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (الشورى:52).

والقرآن أولاً وأخيراً تلقاه النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، من رب العالمين الْعَزِيز الرَّحْمَن الرَّحِيم الْحَكِيم الحَمِيد الْعَلِيم، شاء من شاء، وأبى من أبى، والله تعالى يقول: {وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ}(النمل:6)، {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً} (الإنسان:23)، {وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(الشعراء:192)، {تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ}(يس:5)، {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}(الزمر:1)، {تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (غافر:2)، {تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}(فصلت:42)، {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}(فصلت:42)، {تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ}(الواقعة:80).

والذين لا يروق لهم أن يكون للقرآن الكريم هذا المقام والمجد الرباني يسعون بكل ما أوتوا من قوة للتصدي لهذا النور، بدلاً من مناصرته، ونهاية المطاف تقود إلى الإقرار بأن من لم يجعل الله له نوراً فما له من نور، مصداقاً لقوله تعالى: {... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ}(النور: 40).

وتلك النهاية تقود أيضاً إلى أن الله لمن قصد إطفاء نوره بالمرصاد، مصداقاً لقوله سبحانه: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ}(التوبة: 32)، وقوله سبحانه: { يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (الصف: 8).

وقد أنكر الله الغفلة عن تدبر القرآن والتأثر به، فقال تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}(محمد: 24).

وقد تكون الجبال أعقل من الغافلين عن تدبر القرآن وأخشى منهم، مصداقاً لقوله تعالى: {لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}(الحشر:21).

ولا بد في هذا المقام من تذكير من يعادون الله بإعلانهم الحرب على مقدساته،

وخير التذكير ما أنزله الله في كتابه العزيز من وعيد لمن فتنوا أنفسهم وظلموها، بأن الندم سيعتريهم، ولات حين مندم، فقال تعالى: {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاء أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ}(الحديد:14).

وقال سبحانه: {قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضْعَفُ جُنداً}(مريم:75)، {...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}(الشعراء:227){كَلَّا سَيَعْلَمُونَ* ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ}(النبأ: 4 – 5).

ومن جانب آخر؛ فإن المتابع لما تتناقله وسائل الإعلام من تبعات حملة التعدي على المصحف الشريف بالحرق، يجد ما يستوقفه عند ذيولها، ومن ذلك ما ورد عن رد مميز ومعبر من شباب مسلمين في الأردن، إذ قاموا بالرد على دعوات حرق المصحف بزرع الزهور في إحدى كنائس العاصمة عمان، فقد أوردت العربية نت أن عدداً من الشباب الأردنيين توجهوا إلى كنيسة البشارة في العاصمة عمّان، ليقدموا إكليلاً من الزهور البيضاء وباقات من الزهور لرهبان الكنيسة، رداً على المتطرفين الذين قاموا بتمزيق نسخة من القرآن الكريم وحرقها، ورداً على دعاة التطرف، كما قال منظمو الفعالية، ولا شك في أن هذه المبادرة تعبر عن موقف حضاري، مستلهم من تعاليم الإسلام وقيمه التي يسودها التسامح والعدل.

وبحسب صحف أردنية نشرت الخبر الثلاثاء 14 / 9 / 2010م فقد كان في استقبال الشبان عدد من الرهبان، ووصف أحدهم رجل الدين الأمريكي الذي دعا إلى حرق نسخ من القرآن، بأنه ذو نوايا لئيمة، وليس من رجال الدين المسيحي الذي من أسسه المحبة، وطالب بألا يوصف ذلك القس بأنه صاحب كنيسة، لأن الكنائس لا تفعل مثلما يفعل.

وأكد المنظمون للفعالية أنهم انطلقوا بفكرتهم بسبب حبهم لكتاب الله، وبسبب فهمهم للإسلام كدين تسامح ومحبة، وأن القس الذي دعا لحرق مصاحف لا يمثل إلا نفسه، وبينوا أن الفكرة وليدة اللحظة، وتأتي تعزيزاً لقيم التسامح، ولتوجيه رسالة إلى العالم بأن الدين

الإسلامي دين يسر، وبأننا أرض الأديان والرسالات السماوية والتعايش.

مشيرين إلى أن الكنيسة تقبلت الفكرة بترحاب كبير، وأن زرع الورود جاء رداً على دعاة التطرف، وتأكيداً على جذور العلاقة الإسلامية المسيحية الراسخة، وقد أرادوا بالزهور أن تكون عبارة عن باقة لتعزيز قيم التسامح.(*)

فحقيقة الإسلام أنه دين التسامح والعفو، لكنه ليس دين الدنية والهوان، ولا دين التطرف والإرهاب كما يحلو لبعضهم أن يتصوروه أو يصوروه للآخرين، وهو أولاً وأخيراً محفوظ في كنف رب العالمين، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: 9)، ويجدر في هذا المقام التذكير بتفريق الإسلام في الحكم على الناس، فلا يأخذ بعضاً بجريرة آخرين، مقرراً مبدأ أن لا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وقد جاء في القرآن الكريم النص الصريح على الممايزة والتفريق بين أصناف أهل الكتاب، فقال تعالى: {لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَـئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ* وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوْهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ* إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُم مِّنَ اللهِ شَيْئاً وَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(آل عمران: 113 – 116).

وقال تعالى: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ}(المائدة: 82).

فالعبرة بالمواقف لا بالمسميات، فمن يشجب الاعتداء على مقدسات المسلمين، ينبغي للمسلمين أن يميزوا بين الموقف منه، وبين الموقف ممن يعتدي على حرماتهم ومقدساتهم.

* العربية نت، http://www.alarabiya.net/articles/2010/09/14/119226.html.

الفصل الثاني
عبادات

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
.7	احتساب أجر الصيام	51
.8	المسارعة إلى الخير في رمضان	56
.9	تجديد عزائم الخير والإيمان في رمضان	61
.10	الصيام وتعزيز الوازع الداخلي	71
.11	الحج وسلوك العابد	79
.12	البيت الحرام وحجاجه في أمن الرحمن	89
.13	الحج ومشكلة الزحام	98

احتساب أجر الصيام

يحتل صيام شهر رمضان مكانة رفيعة ومميزة في الإسلام، فهو ركن من أركانه الخمسة، وكل عمل ابن آدم له إلا الصوم، فهو لله، وهو يجزي به، والصوم يشفع للصائم، ويؤهله لدخول الجنة من باب الريان، وتأكدت منزلة هذا الشهر الفضيل في كثير من النصوص الشرعية، التي بيَّن بعضها أن العمل فيه يتضاعف فضله وأجره عما سواه من الأيام والشهور، فعَنْ عَطَاءٍ، قَالَ: (أَنَّ النَّبِي، صلى الله عليه وسلم، قَالَ لاِمْرَأَةٍ مِنَ الأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهَا أُمُّ سِنَانٍ: مَا مَنَعَكِ أَنْ تَكُونِي حَجَجْتِ مَعَنَا. قَالَتْ: نَاضِحَانِ كَانَا لأَبِي فُلاَنٍ - زَوْجِهَا - حَجَّ هُوَ وَابْنُهُ عَلَى أَحَدِهِمَا، وَكَانَ الآخَرُ يَسْقِي عَلَيْهِ غُلاَمُنَا. قَالَ: فَعُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً. أَوْ حَجَّةً مَعِي)(*)

والصيام كسائر العبادات وأعمال الخير، يستلزم قبولها والمثوبة عليها إخلاص النية لله في أدائها، والمراد بالنية القصد والابتغاء، والباعث للعمل أو القول، والنية المخلصة تكون لوجه الله، وطلباً لثوابه ورضاه.

وقد عني القرآن الكريم بالنص على هذا البعد، فقال تعالى: {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}(البينة:5)

وقال سبحانه: {لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتَغَاء مَرْضَاتِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً}(النساء:114)

فإخلاص النوايا لله في الأعمال يأتي على رأس متطلبات قبولها عنده سبحانه، وقد اقترن الحديث عن مثوبة الصيام والقيام باشتراط الاحتساب لله، مما يعني ضرورة التركيز على هذا

* صحيح مسلم، كتاب الحج، باب فضل العمرة في رمضان.

المتطلب، الذي عنيت بالنص عليه الأحاديث الصحيحة التي بيَّنت جزاء من صام رمضان، وقامه، وقام ليلة القدر، حيث تكرر في تلك الأحاديث الشرط المتضمن في قوله صلى الله عليه وسلم: (إيماناً واحتساباً)، ففي جزاء احتساب صيام رمضان وقيامه، وقيام ليلة القدر، يقول عليه الصلاة والسلام: (مَنْ صَامَ رَمَضَانَ وَقَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[1] وقال في القيام: (مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ)[2]

ويتوافق مع هذا التركيز بيان اختصاص الله بالصوم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَأَبِي سَعِيدٍ، قَالَا: (قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنَّ الصَّوْمَ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، إِنَّ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَيْنِ: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ اللهَ فَرِحَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ)[3]

ومن ضرورة النية أنها تميز العادة عن العبادة، فمن امتنع عن الأكل والشرب لمجاملة الناس، أو خجلاً منهم، أو لأنه لم يجد طعاماً ولا شراباً، أو لا يرغب بتناولهما، أو لديه حمية طبية، أو برنامج لتخفيف الوزن، يختلف كلياًّ عن الذي ترك الطعام والشراب بقصد التقرب إلى الله، وسعياً لنيل ثوابه ورضاه سبحانه.

ونوع النية يحدد جنس الجزاء في العبادات، وكثير من المعاملات في فقهنا الإسلامي، فالذي يعمل عملاً من أعمال الآخرة دون أن يخلص به لله، غير الذي يؤدي ذلك العمل نفسه بنية يريد بها وجه الله، وابتغاء رضاه سبحانه، وقد نص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على هذه المفارقة في قوله: (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا

1. سنن الترمذي، كتاب الصوم عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في فضل شهر رمضان، وصححه الألباني.

2. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان وهو التراويح.

3. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ)[1]

ومن الآثار العملية في الأحكام الفقهية التي تترتب على اشتراط النية المخلصة لله في الصوم، أنه يسقط عن الكافر والمجنون والصبي لتعذر صحة النية من قبلهم.

ولمزيد من التحذير الخاص بمن يخلطون النوايا، أو بمعنى آخر لا يخلصون الأعمال لله، حتى لو كان ظاهرها الخير والصلاح، نسوق ما روي عن سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، قَالَ: (تَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ لَهُ نَاتِلُ أَهْلِ الشَّامِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ حَدِّثْنَا حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قَالَ نَعَمْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَقُولُ: إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا، قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَدْ قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا، قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ. وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ. فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا، قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلاَّ أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ، لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ. فَقَدْ قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ، فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ).[2]

فالنار مصير الذين يقصدون غير الله في أعمالهم التي يتظاهرون أنهم يقدمونها إليه سبحانه، كيف لا، والله أغنى الشركاء عن الشرك، كما جاء في الحديث القدسي، عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب بدء الوحي.
2. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار.

عَن الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[1]

حتى إن نتائج السلوك ومظاهره تختلف باختلاف النية، فالذي تكون نيته من الصيام ابتغاء وجه الله ومرضاته، يكون حليماً عفواً متسامحاً مع مخالطيه، بعكس الذي يفتقر لمثل هذه النية، فإنه يزداد توتراً بالصيام، ويبرر سلوكه الفج بأنه صائم، فالأول احتسب الأجر عند الله، وسار على نهج الله، وهدي رسوله، صلى الله عليه وسلم، الذي وجه الصائمين للحلم وحسن الخلق، فعَن أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ يَوْمًا صَائِمًا فَلَا يَرْفُثْ، وَلَا يَجْهَلْ، فَإِنْ امْرُؤٌ شَاتَمَهُ، أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ إِنِّي صَائِمٌ، إِنِّي صَائِمٌ)[2]

ورُب سائل يسأل عن كيفية فحص النية، وقد أجاب الإمام أحمد بن حنبل عن مثل هذا التساؤل، حين سُئل: كيف النية؟ فقال: (يعالج الشخص نفسه، إذا أراد عملاً لا يريد به الناس)[3]. بمعنى أن الإنسان على نفسه بصير، فهو يشخص بواعثه للعمل، فإن وجدها متجهة نحو الناس، فلا يكون من المخلصين لله في هذا العمل، أما إن وجدها خالصة لله، فهو صادق النية وسليمها.

وللصيام الذي يُحتسب لله خيرات كثيرة، منها إدراج صاحبه مع الداخلين من الباب الذي خصصه الله في الجنة للصائمين، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:(إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ، فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ)[4]

وَيُكَفِّر الصومُ سيئاتِ الصائمين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

1. صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب حفظ اللسان للصائم.
3. اتحاف القاري بدرر البخاري، 2/ 8.
4. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

كَانَ يَقُولُ: (الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُن، إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرُ)[1]

حتى إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أشاد برائحة فم الصائم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ)[2]

فالمسلم الصائم الذي يمتنع عما لذّ وطاب من الطعام والشراب، ويلتزم بمتطلبات الصيام وشروطه، حريّ به أن يدقق في الأساس المعتمد لقبول هذه العبادة، والمتمثل بالتوجه إلى الله وحده بها، دون أن تعتري هذا التوجه أي ملابسات أو تداخلات تشوه صفاءه، أو تخرج به عن مساره الشرعي، فإن حدث مثل هذا الخروج - والعياذ بالله - فإن الصائم قد لا يجد ثمرة الإمساك عن المفطرات ظاهرة في سلوكه ومعاملاته في الدنيا، مع ما يترتب على ذلك من خسران ثوابه وجزائه في الآخرة.

سائلين الله عز وجل أن يوفقنا لصيام رمضان وقيامه، احتساباً لوجهه الكريم، وابتغاء مرضاته، ووفق شرعه، وهدي نبيه، صلى الله عليه وسلم، وأن يتقبله منا، إنه سبحانه سميع قريب، مجيب الدعاء.

---

1. صحيح مسلم ، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.
2. صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب ما يُذكر في المسك.

المسارعة إلى الخير في رمضان

تختلف أحوال الناس في رمضان، فصالحهم يترقب حلوله، ويتلَّهف لصيامه وقيام ليله، وطالحهم لا يلقي له بالاً، بل يضيق به ذرعاً، ويتنكب دربه، فلا يصوم ولا يقوم، وبعض الناس تصوم أفواههم عن ابتلاع الأكل والشراب، ويصلّون أعداداً من الركعات على سبيل إسقاط الواجب، والتخلص من عبئه، دون أن يستشعروا روح الصيام والصلاة.

والأصل في حياة المسلم أن تكون موجهة نحو طاعة الله، في جميع الأوقات والظروف والأحوال، فهو في طاعة أبدية، وعبادة متواصلة، ومما لا جدال فيه أن شهر رمضان موسم مميز للطاعة والعبادة، فبالإضافة إلى العبادة اليومية التي يمارسها المسلم في نهاره وليله، ففي رمضان المزيد منها، حيث فُرض في نهاره الصيام، وسُنَّ لليله قيام خاص، وفيه فرضت على كل نفس مسلمة صدقة، ويقوم كثير ممن تجب عليهم الزكاة بأدائها، ويسارع المؤمنون إلى التزود بحسن الطاعة لله، مسارعين إلى المغفرة والرضوان، ملبين نداء الله، حيث قال عز وجل: {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} (آل عمران:133).

وقال سبحانه وتعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمَ} (الحديد:21).

فالمؤمنون الصائمون أُشربوا طاعة الله في قلوبهم، وانطلقوا يصومون رمضان، ويصلون، ويتعبدون في أقوالهم وأفعالهم ساعاتٍ من أعمارهم، وقد أثنى الله عليهم لمسارعتهم في

ذلك، فقال سبحانه: {أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ}(المؤمنون:61).

فأهل الصلاح هم الذين يصومون نهار رمضان، ويقومون ليله بالصلاة، والذكر، وتلاوة القرآن الكريم، ابتغاء وجه الله ومرضاته، محتسبين الأجر والثواب الذي وعدهم الله إياه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ)[1].

وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِنَّ فِي الْجَنَّةِ[2] بَابًا، يُقَالُ لَهُ الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَقُومُونَ، لَا يَدْخُلُ مِنْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، فَإِذَا دَخَلُوا، أُغْلِقَ، فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ)[3]

فرمضان شهر طاعة بامتياز، ومن فضائله، ما روي عن أبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِذَا دَخَلَ رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، وَسُلْسِلَتْ الشَّيَاطِينُ)[4]

ومن الآثار الصحيحة الواردة في فضل مطلق الصيام، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، قَالَ: (سَأَلْتُ عَائِشَةَ عَنْ صِيَامِ رَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَقَالَتْ : كَانَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ قَدْ صَامَ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ قَدْ أَفْطَرَ، وَلَمْ أَرَهُ صَائِمًا مِنْ شَهْرٍ قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ صِيَامِهِ مِنْ شَعْبَانَ. كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ. كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلاَّ قَلِيلاً).[5]

ويروي حُذَيْفَةَ، فيقول: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ عُمَرَ ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ يَحْفَظُ قَوْلَ رَسُولِ

1. صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب ما يذكر في المسك.
2. قَالَ الزَّيْن بْن الْمُنِير: إِنَّمَا قَالَ فِي الْجَنَّة، وَلَمْ يَقُلْ لِلْجَنَّةِ، لِيُشْعِر بِأَنَّ فِي الْبَاب الْمَذْكُور مِنْ النَّعِيم وَالرَّاحَة فِي الْجَنَّة، فَيَكُون أَبْلَغَ فِي التَّشَوُّق إِلَيْهِ .(فتح الباري)
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الريان للصائمين.
4. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده.
5. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب صيام النبي، صلى الله عليه وسلم، في غير رمضان.

اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فِي الْفِتْنَةِ[1]، قُلْتُ: أَنَا، كَمَا قَالَهُ، قَالَ: إِنَّكَ عَلَيْهِ، أَوْ عَلَيْهَا - لَجَرِيءٌ قُلْتُ: فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ تُكَفِّرُهَا الصَّلاَةُ وَالصَّوْمُ وَالصَّدَقَةُ وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ، قَالَ: لَيْسَ هَذَا أُرِيدُ، وَلَكِنِ الْفِتْنَةُ الَّتِي تَمُوجُ كَمَا يَمُوجُ الْبَحْرُ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْكَ مِنْهَا بَأْسٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ بَيْنَكَ وَبَيْنَهَا بَابًا مُغْلَقًا، قَالَ: أَيُكْسَرُ أَمْ يُفْتَحُ؟ قَالَ: يُكْسَرُ، قَالَ: إِذًا لاَ يُغْلَقَ أَبَدًا، قُلْنَا: أَكَانَ عُمَرُ يَعْلَمُ الْبَابَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَمَا أَنَّ دُونَ الْغَدِ اللَّيْلَةَ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ بِحَدِيثٍ لَيْسَ بِالأَغَالِيطِ[2]، فَهِبْنَا أَنْ نَسْأَلَ حُذَيْفَةَ، فَأَمَرْنَا مَسْرُوقًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: الْبَابُ عُمَرُ)[3]

ومن خصوصيات الطاعة في رمضان، ما ورد في قيام العشر الأواخر منه، فعَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَجْتَهِدُ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مَا لاَ يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِه)[4]

وليس كل الناس على الصيام والصلاة يحافظون، وهذا ديدنهم دوماً، فمنهم المتقون، ومنهم الضالون، ومنهم المنافقون...إلخ، والله تعالى يخبر عن أهل الكتاب في هذا السياق، فيقول سبحانه: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ}(فاطر: 32)

وفي مقابل مجالات الطاعة التي تملأ نهار رمضان وليله، تصدر عن بعض الناس أعمال وأقوال تتنافى مع روح الطاعة ومقتضاها، فيصوم بعضهم عن الطعام والشراب والجماع فحسب، وينتهك حرمة الشهر الفضيل بالكذب واللغو، وفحش القول، والغيبة والنميمة، والاختلاس والتحايل، وأكل الحرام، والتعدي على حرمات الناس وأموالهم، والتقصير في

1. مَعْنَى الْفِتْنَة فِي الْأَصْلِ الِاخْتِبَار وَالِامْتِحَان، ثُمَّ اِسْتُعْمِلَتْ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَكْشِفُهُ الِامْتِحَانُ عَنْ سُوء. وَتُطْلَقُ عَلَى الْكُفْرِ، وَالْغُلُوِّ فِي التَّأْوِيلِ الْبَعِيدِ، وَعَلَى الْفَضِيحَةِ وَالْبَلِيَّةِ وَالْعَذَابِ وَالْقِتَالِ وَالتَّحَوُّلِ مِنْ الْحَسَنِ إِلَى الْقَبِيحِ وَالْمَيْلِ إِلَى الشَّيْءِ وَالْإِعْجَابِ بِهِ، وَتَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَة} (فتح الباري)
2. الْأَغَالِيط جَمْع أُغْلُوطَة وهي صعاب المسائل ودقائق النوازل.
3. صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلاة كفارة.
4. صحيح مسلم، كتاب الاعتكاف، باب الاجتهاد في العشر الأواخر من شهر رمضان.

الأعمال والوظائف والواجبات، والرسول، صلى الله عليه وسلم، يحذر الصائمين من هذا الانتهاك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ[1] وَالْعَمَلَ بِهِ والجهل، فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ[2] فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ)[3]

فالصائم يمسك عن الغيبة والنميمة، والسب والشتم، والقيل والقال، واللغو والرفث، بالإضافة إلى إمساكه عن الطعام والشراب ومفطرات الصيام، ويوجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، الصائمين إلى مراعاة الانضباط العام في سلوكهم، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْه، قال: (قَالَ رَسُولُ الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ، إِلَّا الصِّيَامَ، فَإِنَّهُ لِي، وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخبْ[4]، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ).[5]

والأخذ بمنهج الله في كثير من النواحي، لا يسوغ التخلي عنه في بقيتها، فإذا صام الشخص، وصلى، وقرأ القرآن، وأدى ما فرض الله من الصدقات والزكاة، فذلك أمرٌ في منتهى الروعة والجمال والقبول، ولكن هذا الجمال يشوبه البطلان، حين يُمزج به استمراء المنكرات في مجالات الحياة الأخرى، وسبق أن سقنا تحذير الرسول، صلى الله عليه وسلم، للصائمين من أن يتداخل قولهم للزور وعملهم به وجهلهم بصيامهم.

1. المراد بقول الزور : الكذب، والجهل: السفه، والعمل به أي بمقتضاه كما تقدم.
2. ورد في فتح الباري: أن قوله: (فليس لله حاجة) هو مجاز عن عدم قبول الصوم. (فتح الباري).
3. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: {واجتنبوا قول الزور}(الحج: 30).
4. الصَّخَب: الْخِصَام وَالصِّيَاح، والْمُرَادَ من النَّهْي عَنْ ذَلِكَ تَأْكِيده حَالَة الصَّوْم، وَإِلَّا فَغَيْرُ الصَّائِم مَنْهِيّ عَنْ ذَلِكَ أَيْضًا .
5. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول: إني صائم إذا شتم.

ويحذر الله تعالى في أكثر من جانب ومجال من أن تحبط الأعمال، لأسباب تتعلق أحياناً بهذا الخلط بين الخير والشر فيها، فيقول سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ}(الحجرات:2)

وفي إعمار المساجد يقول تعالى: {مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ الله شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ}(التوبة:17)

{ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ}(محمد:28)

وفقنا الله لصيام شهر رمضان على الوجه الذي يرضيه سبحانه، وجعلنا من عتقائه.

تجديد عزائم الخير والإيمان في رمضان

ينتظر المؤمنون في كل عام شهر رمضان بشغف، متأهبين لصيام نهاره، وقيام ليله، وتلاوة القرآن فيه، والناظر في المساجد، وأسواق المسلمين، ومواطن تجمعهم، يلمس بصمات هذا الشهر المبارك وآثاره فيها، ولا عجب في ذلك، فهو شهر يتميز بطاعة الله، المتمثلة بشكل رئيس في الامتناع عن الأكل والشرب وبقية المفطرات، من طلوع فجر كل يوم فيه، وحتى مغيب شمسه، فإذا ما اقترب موعد بدء الصيام، الذي يكون مع بزوغ الفجر، الذي يعلن عنه المؤذنون، فإن المسلمين المكلفين بالصيام ينهضون لتناول ما تيسر من القوت والشراب، فيما يعرف بالسحور، وذلك قبيل أذان الفجر بقليل، إذ من سنة المصطفى، صلى الله عليه وسلم، تأخير السحور إلى ما قبل أذان الفجر بقليل، فعن أَنَسٍ، عن زَيْدِ بن ثَابِتٍ، رضي الله عنه، قال: (تَسَحَّرْنَا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ قام إلى الصَّلاةِ، قلت: كَمْ كان بين الأَذَانِ وَالسَّحُورِ؟ قال: قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةً).[1]

ومع غروب شمس نهار الصيام، يتناول المسلمون: أفراداً وعائلات، وأسراً ومجموعات، طعامهم الذي مُنعوه في النهار، وذلك مع بدء الليل، الذي يعلن عنه من خلال رفع أذان المغرب تزامناً مع الغروب، ويقوم بهذا الإعلان مؤذنو المساجد، حين يصدحون بالأذان لصلاة المغرب، فيصلونها، ويتناولون طعام إفطارهم على وجه التعجيل دون تأخير، عملاً بسنة النبي، صلى الله عليه وسلم، حيث قال: (لا يَزَالُ الناس بِخَيْرٍ، ما عَجَّلُوا الْفِطْرَ)[2]، وعن ابن أبي أَوْفَى، رضي الله عنه، قال: (كنت مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في سَفَرٍ

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قدر كم بين السحور وصلاة الفجر.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب تعجيل الإفطار.

فَصَامَ حتى أَمْسَى، قال لِرَجُلٍ: انْزِلْ، فَاجْدَحْ لي، قال: لو انْتَظَرْتَ حتى تُمْسِيَ، قال: انْزِلْ، فَاجْدَحْ لي، إذا رَأَيْتَ اللَّيْلَ قد أَقْبَلَ من هَا هُنَا، فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ).[1]

فتعجيل الإفطار هو سنة نبينا الأكرم، محمد بن عبد الله، عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم، فعن أبي عَطِيَّةَ، قال: (دَخَلْتُ أنا وَمَسْرُوقٌ على عَائِشَةَ، فَقُلْنَا: يا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ؛ رَجُلَانِ من أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، صلى الله عليه وسلم، أَحَدُهُمَا؛ يُعَجِّلُ الإِفْطَارَ، وَيُعَجِّلُ الصَّلاةَ، وَالآخَرُ؛ يُؤَخِّرُ الإِفْطَارَ، وَيُؤَخِّرُ الصَّلاةَ، قالت: أَيُّهُمَا الذي يُعَجِّلُ الإِفْطَارَ وَيُعَجِّلُ الصَّلاةَ؟ قال: قُلْنَا: عبد اللهِ، يَعْنِي ابن مَسْعُودٍ، قالت: كَذَلِكَ كان يَصْنَعُ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، زَادَ أبو كُرَيْبٍ، وَالآخَرُ، أبو مُوسَى).[2]

الصيام وتجديد عزائم الإيمان والصلة بالله:

لا يقتصر الصيام على مسألة الإمساك عن المفطرات في نهار الصيام، وتناول المباح منها بعد الإفطار، وإنما للصيام مؤثرات إيمانية، يجدد من خلالها الصائم بيعته مع الله، على التزام طاعته، وتجنب معاصيه، فلم يكن عبثاً أن تختم الآية القرآنية التي نصت على فرض الصيام، بذكر رجاء تحقق التقوى للصائمين، مما يشير إلى أن التقوى غاية للصيام وهدف له ومحصلة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}(البقرة: 183)، وفي التفسير الكبير يعدد الرازي وجوهاً لمناسبة ذكر {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} في هذا الموضع القرآني؛ أحدها: أنه سبحانه بيّن بهذا الكلام، أن الصوم يورث التقوى لما فيه من انكسار الشهوة، وانقماع الهوى، فإنه يردع عن الأشر، والبطر، والفواحش، ويهون لذات الدنيا ورياستها، وذلك لأن الصوم يكسر شهوة البطن والفرج، وإنما يسعى الناس لهذين كما قيل في المثل السائر: (المرء يسعى لعارية بطنه وفرجه)، فمن

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب تعجيل الإفطار.
2. صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه واستحباب تأخيره.

أكثر الصوم هان عليه أمرهما، وخفت عليه مؤنتهما، فكان ذلك رادعاً له عن ارتكاب المحارم والفواحش، ومهوناً عليه أمر الرياسة في الدنيا، وذلك جامع لأسباب التقوى، فيكون معنى الآية؛ (فرضتُ عليكم الصيام لتكونوا به من المتقين، الذين أثنيت عليهم في كتابي، وأعلمت أن هذا الكتاب هدى لهم)، ولما اختص الصوم بهذه الخاصية، حسن منه تعالى أن يقول عند إيجابها {لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}، على وجه وجوبه؛ لأن ما يمنع النفس عن المعاصي، لا بد أن يكون واجباً.

وثاني وجوه ذكر{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} في موضع فرض الصيام؛ أن يفيد المعنى: بأنه ينبغي لكم بالصوم أن يقوى رجاؤكم في التقوى، وهذا معنى {لَعَلَّ}.

وثالثها؛ أن يفيد المعنى (لعلكم تتقون الله) بصومكم، وترككم للشهوات، فإن الشيء كلما كانت الرغبة فيه أكثر، كان الاتقاء عنه أشق، والرغبة في المطعوم والمنكوح، أشد من الرغبة في سائر الأشياء، فإذا سهل عليكم اتقاء الله بترك المطعوم والمنكوح، كان اتقاء الله بترك سائر الأشياء أسهل وأخف.

ورابعها، المراد {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } أي لعلكم تتقون إهمالها، وترك المحافظة عليها، بسبب عظم درجاتها وأصالتها.

وخامسها، لعلكم تنتظمون بسبب هذه العبادة في زمرة المتقين؛ لأن الصوم شعارهم. والله أعلم.(*)

ومن الوجوه التفسيرية لربط رجاء التقوى بفرض الصيام، يظهر مدى الصلة العميقة التي تربط بينهما، وتلك قضية عقائدية بامتياز، فالصائم يوثق صلته بالله، فهو يدع طعامه وشرابه لله وحده، كما ورد في الحديث القدسي الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: (... وَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمَ،

---

* التفسير الكبير، 5/ 60 - 61.

أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى من رِيحِ الْمِسْكِ، يَتْرُكُ طَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ، وَشَهْوَتَهُ، من أَجْلِي، الصِّيَامُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا).[1]

فقد جعل الله الصوم له، وهو يجزي به سبحانه، كما ورد في رواية أخرى للحديث القدسي الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، (قال الله: كُلُّ عَمَلِ ابن آدَمَ له، إلا الصِّيَامَ، فإنه لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ، وإذا كان يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ، فلا يَرْفُثْ، ولا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ، أو قَاتَلَهُ، فَلْيَقُلْ: إني امْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيده؛ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ، أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ من رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا؛ إذا أَفْطَرَ فَرِحَ، وإذا لَقِيَ رَبَّهُ، فَرِحَ بِصَوْمِهِ).[2]

ومن وجوه توثيق صلة الصائم العقائدية بالله، حسب الذكر القرآني، أن الله سبحانه وتعالى، نص على فرض الصيام في شهر رمضان، وبيان بعض الأحكام المتعلقة بالصيام، ثم أتبع هذا النص مباشرة في الآية التالية بالإجابة عن سؤال عباد الله عن قرب الله أو بعده، ليجدوا أسلوبهم المناسب في دعائه سبحانه، فقال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}(البقرة: 186)

ومن خلال هذين الشاهدين على الربط العقائدي بعبادة الصيام، يتبين أن الصيام مدرسة للتربية العقائدية، التي تنمو بها معززات الإيمان لدى الصائم وتزداد، ويصبح به على مستوى إيماني أفضل وأقوى وأمتن، فتتجدد فيه نفحات الإيمان، وتختزنُ فيه طاقات إيمانية تكمن في خبايا الصائم، ودوافع سلوكه وعبادته ومقويات إيمانه.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم.
2. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم.

الصيام وتجديد عزائم الثقة بنصر الله القريب:

من العزائم التي تتجدد بالصيام وتتقوى، تلك المتعلقة بثقة الصائم بنصر الله وعونه وتأييده، فالذي يوثق صلته بالله يقرأ الأحداث بطريقة مختلفة عن الذي يفتقر إلى هذه الصلة، أو تكون لديه ضعيفة، فالذي يصوم يجد لنفسه سعة، ومساحة للتأمل في الأحداث وتحليلها، وقراءتها على وجه صحيح، يتناسب مع ما ورد في القرآن الكريم بشأنها، مثل قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}(الحج: 38) وقوله تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}.(البقرة: 214)

وقد ورد في الحديث القدسي ربط واضح للعبادة بعون الله ونصره وحمايته، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ الله قال: من عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إليّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إليّ بِالنَّوَافِلِ حتى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ؛ كنت سَمْعَهُ الذي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَهُ التي يَمْشِي بها، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيْءٍ أنا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وأنا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ).(*)

الصيام وتجديد عزائم البيعة مع الله على حسن طاعته:

يجد المسلم في شهر الصيام موسماً، وفرصة ثمينة، للسعي نحو مزيد من طاعة الله سبحانه، فالصائم الذي يجد نفسه منقاداً إلى الله في الالتزام بأركان الصيام وشروطه وضوابطه، ينساق طوعاً إلى التزام طاعة الله في شأنه كله، لأنه يؤمن بلزوم التوافق بين طاعة الله في الصيام

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع.

وطاعته سبحانه في باقي شأنه، تهديه إلى ذلك التوجيهات القرآنية والنبوية، التي منها، قوله، صلى الله عليه وسلم: (من لم يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلهِ حَاجَةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ).[1]

فبترك المفطرات طاعة لله، يتحقق الصيام، الذي يقتضي من الصائم أن يحرص على طاعة الله في سلوكه الآخر، وإلا فلا يتحقق له خير الصيام، وأجره الموعود، وهذا يعني أن الصائم مطالب بأن ينتهز موسم الصيام لمراجعة سلوكه، لتعزيز الصالح منه، وتعديل المنحرف عن الصراط المستقيم، ويؤكد هذه المطالبة ما ورد عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، من نعي الصائم القائم الذي فقد الأجر والثواب لتجاوزاته السلوكية مع الناس، بل إن الرسول، صلى الله عليه وسلم، أطلق على هذا المتجاوز وصف المفلس، فقال عليه الصلاة والسلام: (أَتَدْرُونَ ما الْمُفْلِسُ؟ قالوا: الْمُفْلِسُ فِينَا من لا دِرْهَمَ له، ولا مَتَاعَ، فقال: إِنَّ الْمُفْلِسَ من أُمَّتِي، يَأْتِي يوم الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قد شَتَمَ هذا، وَقَذَفَ هذا، وَأَكَلَ مَالَ هذا، وَسَفَكَ دَمَ هذا، وَضَرَبَ هذا، فَيُعْطَى هذا من حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا من حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ، قبل أَنْ يُقْضَى ما عليه، أُخِذَ من خَطَايَاهُمْ، فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ).[2]

فتجاوز الحق في السلوك، والتعدي على الآخرين، حسابه عسير، حتى إن صدر عن صائم قائم، إذ سيأتي يوم يدفع فيه الخلق المستحقات لأصحابها، مصداقاً لقوله، صلى الله عليه وسلم: (لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إلى أَهْلِهَا يوم الْقِيَامَةِ، حتى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ من الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ).[3]

من هنا؛ تتوافر للصائم في موسم الصوم الفرص والدوافع لتجديد بيعته مع الله تعالى على السمع والطاعة المطلقة، تلك البيعة التي أخذها الله على عباده المتقين، فوعدهم بالجنة

---

1. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم.
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.
3. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم

إن قدموا المطلوب الشرعي من طرفهم، ولو بلغ الثمن مهجهم وأرواحهم، حيث قال سبحانه: {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.(التوبة: 111)

وعلى هذا المنوال؛ كانت بيعة النساء على مقتضيات الطاعة الربانية، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}. (الممتحنة: 12)

الصيام وتجديد عزائم أداء العبادة على وجهها المشروع والصحيح:

مما لا شك فيه أن معظم المسلمين يجتهدون في شهر الصيام لأداء العبادات على الوجه المشروع، سواء ما كان منها فرضاً أم سنة أم نافلة، حتى إن بعض الذين لا يؤدون الصلاة في الأيام الأخر يتوجهون لأدائها في شهر رمضان، وتكثر أعداد الذين يرتادون المساجد لأداء الصلاة جماعة فيها، حتى صلاة الفجر، وعن صلاة العشاء والتراويح لا تسأل، فالمجتمعون لهما في ليالي رمضان يقاربون الذين يجتمعون في الجمعة والأعياد، وهذه الظاهرة لها وجه إيجابي، وآخر سلبي، فالإيجابي يشير إلى وجود مرتكز إيماني في القلوب، واستعداد لأداء العبادات، وهذا الوجه بحاجة إلى تنمية واستثمار وتعزيز؛ حتى يصبح التزاماً دائماً، وجزءاً مهماً من اهتمامات المسلم الرئيسة في حياته.

أما الوجه السلبي، فيتعلق بالانتقائية في العبادة، والتهاون بشأنها، فالله الذي يعبده الصائم في رمضان، هو نفسه سبحانه الخالق المعبود في أيام العام وأوقاته كلها، فالعبادة تكثر في رمضان بالصيام والقيام، لكن الصلوات الخمس تطلب في كل أيام السنين والأعوام، وإذا تنبه من غفل عنها لأدائها في رمضان، فينبغي أن يشكل هذا التنبه حافزاً للتواصل في أدائها والاستمرار عليها، وإلا فالغافل عن صلاته، ذمه الله، سواء غفل

عنها في رمضان أم في شعبان أم في بقية العام، حيث توعد الله الغافلين عن الصلاة، بقوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ} (الماعون: 4 – 7)

ومعلوم أن أول ما يسأل عنه المرء يوم القيامة، صلاته، ويترتب على صلاحها أو فسادها، نوع المصير الذي يلقاه صاحبها يوم القيامة.

الصيام وتجديد عزائم القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المسلم مكلف أصلاً بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وذلك بموجب الأوامر القرآنية والنبوية، فالله كلف أمة الإسلام بهذه المهمة، فقال تعالى: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(آل عمران: 104)

وأثنى الله على أمة الإسلام بصفتها مؤمنة، آمرة بالمعروف، ناهية عن المنكر، فقال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}(آل عمران: 110)

ومن صفات الرسول، صلى الله عليه وسلم، في الكتب السابقة، أنه يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وفي هذا يقول تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}(الأعراف: 157)

وقد حمل الرسول، صلى الله عليه وسلم، أمته من بعده مسؤولية القيام بهذا الواجب المقدس، فخاطبهم قائلاً: (من رَأَى مِنْكُم مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ، فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لم يَسْتَطِعْ، فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ).(*)

وحين يصوم المسلم، يركز اهتمامه على تفاصيل المطلوب منه نحو دينه العظيم، فيأخذ

* صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان يزيد وينقص...

موقعه في ساحة العمل بإيمان وعزيمة وحب، ومن أبرز الواجبات التي يجدها تنتظره، تلك المتعلقة بمهمة إنقاذ نفسه، والمحيطين به، ومجتمعه، والناس جميعاً من الانحراف والضلال، إلى الاستقامة والهدى، وهي مهمة لا تقل أهميتها عن مستوى أهمية الصلاة والصيام والصدقة، فهي تخدم الدين والبشرية، فلا عجب إن قرنت بالذكر مع الإيمان، وهو المنطلق الأول للانتماء لهذا الدين الحنيف.

فلا يقبل من الصائم القائم أن يكتفي بصلاح نفسه، وضمان حسن توجهه إلى الله، والالتزام بطاعته وعبادته، بل عليه من منطلق حسه الديني، واستشعاره بقدر الواجب الملقى على عاتقه نحو دينه والناس، أن يحرص على القيام بواجب الأمر بالمعروف الذي أمر به الشرع، ووجه إليه، وينهى عن المنكر الذي نهى عنه الشرع، ونفر من الإقدام عليه، أو اقترافه، فالمسلم يحب الخير لنفسه ولغيره، ويحب النجاة له ولهم، فيجهد نفسه بشتى الأساليب وأنجعها، على تبليغ رسالة الخير التي حملها عن نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، للعالمين، وهو يجد في موسم الصيام فرصة لتكثيف عمله على هذا الصعيد، وتلافي تقصيره تجاه هذا الواجب.

موسم الصيام وتجديد عزائم توثيق عرى العلاقات المجتمعية والأسرية:

من أبرز ما يميز شهر رمضان، إضافة إلى الصلاة والصيام وتلاوة القرآن، مسارعة المسلمين فيه إلى أداء ما وجب عليهم من زكاة أموالهم، إضافة إلى صدقة الفطر التي يدفعها الفقير والغني منهم، عن الصغير والكبير، الرجال والنساء، بصفتها صدقة واجبة عن النفوس، إضافة إلى انتشار ظاهرة استضافة الأرحام والأقارب والأصدقاء والفقراء على موائد الإفطار اليومية، مع حرص معظم الصائمين على الاجتماع على موائد السحور والإفطار، لتناول وجبتيهما جماعةً، إضافة إلى اللقاءات اليومية في المساجد لأداء الصلوات فيها، وبخاصة صلاة القيام التي يؤديها المسلمون بعد أداء صلاة العشاء، عملاً بسنة نبيهم الكريم، صلى الله عليه

وسلم، ويكون ذلك على مدار أيام الشهر الثلاثين أو التسعة والعشرين، وهذه الأعمال يعبر مفردها ومجموعها عن تواصل مجتمعي وأسري فريد، يحقق للأسرة والمجتمع كثيراً من الدعم على صعيد توثيق العرى بين أفرادهم، وإذابة جليد الجفاء والشقاق والخلاف من بينهم، وبهذا يساهم شهر الصيام وما فيه من أعمال خيرة، وواجبات دينية على توثيق عرى العلاقات المجتمعية والأسرية، على أساس من التراحم والود وإغاثة الملهوف.

فهذه وقفة عند بعض المجالات التي يؤمل أن يتم فيها تجديد عزائم الخير، انتهازاً لفرصة حلول شهر الخير والبركات، واليمن والخيرات، سائلين اللّه العلي القدير أن يلهمنا صواب القول والعمل، وأن يوفقنا إلى حسن الصلاة والصيام والقيام، وأن يحسن خواتيم أعمالنا، لتكون على الوجه الذي يرضيه سبحانه، إنه جل شأنه سميع قريب مجيب الدعاء.

الصيام وتعزيز الوازع الداخلي

هدى الله الإنسان ليسلك الصراط المستقيم، فقال تعالى: {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً} (الإنسان:3)، وقال تعالى: {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} (البلد:10)، ووضع الله للإنسان ضوابط لسلوكه حتى يكون مستقيماً، فأرسى له المبادئ الراسخة، وشرع له الأحكام المختلفة، والقيم الشاملة؛ ليسلك السبيل القويم، ويكون من المهتدين، وأخضع الله سلوك الإنسان للحساب، والثواب والعقاب، وجعل من نفسه رقيباً عليها، إلى جانب الرقابة الخارجية المتمثلة في الناس المحيطين به، وبرقابة الله الذي يحصي عليه السكنات والحركات، حتى إن الإنسان يُعبر يوم القيامة عن تعجبه مما يجد، حين تعرض عليه أعماله؛ صغيرها وكبيرها، وفي وصف هذا الاستغراب، يقول تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً}.(الكهف: 49)

والمقصود بالوضع الوارد في الآية الكريمة للكتاب، أنه يوضع في هذا اليوم كتاب كل إنسان في يده؛ إما في اليمين، وإما في الشمال.(*) وفي أضواء البيان أن الله جل وعلا ذكر في هذه الآية الكريمة أن الكتاب يوضع يوم القيامة، والمراد بالكتاب جنس الكتاب، فيشمل الصحف جميعها، التي كتبت فيها أعمال المكلفين في دار الدنيا، وأن المجرمين يشفقون مما فيه؛ أي يخافون منه، وأنهم يقولون: يا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ؛ أي لا يترك، صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً، من المعاصي التي عملنا، إِلاَّ أَحْصَاهَا؛ أي ضبطها وحصرها، وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحاً في مواضع أُخر، كقوله تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ

* التفسير الكبير، 21/ 114.

فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً * اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا}.(الإسراء: 13 – 14)[1]

فالإنسان لم يترك مسلوب الإرادة، بل جعله الله حسيباً على نفسه يوم القيامة، وجعل له في نفسه وازعاً يدفعه للاستقامة في أثناء حياته الدنيا، إلا إذا غلبت عليه شقوته، وخضع لنوازع هواه التي يؤازره عليها الشيطان، منذ أن أذن الله له بإغواء الناس؛ لُيعرضوا عن الصراط السوي، وقد ورد ذكر هذا الإذن في القرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ* قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}. (الأعراف: 14 – 16)

مفهوم الوازع الداخلي:

يقصد بالوازع الداخلي ما يكون في نفس الإنسان من دوافع لفعل الخير، والكف عن فعل الشر والسوء، فلو أراد إنسان أن يقوم من نومه ليصلي الفجر، فإن كان وازعه الداخلي على ما يرام، فسيجد قوة داخل نفسه تزين له القيام، فينهض نشطاً، فيتوضأ، ويصلي، منتظراً أن يكون في ذمة الله، وأن يكون ممن رضي الله عنهم وأرضاهم، وأما إن كان ممن طغى، وسار على غير هدى، فسيؤثر مواصلة النوم، والخلود إليه، على فضل الفجر، وثواب صلاته، وفي وصف نتائج نوازع الإنسان الداخلية بهذا الشأن يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ على قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إذا هو نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فذكر الله، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صلى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا، طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ).[2]

فلا شرطة ولا عسس يجبرون النائم ليقوم لصلاة الفجر، اللهمَّ إلا نوازعه الداخلية التي

1. أضواء البيان، 3/ 287.
2. صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصل بالليل.

تدفعه إلى ما يحل العقد التي عقدها الشيطان على قَافِيَةِ رَأْسِه إذا هو نَامَ، وهذا الوازع بحاجة إلى عناية دائمة، وجهود متواصلة؛ ليبقى متقداً، وفاعلاً، وإلا أصبح هزيلاً ضعيفاً، لا يقوى على إحداث النتائج المرجوة، هذا إن لم يصل به السوء ليصبح مستمرئاً للشر والسوء، أو يعمل لصالحهما في أسوأ الأحوال والظروف.

من هنا؛ كانت العناية الربانية والنبوية بهذا الوازع؛ ليبقى في خدمة الإقدام على الخير، والانصراف عن الشر، ومما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة من إشارات إلى الوازع الداخلي، ما يأتي:

ذكر النفس اللوامة:

من صفات المؤمن أنه صاحب نفس لوامة، تلومه على ترك فعل الخير، أو إتيان فعل السوء، وفي معرض الثناء على هذه النفس، يقسم الله بالنفس اللوامة، فيقول تعالى: {وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ} (القيامة: 2)، بخلاف النفس الأمارة التي تدفع صاحبها إلى فعل الشر، وتنهاه عن فعل الخير، وفيها يقول تعالى على لسان امْرَأَة الْعَزِيزِ: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ}.(يوسف: 53)

وفي التسهيل لعلوم التنزيل أن النفوس على ثلاثة أنواع؛ فخيرها النفس المطمئنة، وشرها النفس الأمارة بالسوء، وبينهما النفس اللوامة، وقيل اللوامة هي المذمومة الفاجرة، وهذا بعيد؛ لأن الله لا يقسم إلا بما يعظم من المخلوقات.(*)

ومن الأحاديث الواردة بهذا المعنى، ما جاء عن شَدَّادِ بن أَوْسٍ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْكَيِّسُ من دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ من أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى على اللهِ)، قال الترمذي: هذا حَدِيثٌ حَسَنٌ. قال: وَمَعْنَى قَوْلِهِ: من دَانَ نَفْسَهُ،

* التسهيل لعلوم التنزيل، 4/ 163.

يقول حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا قبل أَنْ يُحَاسَبَ يوم الْقِيَامَةِ. وَيُرْوَى عن عُمَرَ بن الْخَطَّابِ، قال: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قبل أَنْ تُحَاسَبُوا، وَتَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الأَكْبَرِ، وَإِنَّمَا يَخِفُّ الْحِسَابُ يوم الْقِيَامَةِ على من حَاسَبَ نَفْسَهُ فِي الدُّنْيَا. وَيُرْوَى عن مَيْمُونِ بن مِهْرَانَ، قال: لا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا حتى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ، كما يُحَاسِبُ شَرِيكَهُ، من أَيْنَ مَطْعَمُهُ وَمَلْبَسُهُ.[1]

فقسم الحديث الشريف الناس إلى قسمين؛ كيس وعاجز، فالكيِّس هو اللبيب الحازم العاقل، الذي ينظر في عواقب الأمور، فهذا يقهر نفسه، ويستعملها فيما يعلم أنه ينفعها بعد موتها، وإن كانت كارهة لذلك، والعاجز هو الأحمق الجاهل، الذي لا يفكر في العواقب، بل يتابع نفسه على ما تهواه، وهي لا تهوى إلا ما تظن أن فيه لذتها وشهوتها في العاجل، وإن عاد ذلك بضر عليها فيما بعد الموت، وقد يعود ذلك عليها بالضرر في الدنيا قبل الآخرة.

فهذا هو الغالب واللازم، فيتعجل تابع هوى نفسه العار والفضيحة في الدنيا، والهوان والخزي، وسقوط المنزلة عند الله وعند خلقه، ويحرم بذلك خير الدنيا والآخرة؛ من علم نافع، ورزق واسع، وغير ذلك.

ومن خالف نفسه، ولم يتبع هواها، فقد تعجل الجزاء في الدنيا، ووجد بركة ذلك في حصوله على العلم، والإيمان، والرزق، وغير ذلك، وقيل لبعضهم: بمَ بلغ الأحنف بن قيس فيكم ما بلغ؟ قال: كان أشد الناس سلطاناً على نفسه.[2]

الوازع الداخلي والقضايا الحقوقية:

حرص الإسلام على تنمية الوازع الداخلي لدى المتخاصمين وهم يتنازعون الحقوق، فليست القضايا كلها تثبت بالبينات، بل يلزم في كثير من الأحيان الاحتكام إلى ما يسميه

1. سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب منه، وحسنه الترمذي.
2. شرح حديث لبيك، 1/ 125 - 126.

كثير من الناس الضمير، وهو يعني في مفهوم الشرع تقوى القلوب، ونوازع الخشية الداخلية في النفوس من الله، ومن خير الشواهد على هذا المنحى، ما جاء عن أُمّ سَلَمَةَ -زَوْجَ النبي، صلى الله عليه وسلم- عن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (أَنَّهُ سمع خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فقال: إنما أنا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الْخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ من بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ، فَأَقْضِي له بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ له بِحَقِّ مُسْلِمٍ، فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ من النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا، أو لِيَتْرُكْهَا).[1]

الدافع الداخلي لاحتساب أجر الصالحات:

لا يقتصر الاهتمام بدوافع الأعمال والنوازع إليها على الصيام، بل يشمل أعمال المؤمن كلها، ففي اتباع الجنازة وعد لمن حركته إلى ذلك نوازعه الإيمانية المحتسبة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (من اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وكان معه حتى يصلي عليها، وَيَفْرُغَ من دَفْنِهَا، فَإِنَّهُ يَرْجِعُ من الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ؛ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صلى عليها، ثُمَّ رَجَعَ قبل أَنْ تُدْفَنَ، فإنه يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ).[2]

وفي الخروج إلى الجهاد في سبيل الله لا بد من نوازع إيمانية داخلية، فعن أَبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (انْتَدَبَ الله عز وجل لِمَنْ خَرَجَ في سَبِيلِهِ، لا يُخْرِجُهُ إلا إِيمَانٌ بِي، وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، أَنْ أُرْجِعَهُ بِمَا نَالَ من أَجْرٍ، أو غَنِيمَةٍ، أو أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَلَوْلا أَنْ أَشُقَّ على أُمَّتِي، ما قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَوَدِدْتُ أَنِّي أُقْتَلُ في سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ).[3]

وبشكل عام ربط الرسول، صلى الله عليه وسلم، البر والإثم بالنوازع الداخلية لفاعلهما، فعن النَّوَّاسِ بن سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ، قال: (سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم،

1. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من قضي له بحق أخيه فلا يأخذه، فإن قضاء الحاكم لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً.
2. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب اتباع الجنائز من الإيمان.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الجهاد من الإيمان.

عن الْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ فقال: الْبِرُّ حُسْنُ الخُلُقِ، وَالإِثْمُ ما حَاكَ في صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عليه الناس).[1]

وتطبيقاً لذلك وضع الرسول، صلى الله عليه وسلم، قاعدة لأداء النذر، فعن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ، فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ، فلا يَعْصِهِ).[2]

فالأمر أولاً وأخيراً مرهون بمدى سلامة التوجه إلى الله، فإن صفيت السريرة، وحسن العمل، فتلك طريق الحق، التي ينبغي لمن عرفها أن يلزمها، وأن لا يحيد عنها قيد أنملة، ولو بعد عنها من ضل من الناس بعد السماء عن الأرض، وينجح العمل أو يفشل في كثير من الأحيان حسب وضع السريرة التي تعتمد على الوازع الداخلي، اعتماداً قوياً ورئيساً، مما يتطلب العناية بهذا الوازع وتقويته.

الصيام والقيام إيماناً واحتساباً:

من الوظائف السلوكية للعبادات، أنها تشد الوثاق بين أداء العبادة وبين الدوافع لذلك، فلنيل أجر الصيام والقيام لا بد من مراجعة النوايا والدوافع الداخلية للصائم والقائم، فإن سلمت من الرياء، وانطلقت من الإخلاص، ابتغاء مرضاة الله، وعلى منهجه، ووفق شرعه وأحكامه سبحانه وتعالى، كانت النتائج باهرة، ففي صحيح البخاري، بَاب من صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا وَنِيَّةً، وَقَالَتْ عَائِشَةُ، رضي الله عنها، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، يُبْعَثُونَ على نِيَّاتِهِمْ، وفيه عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من قام لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا؛ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ، وَمَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[3]

1. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم.
2. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر في الطاعة.
3. صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً ونية.

وعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (مَن قام رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ).[1]

وبهذا تسهم عبادة الصيام، وقيام ليلة القدر، وليالي رمضان، في تنمية النوازع الداخلية للصائمين والقائمين، لتكون نوازعهم إيجابية خيرة، وقوية في مساندة الإقدام على فعل الخيرات، واجتناب الفواحش والمنكرات، من هنا تميز الصيام بأن اختصه الله لنفسه؛ لأنه من أبعد العبادات عن خلجات الرياء، والمظاهر الخادعة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (يقول الله عز وجل: الصَّوْمُ لي، وأنا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَأَكْلَهُ وَشُرْبَهُ من أَجْلِي، وَالصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَلِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ؛ فَرْحَةٌ حين يُفْطِرُ، وَفَرْحَةٌ حين يَلْقَى رَبَّهُ، وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ، أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ من رِيحِ الْمِسْكِ).[2]

فالصائم يمتنع عن شرب الماء وهو في متناول يده، وأمام بصره، رغم أنه في أمس الحاجة إليه؛ لشدة عطشه، وحرارة بدنه، ولهيب الجو المحيط به، إلا أنه يبقى ظامئاً دون شراب، من بزوغ الفجر، حتى مغيب الشمس، وهكذا بالنسبة إلى تناول الطعام، فيمتنع عنه رغم جوعه، وتوافره بين يديه، كل ذلك؛ لأنه صائم لربه بدافع داخلي، ورغبة صادقة في التزام أمر الله، الذي وعد من أطاعه الجنان، فقال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.(النساء: 13)

فأداء الصيام على الوجه الذي شرعه الله تعالى، يعزز جانب الخوف من الله، ورجاء رضاه سبحانه وتعالى، وذلك ينطلق من نوازع النفس، التي كلما كانت قوية في توجهها نحو الخير، أثمرت غرساً يافعاً نافعاً، يؤتي أكله بإذن ربه، فيستفيد منه صاحبه والناس من حوله، بل الخلق المحيطون به.

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان.
2. صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {يريدون أن يبدلوا كلام الله}(الفتح: 15).

ومن اللفتات القرآنية الدالة على صلة الصيام بالوازع الداخلي، التركيز على ذكر التقوى في سياق آيات الصيام، أو التعقيب عليها، وهذا ما كان عقب الآية الكريمة من سورة البقرة، التي فصلت الحديث عن بعض أحكام الصيام وحدوده، والاعتكاف في المساجد، فقال تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}. (البقرة: 187)

كما كان في الآية الأقصر التي نصت على فرض الصيام على المؤمنين، والتي يقول تعالى فيها: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}. (البقرة: 183)

هدانا الله لنكون ممن حسنت سريرتهم، وطاب عملهم، ورضي الله عنهم وأرضاهم.

الحج وسلوك العابد

ما من عبادة فرضها الله على خلقه إلا كان لسلوك العابد ارتباط وثيق بها، وتتجلى هذه القاعدة بوضوح في فريضة الحج، فالنصوص الشرعية التي تناولت موضوع الحج أظهرت تركيزاً واضحاً على كثير من القضايا والأمور السلوكية، أنظر في قوله تعالى:{الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ[1] وَلاَ فُسُوقَ[2] وَلاَ جِدَالَ[3] فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ} (البقرة: 197).

فالآية الكريمة تذكر زمن الحج، وفرضه، ثم تنهى الحاج عن اقتراف الرفث والفسوق والجدال، وتلك – بلا ريب – قضايا سلوكية بامتياز.

ورب سائل يسأل عن وجه الصلة بين هذه النواهي السلوكية وعبادة الحج، وأولى من يجيب عن هذا السؤال هو من سبق له أن سافر إلى الحج وأدى مناسكه، لأنه خاض تجربة عملية، لمس خلالها ضرورة التربية على تجنب مثل هذه السلوكات، فالظرف مهيأ للتماس والوقوع في الزلل، رغم الجو الإيماني الذي يفترض أن يخيم على رحلة الحج، فالحج سفر، والسفر شق من العذاب، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ؛ يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ[4] فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ). [5]

1.الرفث: هو الجماع ودواعيه، فيحرم على الحاج المعاشرة الزوجية ومقدماتُها القولية والفعلية؛ كالتقبيل، والكلام المتعلق بالجماع والشهوة، ونحو ذلك. ويطلق الرفث أيضاً على الكلام الفاحش البذيء. وقد جاء الرفث بمعنى الجماع في قوله تعالى: {أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَّفثُ إلى نسائِكم}.

2. الفسوق: هي معاصي الله، سواء أكانت متعلقة بالإحرام، أم عامة لكل ما نهى الله عنه.

3 الجدال: المخاصمة والمنازعة.

4. يعني حاجته.

5. صحيح البخاري، كتاب العمرة، باب السفر قطعة من العذاب.

وما دام الحج سفراً فهو محك للصبر، وامتحان لتحمل المشاق والتعب والرفقة، وهو رحلة جماعية، يشارك فيها الذكور والإناث، والمحارم والأجانب، وفيه تنوع الأمزجة، واختلاف الطباع والعادات والرغبات، فكان جميلاً أن يوصى الحاج باجتناب الرفث والفسوق والجدال، حتى يوفق بأداء حجه على الوجه الذي يرام.

وفي مقابل نهي الآية سالفة الذكر عن سلوك الرفث والفسوق والجدال، فإنها أوصت بالتزود بخير الزاد، ألا وهو التقوى، مما يعني التحلي بمكارم السلوك، وتجنب المنحرف منه، فالتقوى مشتقة من الوقاية، وهي منهج سلوكي يقوم على قصد الخير وتجنب الشر في النية والشعور والقيم والسلوك كله، سئل علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عن التقوى فقال: (التقوى هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل).[1]

وسأل عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أبي بن كعب عن التقوى، فقال له : (أما سلكت طريقاً ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى).[2]

وهكذا تظهر العناية القرآنية بسلوك الحاج في جانبيه، المتمثلين بالتخلي، والتحلي، مما يؤكد الأهمية التي يوليها القرآن الكريم لسلوك العابدين.

وفي مواضع قرآنية أخرَ ربط الله تعالى قضايا سلوكية بشعائر الحج، فأشار إلى عدد من تلك القضايا في ثنايا حديثه عن بعض شعائر الحج، فقال تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً[3] وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ[4] يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[5] * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا

1. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي: 1/ 348.
2. في ظلال القرآن: 1/ 9.
3. مشاة، جمع راجل.
4. بعير ضعيف، وهو يطلق على الذكر والأنثى.
5. طريق بعيد.

اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ[1] الْفَقِيرَ* ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ[2] وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ* ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ* حُنَفَاء لِلهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ* ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ[3] فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ* لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ* وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ[4] * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}(الحج: 27 - 35)

أشارت هذه الآيات الكريمة إلى جملة من القضايا السلوكية، فبعد وصفها وسيلة السفر للحج، ذكرت المنافع التي يشهدها الحاج فيه، وذكره اسم الله وشكره، وأكله وإنفاقه على البائس الفقير، وقضاءه التفث، ووفاءه بالنذور، وطوافه بالبيت، وتعظيمه للحرمات، وتمتعه بالأنعام، واجتنابه الرجس من الأوثان وقول الزور، وتوحيده لله، وحذره من الشرك، وحثه على تعظيم شعائر الله، والاستمتاع بمنافع الأنعام، وشكر الله عليها، ووجل قلبه، وصبره، وإقامته الصلاة، وإنفاقه من رزقه سبحانه.

فهذه رزمة سلوكية شملتها بالذكر الآيات التي وردت في سياق الحديث عن الحج، وفي ذلك مؤشر آخر على الصلة الوثيقة بين عبادة الحج وسلوك العابد.

ولما ذكر الهدي، قال تعالى: {وَالْبُدْنَ[5] جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا

1. شديد الفقر.
2. إزالة الوسخ بقص الأظفار والشارب وحلق العانة.
3. تعظيم ما يهدى للحرم بالتسمين والتحسين، وسمي الهدي شعائر لإشعارها بما يعرفها بأنها هدي للحرم.
4. المطيعين المتواضعين.
5. جمع بدنة، وهي الإبل.

اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ[1] فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا[2] فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ[3] وَالْمُعْتَرَّ[4] كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَن يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى[5] مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ} (الحج: 36 - 37).

فليس الهدي مقصوداً لذاته، وإنما هو لذكر اسم الله، والإنفاق في سبيله، أما الله فهو غني عن العالمين، ولذلك قال: لن يصل إلى الله لحومها ولا دماؤها، وإنما المقصود تقواهم التي تمثل عنوان سلوكهم.

مبدأ التيسير:

من المبادئ السلوكية التي أبرزها القرآن الكريم في حديثه عن بعض شعائر الحج، مبدأ التيسير، فقال تعالى: {وَاذْكُرُواْ اللهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} (البقرة: 203)، فخير الله الحاج بين التعجل والتأخر أيام منى، مراعاة لظروفه وأحواله، وأخذ الرسول، صلى الله عليه وسلم، بهذا المبدأ بقوله وفعله، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، (أَنَّهُ شَهِدَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَخْطُبُ يَوْمَ النَّحْرِ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ، فَقَالَ: كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ كَذَا قَبْلَ كَذَا، ثُمَّ قَامَ آخَرُ، فَقَالَ: كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ كَذَا قَبْلَ كَذَا، حَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَنْحَرَ، نَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أَرْمِيَ، وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: افْعَلْ وَلَا حَرَجَ لَهُنَّ كُلِّهِنَّ، فَمَا سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا قَالَ: افْعَلْ وَلَا حَرَجَ).[6]

---

1. قائمة على ثلاث، معقولة اليد اليسرى.
2. سقطت إلى الأرض بعد النحر ووقت أكلها.
3. الذي يقنع بما يعطى، ولا يسأل، ولا يعترض.
4. السائل أو المعترض.
5. أي يرفع إليه سبحانه العمل الصالح.
6. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الفتيا على الدابة عند الجمرة .

الحج وتعزيز بواعث السلوك الطيب:

الحج بشعائره ومناسكه يعزز بواعث السلوك الطيب، فهو تلبية وذكر وصلاة وأدعية، فبالذكر تطمئن القلوب، وبالصلاة تكف النفوس عن الفحشاء، وتشجب المنكر، وهو تلبية ترددها الحناجر الضارعة، معلنة الاستجابة لنداء الرحمن عملاً وقولاً وتوجهاً.

وحين تحط أقدام الحجيج في تلك البقعة المطهرة، تذهب أذهانهم صوب تاريخ المناسك والمواضع المقدسة من حولها، فيذكرون إيمان إبراهيم وزوجه، وابنه إسماعيل، ويتلمسون من ذلك دروساً دون تدريس، حين يذكرون موقف زوج إبراهيم، وأم إسماعيل، عليهما السلام، حين تركهما إبراهيم، عليه السلام، بوادٍ غير ذي زرع استجابة لأمر الله تعالى، فسألته عن سبب تركه لهما فلم يلتفت إليها، فقالت: (آلله أمرك بهذا؟! فأجابها بنعم. فقالت: إذا لن يضيعنا)؟

وحين يذكرون سعي تلك المؤمنة طلباً للماء والزاد، يتعزز لديهم الاعتقاد بأن الرزق بحاجة إلى سعي، فهي لم تقعد مكانها منتظرة الموت أو الرزق، فعلى الرغم من يقينها بأن وضعها في هذا الحال كان مقدراً من عند الله، فإنها سعت، حتى أنعم الله عليها بزمزم، فشربت وابنها، وشرب الخلق من ورائهما، وما زالوا يشربون.

وحين يذكرون استجابة إبراهيم للأمر الرباني بالتضحية بفلذة كبده، تتعزز لديهم كذلك روح الفداء، وقد سجل الله هذا الموقف لإبراهيم، عليه السلام، فقال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ...}(الصافات:102)

ويحدث لهم مثل ذلك التعزيز وهم يذكرون الاستعداد المطلق من إسماعيل، عليه السلام، لأن يكون ذبيحاً {...قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} (الصافات:102)

وهكذا يجد الحاج في المناسك التي يؤديها، وكل المواضع التي يأتيها، في البيت الحرام

وأكنافه، ما يقود إلى تقويم السلوك المعوج، وتعزيز الطيب منه، مما يعزز دعوة حجاج بيت الله الحرام وغيرهم من المسلمين؛ ليضعوا هذا البعد في اعتبارهم، حتى يكونوا ممن ربح بيع الحج، لا من الغافلين الذين يعودون بمثل ما ذهبوا من سوء السلوك.

والحج يذكرنا بالاهتمام بالمقدسات الإسلامية، التي رفع شأنها الله، فهو يذكر الحجاج بالمسجد الحرام الذي هو وجهتهم، وقبلة المسلمين، ونزل فيه قوله تعالى: {جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلاَئِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (المائدة:97)

ويقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاء الْعَاكِفُ[1] فِيهِ وَالْبَادِ[2] وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ[3] نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ} (الحج:25).

وكان الناس قبل الإسلام يربطون بعض سلوكهم بقدسية البيت العتيق، قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم: (كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه، فلا يعرض له)[4].

وينساق هذا الاهتمام على المساجد التي ارتبطت بالمسجد الحرام ارتباط عقيدة ودين، كالمسجد النبوي، والمسجد الأقصى، فيجمع هذه المساجد الثلاثة قاسم مشترك يتمثل في أنه لا تشد الرحال إلا إليها، وفي مضاعفة أجر الصلاة والعبادة فيها، إضافة إلى ارتباط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى، بأن كان الأول منطلق الإسراء بالرسول، صلى الله عليه وسلم، والآخر غايته. وكان المسجد الأقصى المبارك قبلة المسلمين الأولى، وصار المسجد الحرام قبلتهم الثانية والأخيرة. ويرتبط المسجد النبوي بالمسجد الحرام تاريخياً ودعوياً.

وإذا رسخت هذه الروابط في قلب الحاج ووعيه وإدراكه، فإنه يجد لزاماً عليه أن يبذل من

1. العاكف هو المقيم.
2. الطارئ غير المقيم.
3. بسبب ظلم، بأن ارتكب فيه محرماً.
4. تفسير ابن كثير، 1/ 169.

الرعاية والاهتمام لتلك المقدسات ما بذله للمسجد الحرام الذي قصده حاجاً معظماً ملبياً.

الحج ووحدة المسلمين:

من أعظم الأمور السلوكية التي يترك الحج بصماته عليها، موضوع الوحدة بين المسلمين، حيث تتضافر شعائر الحج وأعماله في الإعلان عن وحدة المسلمين، فالإحرام في مظهره، والشعائر في نوعها وشكلها يؤديها المسلمون جميعاً، صغيرهم وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم، رئيسهم ومرؤوسيهم، ذكرهم وأنثاهم. فكل حاج يحرم كما يحرم إخوانه الحجيج، ويطوف كما يطوفون، ويلبي كما يلبون، ويسعى كما يسعون، ويرمي الجمار كما يرمون، ويشرب زمزم كما يشربون، ويصلي في الحرم كما يصلون، وينحر الهدي كما ينحرون، ويودع البيت الحرام كما يودعون.

والحج مدرسة تعلم المسلمين الوحدة في المشاعر والشعائر، وتعزز في قلوبهم بواعثها، وتزرع في واقعهم سبلها وصورها.

دور التربية:

حتى يؤدي الحج رسالته السلوكية، فلا بد للتربية من أن تقوم بدورها المنوط بها نحو الناس، قبل قصدهم الحج، وبعد الشروع فيه، وعند الانتهاء من أعماله، وإلا بقيت الآمال والطموحات في مهب الريح. من هنا حرص الرسول، صلى الله عليه وسلم، على إبراز بعض القيم السلوكية في موقفه التربوي الذي عبر عنه في خطبة حجة الوداع، فنبههم إلى خطورة السلوك العدواني بأسلوب مشوق مثير، عن أبي بكرة، رضي الله عنه، قال: (خَطَبَنَا النَّبِيُّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَوْمَ النَّحْرِ، قَالَ: أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ، فَقَالَ: أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ

بِغَيْرِ اسْمِهِ، قَالَ: أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ، قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟! قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ).[1]

ومن شواهد السنة النبوية المطهرة على الاهتمام بقضية ربط الحج بسلوك الحاج، أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، رهن جزاء الحج بالبر، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ).[2]

وعنه، رضي الله عنه، (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سُئِلَ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟! فَقَالَ: إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ)[3]

وللسلوك الطيب أيام الحج منزلة رفيعة عند الله تعالى، عن ابن عباس، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (مَا الْعَمَلُ فِي أَيَّامِ الْعَشْرِ أَفْضَلَ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ، قَالُوا: وَلَا الْجِهَادُ؟ قَالَ: وَلَا الْجِهَادُ، إِلَّا رَجُلٌ خَرَجَ يُخَاطِرُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ بِشَيْءٍ).[4]

صلة الحج المبرور بالتربية السلوكية:

الحج مرتبة مميزة في سلم أفضل الأعمال، ونيلها مشروط بكونه مبروراً، والبر وصف معبر عن لب القضية السلوكية، بدليل تفسيره بحسن الخلق، عن النواس بن سمعان الأنصاري قال:(سَأَلْتُ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ).[5]

1. صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى.
2. صحيح البخاري، كتاب المحصر، باب قول الله تعالى: { فلا رفث }(البقرة 197).
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل.
4. صحيح البخاري، كتاب العيدين، باب فضل العمل في أيام التشريق.
5. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم.

واشتراط البر لنيل جائزة الحج الكبرى، وهي الجنة، يعني اشتراط التحلي بالسلوك الطيب، والبعد عن الإثم والفواحش، وهي عناوين للسلوك المنحرف.

ورهن فوز الحاج بالجنة بكون حجه مبروراً، يعني تقديم جائزة تعزيزية للسلوك الطيب؛ لأن الجنة مطمح الأفئدة، ومبلغ الرجاء، وغاية المنى، كيف لا؟! وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}) [1]

وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعلم المسلمين السلوك في الحج، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، قالت: (خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حُجَّاجًا ، وَإِنَّ زِمَالَةَ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَزِمَالَةَ أَبِي بَكْرٍ وَاحِدَةٌ [2]، فَنَزَلْنَا الْعَرْجَ وَكَانَتْ زِمَالَتُنَا مَعَ غُلَامِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَتْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَلَسَتْ عَائِشَةُ إِلَى جَنْبِهِ، وَجَلَسَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى جَنْبِ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنَ الشِّقِّ الْآخَرِ، وَجَلَسْتُ إِلَى جَنْبِ أَبِي نَنْتَظِرُ غُلَامَه، وَزِمَالَتَهُ حَتَّى مَتَى يَأْتِينَا، فَاطَّلَعَ الْغُلَامُ يَمْشِي مَا مَعَهُ بَعِيرُهُ قَالَ: فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: أَيْنَ بَعِيرُكَ؟ قَالَ: أَضَلَّنِي اللَّيْلَةَ، قَالَتْ: فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ يَضْرِبُهُ وَيَقُولُ: بَعِيرٌ وَاحِدٌ أَضَلَّكَ، وَأَنْتَ رَجُلٌ، فَمَا يَزِيدُ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَلَى أَنْ يَتَبَسَّمَ، وَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْمُحْرِمِ مَا يَصْنَعُ). [3]

ففي قوله، صلى الله عليه وسلم: (انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع) نقد مبطن للسلوك غير المرغوب فيه، وتوجيه لتعديله، وهذا الاهتمام النبوي بتهذيب السلوك في العبادة له شواهده

1. صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة.

2. أي: كان مركوبهما وما كان معهما من أدوات السفر واحداً. فيدل هذا الحديث على أنه لا بأس للمحرم أن يؤدب غلامه من غير كلام سيئ.

3. المستدرك على الصحيحين، 1/ 623، قال النيسابوري: هذا حديث غريب صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

الكثيرة، التي منها، ما رواه البخاري في صحيحه، تحت باب من نذر المشي إلى الكعبة، عن أنس ، رضي الله عنه:(أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَأَى شَيْخًا يُهَادَى [1] بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ: مَا بَالُ هَذَا؟ قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ: إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ).[2]

والسلوك الخاطىء مرفوض في كل مكان وزمان، إلا أنه يكون أشد مقتاً ورفضاً وسلبية إن وقع خلال أداء المناسك، ولو تنبه المسلمون لذلك ما أصابهم الضرر الذي يترتب على انحراف السلوك، ومن ذلك الضرر ما يقع عاجلاً قبل الآجل من الزمان، فمن لم يسمع بالآثار الرهيبة التي ترتبت على سلوك التدافع خلال الذهاب لرمي الجمرات أو الإياب منها؟ ولو تحلوا بالصبر والانضباط وحسن التدبير لنجوا من تلك الكوارث وأمثالها.

وبعد؛ فهذه محاولة متواضعة لإبراز الربط بين السلوك وعبادة الحج، سواء خلال عملية التربية والتعليم الخاصة بأداء المناسك، أم عند الإشارة للآثار السلوكية التي تترتب على أداء المناسك والشعائر، وزيارة مواضع الشعائر، أم بالدعوة للقراءة المتدبرة الواعية للنصوص الشرعية التي تناولت ذكر الحج وقضاياه، عسى الله أن ينفع بها من يقرأها، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا دائماً وأبداً.

---

1. يمشي معتمداً على غيره.
2. صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب من نذر المشي إلى الكعبة.

البيت الحرام وحجاجه: في أمن الرحمن

يُعد الأمن من أهم القيم التي تستقطب مشاعر الناس واهتماماتهم وأهدافهم، وقد عني الإسلام به في تشريعاته وقيمه، فالرسول، صلى الله عليه وسلم، يقول: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)(*)

وجاء اعتبار الأمن في متطلبات كثير من العبادات، ففي صلاة الخوف، يقول تعالى: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً}.(النساء: 102)

وفي الحج روعي اعتبار الأمن في مضمون الاستطاعة التي أنيط بها تكليف المسلم البالغ العاقل بالحج، فيقول تعالى: {وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً}(آل عمران: 97)

وفي سياق مضامين عدد من الآيات الكريمة التي تحدثت عن الحج والبيت الحرام، روعي التركيز على معيار الأمن، سواء بالنسبة إلى الحاج الذي يقصد البيت الحرام زائراً وعابداً، أم بالنسبة إلى بيت الله الحرام ذاته، أم عند الحديث عن بعض المناسك، فقد ذكر القرآن الكريم دعاء إبراهيم، عليه السلام، للبيت الحرام بأن يحظى بالأمن الرباني، فقال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً ...}(البقرة: 126) وقال سبحانه: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً}(إبراهيم: 35)

* سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب منه، وحسنه الألباني.

ومن بين أهم ميزات البيت الحرام التي ذكرها القرآن الكريم، أنه يتمتع بالأمن، ومن يدخله يستفيد من هذه الميزة، فيُحمى بالأمن، ولا يجوز الاعتداء عليه، بموجب الأمر الرباني المتضمن في قوله تعالى: { فِيهِ آيَاتٌ بَيِّـنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً }(آل عمران: 97)

وقد تفضل الله على أهل البيت الحرام، بنعمة الأمن التي أسبغها عليهم، والتي ذكَّرهم بها في أكثر من مناسبة، في مثل المن عليهم بها في السورة المسماة باسم قريش، فيقول تعالى: {الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}(قريش: 4)

وفي مواضع قرآنية أخرى أشار الله إلى فضله على أهل مكة، بأن جعل لهم حرماً آمناً، فقال تعالى: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً..}(البقرة: 125)، وقال سبحانه: {أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً}(القصص: 57)، وتكررت مثل هذه الإشارة في موضع قرآني آخر، ففي سورة العنكبوت، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ}(العنكبوت:67).

ولما أقسم الله بالبلد الحرام في سورة التين، وصفه بالأمين، فقال تعالى: {وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ}(التين: 3).

وفي ضوء هذه العناية القرآنية الفائقة بالأمن، وإبراز ميزته للبيت الحرام، وداخله، والساكن في كنفه، يتلمس المسلم خطاه في الحرص على التمتع بالأمن في حله وترحاله، إضافة إلى ضرورة مساهمته في توفير الأمن، وتجنب اقتراف ما يخل به في بيئته، والمحيط الذي يقيم فيه، وبخاصة في حجه لبيت الله الحرام، وخلال أدائه مناسك الحج وشعائره في تلك البقاع الطاهرة.

والإسلام الذي جعل العبادات مدارس، يتربى في ظلالها العبد على خير المناهج والقيم، نجده في مدرسة الحج يفتح الأفاق الواسعة لتربية الحاج على استشعار قيمة الأمن في حياته، والحرص على حفظ هذه القيمة النبيلة خلال أدائه لما أنيط به من مهمة إعمار الكون في إطار تكليفه بمهمة الخلافة في الأرض.

حرمة مكة المكرمة والمدينة المنورة وأمنهما:

ينبغي على الحاج أن يراعي حرمة البيت الحرام الذي قصده حاجاً، فيحفظ الأمن له ولرواده، وشجره، وطيره، وصيده، وداخله، فهو يقصد بقعة من الأرض يتمثل فيها أنموذج السلامة والأمن، وذلك برعاية ربانية، فالله ـ عز وجل ـ حرم مكة منذ خلق السماوات والأرض، فقال تعالى: {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}(النمل: 91)

ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ هَذا البَلَد حَرَّمَهُ الله يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَهُوَ حَرَامٌ بِحُرْمَةِ الله إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ...)[1]

وتمتعت طيبة –المدينة المنورة– بخاصية التحريم، فأمنها محفوظ بموجب ذلك، ففي الحديث الشريف، عنه صلى الله عليه وسلم: (أَنَّ إبْراهِيمَ حرَّمَ مَكَّةَ، وَدعَا لَهَا، وَحرَّمْتُ الْمَدِينَةَ كَمَا حَرَّمَ إِبْرَاهِيمُ مَكَّةَ، وَدَعَوْتُ لَهَا فِي مُدِّهَا وَصَاعِهَا، مِثْلَ مَا دَعَا إِبْرَاهِيمُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِمَكَّةَ)[2]

وهذا لا يعارض ما ذكره الله من أن مكة محرمة منذ خلق السماوات والأرض، يقول ابن كثير: (لا منافاة بين الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السماوات الأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم، عليه السلام، حرمها، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها، وتحريمه إياها، إنها لم تزل بلداً حراماً، قبل بناء إبراهيم، عليه السلام، لها). [3]

ولم يأذن الله تعالى للمسلمين بقتال الكافرين بمكة إلا إذا بدأهم الكافرون به، فقال تعالى: {وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ}(البقرة:191)

وقد نهى النبي، صلى الله عليه وسلم، عن حمل السلاح بمكة لغير ضرورة ولا حاجة، فعن

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلاَهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا إِلاَّ لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَامِ .
2. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب بَرَكَةِ صَاعِ النَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، وَمُدِّهِمْ.
3. الصابوني، محمد علي، مختصر تفسير ابن كثير،100/1.

جابر، رضي الله عنه: قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ، صلى الله عليه وسلم، يَقُول: (لاَ يَحِلُّ لأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السلاح)[1]

وأورد البخاري باباً في صحيحه، تحت عنوان: لا يحل القتال بمكة.[2]

وكان الناس في الجاهلية يحرصون على احترام الأمن في مكة، فكان المرء منهم يلقى قاتل أبيه أو أخيه، فلا يؤذيه بشيء حتى يخرج.[3]

وقد أكد على عظيم حرمة البيت الحرام وبقاء هذه الحرمة ودوامها إلى يوم القيامة رسولنا محمد، عليه الصلاة والسلام، بعدما أحلها الله له ساعة من نهار لتطهيرها من الأوثان والشرك وأعمال الجاهلية، وعادت حرمتها ومكانتها كما كانت، ولم يأذن لأصحابه إلا بقتال من قاتلهم وبرز بسلاحه لهم، فعن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (لَمَّا فَتَحَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى رَسُولِ الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، مَكَّة قَامَ فِي النَّاسِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ حَبَسَ عَن مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَإِنَّهَا لَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ كَانَ قَبْلِي، وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَإِنَّهَا لَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، فَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، ولا يُخْتَلَى شَوْكُهَا، وَلَا تَحِلُّ سَاقِطَتُهَا إلا لمنشدٍ...)[4]

من هنا؛ فإن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أمن كل من ألقى سلاحه، ولم يقاتل من المشركين يوم فتح مكة. وبعث منادياً ينادي: (مَنْ دَخَلَ دار أَبِي سُفْيَان فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ) قَالَ: فَتَفَرَّقَ النَّاسُ إِلَى دُورِهِمْ، وَإِلَى الْمَسْجِدِ.[5]

ومكة والمدينة المنورة حفظهما الله من فتنة الدجال، فعن أنس، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لَيْسَ مِنْ بَلَدٍ اِلاَّ سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ، اِلاَّ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ، لَيْسَ لَهُ مِنْ

1. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب النَّهْيِ عَنْ حَمْلِ السِّلاَحِ بِمَكَّةَ بِلاَ حَاجة.
2. صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة.
3 الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي، 4/ 91.
4. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب تَحْرِيمِ مَكَّةَ وَصَيْدِهَا وَخَلاَهَا وَشَجَرِهَا وَلُقَطَتِهَا اِلاَّ لِمُنْشِدٍ عَلَى الدَّوَام .
5. سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في خبر مكة، وحسنه الألباني.

نِقَابِهَا نَقْبٌ إِلاَّ عَلَيْهِ الْمَلاَئِكَةُ صَافِّينَ، يَحْرُسُونَهَا، ثُمَّ تَرْجُفُ الْمَدِينَةُ بِأَهْلِهَا ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ، فَيُخْرِجُ اللهُ كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ)[1]

وفي الحديث الصحيح، من قول المسيح الدجال: (إِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الْخُرُوجِ فَأَخْرُجَ، فَأَسِيرَ فِي الْأَرْضِ، فَلَا أَدَعَ قَرْيَةً إِلَّا هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ كِلْتَاهُمَا، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً، أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا، اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا يَصُدُّنِي عَنْهَا، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلَائِكَةً يَحْرُسُونَهَا).[2]

ومن جوانب حفظ أمن البيت الحرام، ما عَنِيتْ بالاحتفاء به سورة المائدة، فيما يخص أحكام الصيد فيه، ففي فاتحتها يرد قوله تعالى: {...غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ}(المائدة: 1)، وفي الآية التالية لها يقول سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ}(المائدة:2)، ثم يرد قوله سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَو عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَف وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}(المائدة:95)

ويعقبها قوله سبحانه: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً وَاتَّقُواْ اللهَ الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}(المائدة: 96)

فالآيات الكريمة صريحة الدلالة على النهي عن قتل الصيد، أو حتى مجرد تنفير الصيد، فذلك ممنوع في البيت الحرام، ففي الحديث الصحيح: (لا ينفر صيدها)، كما ورد في حديث

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب لاَ يَدْخُلُ الدَّجَّالُ الْمَدِينَةَ.
2. صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قِصَّةِ الْجَسَّاسَةِ.

أبي هريرة سالف الذكر، وفي صحيح البخاري، باب عنوانه: لا ينفر صيد الحرم[1] ومعناه النهي عن إزعاجه، عن عكرمة في معناه : أن يُنَحِّيه من الظل وينزل مكانه.[2]

ولئن كان تنفير الصيد محرّماً، فإن قتله وصيده أشد حرمة، قال الحافظ ابن حجر عقب تفسير عكرمة للتنفير: (قيل نبه عكرمة بذلك على المنع من الإتلاف، وسائر أنواع الأذى؛ تنبيهاً بالأدنى على الأعلى). قال ابن المنذر: (أجمعوا على أن صيد الحرم حرام على الحلال والحرام).[3]

وقد أباح الشارع قتل الفواسق التي ورد النص الشرعي بقتلها في الحل والحرم. فروى مسلم عن حفصة أم المؤمنين، رضي الله عنها، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: (خَمْس فَوَاسِق يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ؛ الْحَيَّةُ، وَالْغُرَاب الْأَبْقَع وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحُدَيَّا).[4] ويلحق بها المؤذي من الحيوان.

ومن الجوانب الأخرى لحفظ الأمن في البيت الحرام، حماية شجره ونباته، فورد في حديث أبي هريرة المشار إليه آنفاً قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (وَلَا يُخْتَلَى شَوْكُهَا)[5] وفي رواية أخرى ورد قوله صلى الله عليه وسلم (لَا يُخْتَلَى خَلَاهَا وَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا)[6] باستثناء الإذخر، واستنتج النووي من ذلك جَوَاز أَخْذ أَوْرَاق الشَّجَر لِلْعَلْفِ.[7]

فدلت هذه الأحاديث على النهي عن قطع شجر الحرم ونباته، ولو كان شوكاً، وهذا الحكم مخصوص فيما ينبت من غير عمل الآدمي. قال القرطبي: خص الفقهاء الشجر المنهي عن قطعه بما ينبته الله من غير فعل آدمي، فأما ما ينبت فيه بذلك فاختلف فيه، والجمهور على الجواز.

1.صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، باب لا ينفر صيد الحرم.
2. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 16/ 72.
3. المرجع السابق.
4. صحيح مسلم، كتاب الحج، باب مَا يُنْدَبُ لِلْمُحْرِمِ وَغَيْرِهِ قَتْلُهُ مِنَ الدَّوَابِّ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ.
5. صحيح البخاري، كتاب في اللقطة، باب كيف تعرف لقطة أهل مكة.
6. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب ما قيل في الصواغ
7. صحيح مسلم بشرح النووي، 5/ 122، مكتبة الإيمان، المنصورة.

ومن خصائص مكة الأمنية أيضاً، ما بينه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من تمييزها في حكم اللُّقَطَةِ، ففي سائر البلاد تُعرّف سنة، ثم للملتقط الانتفاع بها، كما دل عليه حديث زيد بن خالد، رضي الله عنه، قال: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسلم، فَسَأَلَهُ عَن اللُّقَطَةِ، فَقَال: اعْرِف عِفَاصها وَوِكَاءها، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً، فَإِنْ جَاءَ صَاحِبُهَا، وَإِلَّا فَشَأْنَك بِهَا، قَالَ: فَضَالَّةُ الْغَنَمِ؟ قَالَ: هِيَ لَكَ، أَوْ لأَخِيكَ، أَوْ لِلذِّئْبِ، قَالَ: فَضَالَّةُ الإِبِلِ؟ قَالَ: مَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَأْكُلُ الشَّجَرَ، حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا)[1].

أما لقطة مكة فهي كغيرها، ولكن يتأكد التعريف بها، وممن قال بذلك مالك وأبو حينفة ورواية عن أحمد. وقيل: لا يأخذها إلا من يعرفها أبداً لا ليمتلكها، وهو قول الشافعي ورواية عن أحمد.

والقول الثاني هو الأرجح والله أعلم، فلُقطة مكة والحرم لا يجوز التقاطها إلا لتعريفها أبداً، دون تملك، بعد سنة أو سنين، وذلك أن سياق الحديث، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (وَلَا تَحِلُّ سَاقِطَتُهَا إلا لِمُنْشِدٍ)[2] ورد مورد بيان الأحكام التي يختص بها الحرم من سائر البلاد، تحريم الصيد وقطع الشجر، فإذا سوى بين لقطة الحرم وبين لقطة غيره من البلاد لم يعد لذكرها حكمة ظاهرة. وممن اختار هذا القول الإمام النووي والحافظ ابن حجر. وقال: (والمعنى لا تحل لقطتها إلا لمن يريد أن يعرفها فقط، فأما من أراد أن يعرفها ثم يمتلكها فلا). وقال: (واستدل بحديث ابن عباس وأبي هريرة المذكورين في هذا الباب، على أن لقطة مكة لا تلتقط للتمليك، بل للتعريف خاصة) وهو قول الجمهور[3].

ولما سئل الشيخ عبد العزيز بن باز عن لقطة الحرم؛ فقال السائل: ما حكم لقطة الحرم؟ وهل يجوز أن يعطيها للفقراء؟ أو ينفقها في بناء مسجد مثلاً؟

فأجاب: الواجب على من وجد لقطة في الحرم أن لا يتبرع بها لمسجد، ولا يعطيها

1. صحيح البخاري، كتاب اللقطة، باب إِذَا لَمْ يُوجَدْ صَاحِبُ اللُّقَطَةِ بَعْدَ سَنَةٍ فَهْيَ لِمَنْ وَجَدَهَا.
2. صحيح البخاري، كتاب اللقطة، باب كَيْفَ تُعَرَّفُ لُقَطَةُ أَهْلِ مَكَّةَ .
3. انظر: كتاب (البلد الحرام) الصادر عن دار الكتب.

الفقراء ولا غيرهم، بل يعرفها دائماً في الحرم في مجامع الناس، قائلاً: من له الدراهم؟ من له الذهب؟ من له كذا؟ لقول النبي، صلى الله عليه وسلم: (لا تحل ساقطتها إلا لمعرِّف) وفي رواية (إلا لمنشد) وهو الذي ينادي عليها. وكذلك حرم المدينة، وإن تركها في مكانها فلا بأس، وإن سّلمها للجهة الرسمية التي قد وكلت لها الدولة حفظ اللقطة برئت ذمته[1].

وفي ظلال الحفظ الخالد لأمن البيت الحرام، وما ينبثق عنه من منع صيد بره، وتحريم قطع شجره، وحفظه من فتنة الدجال، وتمتع داخله بالأمان، والنهي عن القتال فيه، ووضع أحكام خاصة للقطته، فينبغي لساكن الحرم وقاصديه من الوافدين والحجاج والمعتمرين وغيرهم أن يراعوا حرمته، ويستشعروا قيمة الأبعاد الأمنية التي خصه الله بها، والمسجد النبوي الشريف، فلا يهتكوا حرمتهما بإيذاء الناس فيهما، ونشر الذعر بينهم، فإن ذلك من أعظم الآثام، ولهذا لا يجوز لمن أراد استلام الحجر الأسود أو الطواف في البيت إيذاء الطائفين، لما يترتب على ذلك من المضار والإيذاء للمسلمين، وقد روي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (أَنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: يَا عُمَرُ؛ إِنَّكَ رَجُلٌ قَوِيٌّ، لَا تُزَاحِمْ عَلَى الْحَجَرِ، فَتُؤْذِيَ الضَّعِيفَ، إِنْ وَجَدْتَ خَلْوَةً فَاسْتَلِمْهُ، وَإِلَّا فَاسْتَقْبِلْهُ، فَهَلِّلْ وكَبِر).[2]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (إذا وجدت على الركن زحاماً فلا تؤذِ ولا تؤذَى)[3].

وكان السلف الصالح يقدرون حرمة البيت، ويعظمونه في نفوسهم تعظيماً عجيباً، حتى إن منهم من تحرج من سكنى مكة خشية الوقوع في المعاصي، قال ابن رجب: (وكان جماعة من الصحابة يتقون سكنى الحرم، خشية ارتكاب الذنوب فيه). وروي عن عمر بن الخطاب،

1. نشرت بـ(المجلة العربية)، ضمن الإجابات في باب (فاسألوا أهل الذكر)، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، الجزء السادس، وعلى موقع ابن باز http://www.binbaz.org.sa/mat/373

2. مسند أحمد، مسند العشرة المبشرين في الجنة، أول مسند عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن، رجاله ثقات، رجال الشيخين.

3. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، للأزرقي ص: 127.

رضي الله عنه، أنه قال : (لأن أخطئ سبعين خطيئة، يعني بغير مكة، أحب إلي من أن أخطئ خطيئة واحدة بمكة)[1]

وكيف لا يخشى العبد الوقوع في الخطيئة في البلد الحرام؟! والله تعالى يقول: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}(الحج: 25)، ويقول سبحانه: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}(فصلت: 40)

والملحد في الحرم جرمه عظيم وعاقبته وخيمة، عن ابن عباس، رضي الله عنهما، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللهِ ثَلاَثَةٌ: مُلْحِدٌ فِي الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَمُطَّلِبُ دَمِ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ)[2]

وفي قوله عز وجل: {وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}(الحج: 25)، قال ابن كثير بعد أن ذكر الآثار الواردة عن السلف في معنى الآية: (وهذه الآثار وإن دلت على أن هذه الأشياء من الإلحاد، ولكن هو أعم من ذلك، بل فيها تنبيه على ما هو أغلظ منها، ولهذا لما هَمَّ أصحاب الفيل على تخريب البيت، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول، أي دمرهم، وجعلهم عبرة ونكالاً لكل من أراده بسوء)[3]

عسى أن لا يغفل حجاج بيت الله الحرام عن حفظ أمنه، والتقيد بحفظ السلامة لشجره، وصيده وساكنيه، وزائريه، فلا يقترفوا الأذى فيه، ومن ذلك حفظ الأمن الصحي والبدني والذهني والفكري لقاصديه وحجاجه.

جعلنا الله تعالى ممن يستشعر حرمة البيت الحرام، ومدينة سيد الأنام، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

1. جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، 2/ 318.
2. صحيح البخاري، كتاب الديات، باب مَنْ طَلَبَ دَمَ امْرِئٍ بِغَيْرِ حَقٍّ.
3. الصابوني، محمد علي، مختصر تفسير ابن كثير 1/ 99.

الحج ومشكلة الزحام

يواجه الحاج ثلاثة أنواع من الزحام، يتعلّق أولها؛ بالزحام خلال أداء المناسك والشعائر داخل الحرم المكي وخارجه، أما الثاني؛ فيتعلق بالتمكن من نيل فرصة الحج من بين جمع المتقدمين لذلك من المتلهفين للحصول على هذه الفرصة، التي يتشوق إليها عامة المسلمين في أنحاء الدنيا، ويتعلق الزحام الثالث بما يكون في الشوارع والممرات والمعابر والأسواق، ونود هنا أن نقف في عجالة عند كل نوع من أنواع الزحام هذه، بهدف محاولة تشخيص مشكلته وتحليلها، ووصف علاجها، وإبداء النصح المفيد، إن شاء الله، تجاهها، حتى يتعداها الحاج بأقل الخسائر، وبأبسط المصاعب والمعاناة.

دراسات سابقة لمشكلة الزحام في الحج:

يجدر التنويه بداية إلى أن مشكلة الزحام في الحج سبق أن بُحِثت من قبل الجهات الغيورة على الحج والحجيج، وبخاصة في ديار الحج؛ المملكة العربية السعودية، وغيرها من بلدان العالم الإسلامي، فمجلس المجمع الفقهي الإسلامي في دورته السابعة عشرة، المنعقدة بمكة المكرمة، في الفترة من 19 - 23/ 10/ 1424هـ وفق 13 - 17/ 12/ 2003م، اطّلع على البيان الختامي والتوصيات الصادرة عن (ندوة مشكلة الزحام في الحج وحلولها الشرعية) التي عقدتها الأمانة العامة للمجمع، وتمحور النقاش فيها حول بيان أسباب الزحام في الحج، وعرض الحلول العملية والفنية لمعالجة مشكلات الزحام في الحج، والتخفيف من آثارها، والعناية بإرشاد وفود الحجيج، وتثقيفهم، وتوجيههم بما يساعدهم على أداء مناسكهم على الوجه الشرعي الصحيح، وتعاون المؤسسات والحملات الداخلية والخارجية المشاركة في

الحج بهذا الشأن، وتعاون وسائل الإعلام مع الجهات المسؤولة عن الحج في إرشاد الحجاج.

ومن الدراسات التي أجريت حول مشكلة الزحام في الحج، دراسة رجاء يحيى أحمد الشريف، من جامعة الملك عبد العزيز، بعنوان: دور التوعية في منع الزحام، أولويات التنفيذ، وأشارت الدراسة إلى أن الزحام في المشاعر المقدسة من أخطر المشكلات وأكثرها تكراراً، وخاصة في أثناء رمي الجمرات الذي هو أكثر مناسك الحج تكراراً، وأشدها خطورة، مما يجعل وادي منى أثناء موسم الحج أكثر بقعة على الأرض ازدحاماً.

وقد وصلت نتائج الزحام في بعض السنوات إلى درجة الكارثة، حيث توفي مئات الحجاج، وقد أجريت العديد من الدراسات والأبحاث والندوات؛ لمناقشة هذه المشكلة، والخروج بحلول فاعلة للقضاء عليها؛ لأن الاعتراف بالمشكلة بداية الطريق لحلها، بدلاً من الاستسلام لها، واعتبارها قضاءً وقدراً.

وانتهت الدراسة إلى بعض المقترحات، ومن أهمها إعطاء الأولوية في تنفيذ برامج التوعية للدول التي يتعرض العديد من حجاجها للموت، والإصابة في حوادث الزحام، وكذلك جعل عملية التوعية مستمرة، تستهدف توعية الأجيال القادمة في سن مبكرة، والتركيز على الجانب العملي التطبيقي في التوعية، بدلاً من التوعية النظرية، كما أوصت الدراسة بأن تكون عملية التوعية إلزامية للدول جميعها، وبضرورة أن تشمل برامج التوعية حجاج الداخل، والعاملين بالحج، إضافة إلى توصيات أخرى.

المباشرة بحل مشكلة الزحام خلال أداء المناسك والشعائر داخل الحرم المكي وخارجه:

منذ أن أصدر الله تعالى أمره الحكيم الملزم للمسلمين بالحج إلى بيته العتيق في مكة المكرمة، والناس يتوافدون إلى تلك البقعة الطاهرة المباركة من كل حدب وصوب، بل يتنافسون فيما بينهم على نيل فرصة الحج، من بين الراغبين في أدائها، والمتشغفين لها في

بلدانهم، وأماكن سكناهم، لا فرق في ذلك بين رجالهم ونسائهم، وصغارهم وكبارهم، وشيوخهم وشبانهم، وفقرائهم وأغنيائهم، فحال كلهم يقول قبل مقالهم: (لبيك اللهم لبيك)؛ استجابة لنداء ربهم عز وجل الوارد في قوله تعالى: {وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ}. (الحج: 27)

والحج له زمان عام مخصص، أشار إليه القرآن الكريم، وورد ذكره في السنة النبوية المطهرة، ففي صحيح البخاري، بَاب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ ...} (البقرة:197)، و{يَسْأَلُونَكَ عن الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ} (البقرة:189)، وقال ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما: (أَشْهُرُ الْحَجِّ: شَوَّالٌ، وَذُو الْقَعْدَةِ، وَعَشْرٌ من ذِي الْحَجَّةِ، وقال ابن عَبَّاسٍ، رضي الله عنهما: من السُّنَّةِ أَنْ لا يُحْرِمَ بِالْحَجِّ إلا في أَشْهُرِ الْحَجِّ، وَكَرِهَ عُثْمَانُ، رضي الله عنه، أَنْ يُحْرِمَ من خُرَاسَانَ، أو كَرْمَانَ).(*)

فالحج يكون في أماكن مخصصة وأوقات محددة، وبعض أعماله ومناسكه فيها سعة من الوقت، ومجال للأداء، يختاره الحاج ضمن وقت الحج العام، غير أن بعض المناسك لا بدَّ لها من أن تؤدى في أوقات محددة، مما يضطر الحجاج إلى الالتقاء فيه على صعيد واحد في وقت محصور، مما يولد حالة من الزحام الشديد، وأمام ظاهرة الإقبال الشديد على الحج، فإن أماكن الشعائر تكتظ بالحجيج إلى درجة الاختناق بالزحام الشديد، مما جعل هذه المشكلة صعبة وعسيرة، ومن الحلول التي سبق طرحها لمشكلة الزحام في الحج، إجراء توسعة للحرمين الشريفين، وتوسعة جسر الجمرات، وتطويره والطرق المؤدية إليه، وهذا ما جرى العمل عليه في السنوات الأخيرة، من قبل حكومة المملكة العربية السعودية، حيث أُنجزت توسعة

* صحيح البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى: {الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج}(البقرة: 197) ، {يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج} (البقرة: 189).

منطقة الجمرات، وأُنشِئت جسور عملاقة لهذه الغاية، مما حدَّ من مشكلة الزحام خلال رمي الجمرات الذي يكون فيما بين ثلاثة أيام إلى أربعة من كل عام، تمتد من يوم النحر إلى ثالث أيام التشريق التي تليه، والعمل الآن يجري على قدم وساق لتوسعة منطقة الطواف في الحرم المكي، والتي ستتم على مراحل متعاقبة.

ومن الحلول المقترحة لهذه المشكلة أن يتم التحكم بالدخول إلى المسجد الحرام لأداء الطواف والصلاة، حيث يرتَّب ذلك بما يناسب الطاقة الاستيعابية في أماكن الطواف والسعي، وأن لا يسمح بالمكوث في هذه الأماكن لغير الطائفين والساعين.

الزحام الخاص بنيل فرصة الحج:

من حلول مشكلة الزحام في الحج أن يقيد الناس بعدد محدد ضمن ما يمكن استيعابه في أماكن أداء الشعائر، وبخاصة منطقة الطواف، والسعي داخل الحرم المكي، وهذا ما لجأت إليه الحكومة السعودية بالتنسيق مع مختلف بلدان العالم الإسلامي، فحددت عدد حجاج الداخل القادمين من مختلف مناطق المملكة العربية السعودية، وحددت عدد الحجاج الوافدين من دول العالم الإسلامي، حسب عدد سكان كل بلد، وخلق هذا الإجراء مشكلة مستعصية على الحل، تمثلت في جعل الحج صعب المنال، بل ينتظر بعض المسلمين سنوات حتى تتاح لهم فرصة أدائه، وتلبية نداء الله.

ويتوقع لمشاريع التوسعة أن تحد – إلى حد ما – من تداعيات هذه المشكلة، إلى جانب قيام الجهات المسؤولة في البلدان الإسلامية باتخاذ الإجراءات الكفيلة بتنظيم حملات الحج وفق معايير عادلة ومنصفة ومنطقية، يتم فيها اعتبار صاحب الدور والسبق في التسجيل، إلى جانب مراعاة الحالات الإنسانية الخاصة بكبار السن والمرضى، وإغلاق باب المحسوبية

والمحاباة، الذي يُوَلِّد غضباً وحنقاً لدى الناس الذين يشاهدون المحاباة بأم أعينهم، دون أن يستطيعوا إنكارها، مما ينذر بحلول غضب الله وسخطه، وقد جاء في الحديث الصحيح، عن عَائِشَةَ، رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (... إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فِيهِم الشَّرِيفُ، تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ، أَقَامُوا عليه الْحَدَّ، وأيم اللهِ؛ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا).(*)

الزحام في الشوارع والممرات والمعابر والأسواق وغيرها:

يضاف إلى مشكلات الزحام الخاصة ببعض أعمال الحج، مشكلة الزحام العامة التي يتصور إمكانية وجودها خلال موسم أداء الحج، في أسواق مكة والمدينة، وشوارعهما، والمعابر المؤدية إليهما، مما يتطلب التعامل مع هذه المشكلة بأساليب حضارية، تراعي الدور، وأدب الاصطفاف أمام شبابيك ختم جوازات السفر على المعابر، وخلال انتظار الحصول على الوجبات من المطاعم، والشراء من الأسواق، وركوب الحافلات، ومما يلفت الأنظار على هذا الصعيد أن بعض الوافدين من مناطق معينة من العالم يتمتعون بلياقة جمة، وأدب حسن في مراعاة الأحق بالدور، والصبر على الانتظار، بخلاف كثير من الحجاج الذين يتدافعون بصور مؤذية ومخزية، منطلقين من أنانية مقيتة، يعبرون عنها بحرصهم على سرقة حق غيرهم بالدور، وخلق أشكال من الفوضى والاضطراب، مما يولد التوتر، ويخلق المشكلات، والتدافع على غير هدى الله، الذي يعلمنا أدب النظام واللياقة في الاصطفاف، من خلال الأمر بالاستقامة في الصلاة، وذلك يتكرر يومياً خمس مرات في اليوم الواحد، لكن بعض الناس وللأسف الشديد ينطبق على حالهم قول الشاعر:

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا .... ولكن لا حياة لمن تنادي

فيصرون على سلوك دروب الفوضى، بعيدين عن النظام وآدابه.

* صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب {أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم} (الكهف:9).

ويجدر التنبيه في هذا المقام إلى ضرورة تركيز الحاج على أداء المناسك، والصلاة في المسجدين؛ الحرام والنبوي، والمكث فيهما أطول وقت؛ لأنها فرصة قد لا تتاح ثانية، أما ما يشاهد من كثير من الحجاج أنهم يقضون جل وقتهم في الأسواق، مما يفوت عليهم كثيراً من الخير والأجر، إضافة إلى المساهمة في خلق حالة من الزحام الشديد في بعض الأسواق القريبة من المسجدين، وكأنهم بهذا آثروا الأسواق على المساجد، مخالفين بذلك هدي الرسول، صلى الله عليه وسلم، إذ جاء في الحديث النبوي الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (أَحَبُّ الْبِلادِ إلى اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إلى اللهِ أَسْوَاقُهَا)(*)، فكيف إذا كان المسجد هو الحرام أو النبوي؟!

* صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد.

الفصل الثالث
السيرة النبوية

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
14.	مَنْ مثلُ الحبيب محمد، صلى اللّه عليه وسلم؟!	105
15.	التطاول بذريعة قميص عثمان	114
16.	تأملات في ذكرى المولد النبوي الشريف	127
17.	يدور الزمان	134
18.	إلا تنصروه فقد نصره اللّه	143
19.	انتصار إرادة المؤمنين بعقيدتهم وحقوقهم المشروعة	149
20.	دلالات إيمانية لمقولة: (ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما)	157
21.	عام جديد والأمة تبكي حالها	163

من مثل الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم؟!!

للحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، مكانة عظيمة في قلوب المؤمنين، فهو الهادي إلى الصراط المستقيم، والبشير بالرحمة، والنذير من العذاب، وهو صاحب الشفاعة، وسيد الناس يوم القيامة، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: أتي رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إليه الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فنهس منها نهسة، ثُمَّ قال: (أنا سَيِّدُ الناس يوم الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذلك؟ يَجْمَعُ الله الناس الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمْ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمْ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ الناس من الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مالا يُطِيقُونَ، ولا يَحْتَمِلُونَ، فيقول الناس: ألا تَرَوْنَ ما قد بَلَغَكُمْ؟ ألا تَنْظُرُونَ من يَشْفَعُ لَكُمْ إلى رَبِّكُمْ؟!...) ويخبر الحديث أن الناس يأتون آدم ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى، عليهم السلام، سائلين الشفاعة، ثم يأتون محمداً، صلى الله عليه وسلم، (...فَيَقُولُونَ: يا محمد؛ أنت رسول اللهِ، وَخَاتِمُ الأَنْبِيَاءِ، وقد غَفَرَ الله لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لنا إلى رَبِّكَ، ألا تَرَى إلى ما نَحْنُ فيه؟ فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، عز وجل، ثُمَّ يَفْتَحُ الله عَلَيَّ من مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عليه شيئاً لم يَفْتَحْهُ على أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يا محمد؛ ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يا رَبِّ، أُمَّتِي يا رَبِّ، أُمَّتِي يا رَبِّ، فَيُقَالُ: يا محمد؛ أَدْخِلْ من أُمَّتِكَ من لا حِسَابَ عليهم من الْبَابِ الْأَيْمَنِ من أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ الناس فِيمَا سِوَى ذلك من الْأَبْوَابِ، ثُمَّ قال: وَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ إِنَّ ما بين الْمِصْرَاعَيْنِ من مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كما بين مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أو كما بين مَكَّةَ وَبُصْرَ).(*)

فسيادة الناس يوم القيامة، والشفاعة لهم عند الله، كل ذلك من خصائصه، صلى الله

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة بني إسرائيل، باب {ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً} (الإسراء:3).

عليه وسلم، بإذن ربه عز وجل، التي منها غرس حبه في قلوب المؤمنين، الذين يعبرون عنه بوسائل مختلفة، وأساليب شتى.

(محمد) أكثر الأسماء شيوعاً:

إذا كان التاريخ قد شهد ألواناً من الأذى مارسها أعداء الله ضد رسوله الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، فإنه شهد في المقابل -وما زال- دلالات المحبة العميقة المكنونة في قلوب المؤمنين لنبيهم محمد، صلى الله عليه وسلم، وعبّر المؤمنون عن هذه المحبة المتجذرة في أعماق القلوب بأساليب عدة، فقد نطقت بها ألسنتهم، وصدقتها جوارحهم، ولقنوها أولادهم، وحملتها أجيالهم، حتى أضحى عربهم وعجمهم يتغنون بها، ويحرصون على تسمية مواليدهم باسمه، صلى الله عليه وسلم؛ وذلك يشير إلى مدى رغبتهم في الانتساب إليه، والتبرك باسمه، والاهتمام باقتفاء أثره، فتحت عنوان (محمد) الاسم الأكثر شيوعاً في العالم، نقل عن صحيفة (إيه بي سي) الإسبانية في تقرير لها، نشرته على صفحتها الإلكترونية، أن اسم النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، هو الأكثر شيوعاً ووفرة في العالم، حيث إن ما يقرب من 150 مليون شخص يحملون هذا الاسم.

وأوضحت الصحيفة في تقريرها أن محمداً الاسم الأكثر شيوعاً في العالم، ليس فقط بسبب عدد السكان في الدول الإسلامية، ولكن يعود ذلك أيضاً إلى أن هناك عدداً كبيراً من المهاجرين المسلمين في أنحاء العالم جميعها، وعلى سبيل المثال؛ فإن محمداً هو الاسم الأكثر شعبية للمواليد الجدد في بعض الإدارات الفرنسية، والسادس في المملكة المتحدة.(*)

ونشرت بعض المواقع الإخبارية أن (محمداً) يتصدر الأسماء في وسط عرب الداخل من المناطق الفلسطينية المحتلة عام 1948م، وجاء في الخبر أنه في كلّ عام، تُنشَر معطيات حول الأسماء الأكثر شعبيّة للأطفال في تلك المناطق، وعند نشر معطيات عام 2012م، تبين أن اسم (محمد) حافظ على تصدره للأسماء الأكثر شيوعاً، والأوسع انتشاراً، إذ تمّت تسمية أكثر

* جريدة القدس- ص32، 29/ 10/ 2013م

من 10 % من أبناء المسلمين الذين وُلدوا في عام 2012م به، وفي المركز الثاني جاء أحمد، ثم يوسف، ثم آدم، فعبد، فعُمر، فعلي، فمحمود، فأمير.

أعظم الخالدين:

يذكر (مايكل هارت) في مقدمة كتابه (المائة الأوائل) ترتيبه لأعظم مائة من الناس تميزوا بعطائهم للبشرية، وكان على رأسهم؛ أي أولهم في الترتيب، النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، ويبرر هارت هذا الاختيار، فيقول: إن اختياري محمداً، ليكون الأول في أهمِّ وأعظم رجال التاريخ قد يدهش القراء، ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين؛ الديني، والدنيوي.

فهناك رُسل وأنبياء وحكماء بدأوا رسالات عظيمة، ولكنهم ماتوا دون إتمامها، أو شاركهم فيها غيرهم، أو سبقهم إليها سواهم، ولكن محمداً هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية، وتحددت أحكامها، وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته، ولأنه أقام إلى جانب الدين دولة جديدة، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضاً، وحّد القبائل في شعب، والشعوب في أمة، ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها، ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم. أيضاً في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية والدنيوية، وأتمها.(*)

وتناقلت وسائل الإعلام مؤخراً خبراً مفاده، أن علماء أمريكيين طوروا نظام لوغاريتمات جديداً، صنّف الشخصيات الأكثر تأثيراً في تاريخ الإنسانية.

وأظهر البحث المستند إلى نظام حسابي، طوره العلماء، استناداً إلى ذكريات الأشخاص، وطرق استخدامهم لشبكة الإنترنت، معتبرين أن الرجل أو الشخص المهم، هو من يبقى حاضراً 200 عام بعد وفاته، لهذا قام الناظم الجديد بتمشيط الإنترنت، بهدف العثور على ما كتبه المستخدمون للشبكة الدولية حول الشخصيات المهمة في مختلف المجالات، وتم من

---

* مايكل هارت، تحقيق خالد أسعد عيسى، وأحمد غسان سبانوا، دار قتيبة للطباعة والنشر، ط 13، مجلد 1.

خلال هذا البرنامج أو النظام الحسابي تمشيط الموسوعة الإلكترونية (ويكيبيديا) ومصادر معلومات أخرى، وفقاً لترتيب نظام البحث (غوغل) للمواقع الإلكترونية.

ودرس النظام الجديد مدى شهرة الشخصيات المعنية على مدى السنين وتأثيرها، إضافة إلى دراسة مدى طول الفترة التي احتفظ بها الشخص بقيمته وتأثيره، على أساس الافتراض أن شخصيات معينة يستمر تأثيرها أكثر من غيرها، وذلك وفقاً لطبيعة الإنجاز الذي حققته، كما فُحِصَ عدد القرّاء الذين اطّلعوا على قيمة الشخصية ووضعها، وفي النهاية دُرس تأثير حوالي 800 ألف شخصية وقيمتها للوصول إلى القائمة المطلوبة، التي تحدد موقع الشخصية صاحبة التأثير في تاريخ الإنسانية واسمها.

وتناولت المواقع الإعلامية العالمية قائمة تجمع أول 50 شخصية مؤثرة في تاريخ البشرية، وتوصل البحث إلى نتائج مهمة ومثيرة، وكان سيدنا محمد، صلى الله عليه وسلم، من أبرزها.

فداؤه بالمهج والأرواح:

لم يترك الصحابة ميداناً لفداء النبي، صلى الله عليه وسلم، إلا وجوه، فاحتاج ليلة إلى رجل يحرسه، فماذا جرى؟ تجيب عَائِشَة، رضي الله عنها، فتقول: (أَرِقَ [1] النبي، صلى الله عليه وسلم، ذَاتَ لَيْلَةٍ، فقال: لَيْتَ رَجُلاً صَالِحًا من أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ[2]؛ إِذْ سَمِعْنَا صَوْتَ السِّلَاحِ، قال: من هذا؟ قيل: سَعْدٌ يا رَسُولَ اللهِ، جِئْتُ أَحْرُسُكَ، فَنَامَ النبي، صلى الله عليه وسلم، حتى سَمِعْنَا غَطِيطَهُ[3]، قال أبو عَبْد اللهِ، وَقَالَتْ عَائِشَةُ، قال بِلَالٌ:

1. قولها: (أَرِقَ)؛ أي سهر، ولم يأته نوم، والأرق السهر.
2. وقوله صلى الله عليه وسلم: (لَيْتَ رَجُلاً صَالِحًا من أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ) فيه جواز الاحتراس من العدو، والأخذ بالحزم، وترك الإهمال في موضع الحاجة إلى الاحتياط، قال العلماء: وكان هذا الحديث قبل نزول قوله تعالى: {وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ}(المائدة:67)؛ لأنه صلى الله عليه وسلم ترك الاحتراس حين نزلت هذه الآية، وأمر أصحابه بالانصراف عن حراسته.
3. والغطيط: صوت النائم المرتفع.

ألا لَيْتَ شِعْرِي هل أَبيتَنَّ لَيْلَةً   بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ

فَأَخْبَرْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم).[1]

ومن شواهد حرص الصحابة البالغ على فداء النبي، صلى الله عليه وسلم، بأرواحهم، ما كان من صاحبه أبي بكر الصديق، في رحلة الهجرة إلى المدينة المنورة، ففي الطريق إلى الغار، كان أبو بكر يَمْشِي سَاعَةً بَيْنَ يَدَيْهِ، وَسَاعَةً خَلْفَهُ، حَتَّى فَطِنَ لَهُ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَال: (يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا لَكَ تَمْشِي سَاعَةً بَيْنَ يَدَيْ وَسَاعَةً خَلْفِي؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَذْكُرُ الطَّلَبَ فَأَمْشِي خَلْفَكَ، ثُمَّ أَذْكُرُ الرَّصْد، فَأَمْشِي بَيْنَ يَدَيْكَ)[2]

وورد في مجمع الزوائد، أنَّ خبيباً بن عدي أُسِرَ، وخرج به القوم، حتى إذا كانوا بالتنعيم نصبوا تلك الخشبة، فصلبوه عليها، وقال لهم خبيب عند قتله: أطلقوني من الرباط حتى أصلي ركعتين، فأطلقوه، فركع ركعتين خفيفتين، ثم انصرف، فقال: لولا أن تظنوا أن بي جزعاً من الموت لطولتهما، ولذلك خففتهما، وقال: اللهم إني لا أنظر إلا في وجه عدو، اللهم إني لا أجد رسولاً إلى رسولك، فبلغه عني السلام، فجاء جبريل، عليه السلام، إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأخبره بذلك، وقال خبيب، وهم يرفعونه على الخشبة: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً، فلما وضعوا فيه السلاح، وهو مصلوب، نادوه، وناشدوه، أتحب أن محمداً مكانك؟ فقال: لا والله العظيم، ما أحب أن يفديني بشوكة يشاكها في قدمه، فضحكوا، وقال خبيب حين رفعوه إلى الخشبة:

لقد جمع الأحـــزاب حولي وألبوا   قبائلهم واستجمعوا كــــــل مجمع

وقد جمعوا أبناءهـــم ونســـاءهم   وقربت من جـــــــــذع طويل ممنع

إلى الله أشــــكو غربتي ثم كربتي   وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي

فذا العرش صبرني على ما يراد بي   فقد بضعوا لحمي وقد بـــان مطمعي

1. صحيح البخاري، كتاب التمني، باب قوله صلى الله عليه وسلم: ليت كذا وكذا.
2. المستدرك: 3/6، قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط الشَّيْخَيْنِ، وقال الذهبي: صحيح مرسل

وذلك في ذات الإله وإن يشـــــأ   يبارك على أوصال شـــلوٍ مـــمزع
لعمري ما أحفــل إذا مت مسلماً   على أي حـــــــال كان لله مضجعي[1]

تحول من بغض الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى حبه وفداه:

من الحالات الشاهدة على الانتقال النوعي من بغض النبي، صلى الله عليه وسلم، وكرهه، والحرص على إيذائه، بل قتله؛ للتخلص منه من قبل أشخاص في عهدهم السابق لإسلامهم، ثم تغير حالهم جذرياً على شكل انقلاب من البغض الخالص إلى الحب العظيم، ما سجله التاريخ، وروته كتب السيرة والصحاح، ومن شواهد ذلك ما كان من عمرو بن العاص، وثمامة بن أثال الحنفي، فعن ابن شِمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ، قال: (حَضَرْنَا عَمْرَو بن الْعَاصِ، وهو في سِيَاقَةِ الْمَوْتِ، فَبَكَى طَوِيلاً... وقال: لقد رَأَيْتُنِي، وما أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، مِنِّي، ولا أَحَبَّ إليّ أَنْ أَكُونَ قد اسْتَمْكَنْتُ منه، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ على تِلْكَ الْحَالِ، لَكُنْتُ من أَهْلِ النَّارِ، فلما جَعَلَ الله الإِسْلامَ في قَلْبِي، أَتَيْتُ النبي، صلى الله عليه وسلم، فقلت: ابْسُطْ يَمِينَكَ، فَلأُبَايِعْكَ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ، قال: فَقَبَضْتُ يَدِي، قال: مالك يا عَمْرُو؟ قال: قلت: أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ، قال: تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟ قلت: أَنْ يُغْفَرَ لي، قال: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ ما كان قَبْلِهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَهُ، وما كان أَحَدٌ أَحَبَّ إليَّ من رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ولا أَجَلَّ في عَيْنِي منه، وما كنت أُطِيقُ أَنْ أَمْلأَ عَيْنَيَّ منه؛ إِجْلالاً له، وَلَوْ سُئِلْتُ أَنْ أَصِفَهُ ما أَطَقْتُ؛ لأَنِّي لم أَكُنْ أَمْلأُ عَيْنَيَّ منه، وَلَوْ مُتُّ على تِلْكَ الْحَالِ، لَرَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ من أَهْلِ الْجَنَّةِ...).[2]

ولم يبعد الصحابي ثمامة بن أثال الحنفي عن مشابهة حال الصحابي عمرو بن العاص في الانتقال من بغض النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى حبه ووده، بعد أن شرح الله صدره إلى الإسلام، وعن هذا يخبر، فيقول: (...يا محمد؛ والله ما كان على الأرض وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ من وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إلي، والله ما كان من دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ من

1. مجمع الزوائد، 6/ 199 - 200.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كَوْنِ الإِسْلاَمِ يَهْدِم ما قَبْلَه وكذا الهجرة والحَجُّ.

دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إليَّ، والله ما كان من بَلَدٍ أَبْغَضُ إليَّ من بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلادِ إليَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي، وأنا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى، فَبَشَّرَهُ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فلما قَدِمَ مَكَّةَ، قال له قَائِلٌ: صَبَوْتَ؟ قال: لا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مع مُحَمَّدٍ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ولا والله، لا يَأْتِيكُمْ من الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ، حتى يَأْذَنَ فيها النبي، صلى الله عليه وسلم). [1]

منتج الفيلم المسيء يجد الراحة والطمأنينة في المسجد النبوي:

سبق أن هاجت دنيا الإسلام غضباً بسبب نشر فيلم (فتنة) الذي وقف وراء إصداره ونشره حزب الحرية الهولندي المتطرف، ومن عجيب الأقدار أن منتج ذلك الفيلم المسيء أثارته حملة الشجب والاستنكار التي قام بها مسلمون في شتى أنحاء الدنيا؛ انتصاراً لرسولهم، صلى الله عليه وسلم، فدفعه ذلك إلى القراءة عن الإسلام، والتعمق في البحث عنه، حتى آلت به النتيجة بعد ذلك إلى أن يجد ضالته ومبتغاه في دين الإسلام العظيم، الذي بعث به النبي الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، للعالمين، وبعد أن كان النبي، صلى الله عليه وسلم، مستهدفاً بالإساءة من قبل ذلك المنتج، انقلبت الأمور رأساً على عقب، وصار يمثل حبه العظيم، ويعبر عن ارتياحه لزيارة قبره، والصلاة في مسجده، ويتمنى الإقامة الدائمة بجواره.

ونقل عن صحيفة عكاظ السعودية خبر في 17-10-2013م خلال موسم الحج المنصرم، جاء فيه: قال (فاندورن) وهو يطلق آهة الفرحة من قلبه: (هنا وجدت ذاتي بين هذه القلوب المؤمنة، ودعواتي أن تمسح دموعي كل ذنوبي بعد توبتي، وسأعمل على إنتاج عمل كبير، يخدم الإسلام والمسلمين، ويعكس أخلاق نبي الرحمة بعد عودتي من رحلة الحج، ولم أجد راحتي الكاملة إلا بجوار قبر المصطفى، صلى الله عليه وسلم، حين زرته، وسأقدم فيلماً عن هذه الشخصية العظيمة). [2]

1. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن أثال.
2. نقلاً عن صحيفة عكاظ السعودية، في عددها اليوم 17/ 10/ 2013م.

حب الرسول من الإيمان:

ليس عجيباً أن يحظى النبي، صلى الله عليه وسلم، بهذا المستوى الرفيع من الحب الذي عبرت عنه بجلاء المواقف الفذة لأصحابه، وفداؤهم الجم، فحبه صلى الله عليه وسلم من متطلبات الإيمان ومقتضياته، فلا إيمان لمن لم يحبه صلى الله عليه وسلم، كما جاء في الحديث الصحيح، عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (فَوَالَّذِي نَفْسِي بيده؛ لا يُؤْمِنُ أحدكم حتى أَكُونَ أَحَبَّ إليه من وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ والناس أجمعين).[1]

وحب النبي، صلى الله عليه وسلم، ليس هوى مجرداً، ولا عشقاً في قصص الخيال، وإنما هو حقيقة، ينبغي أن يتفوق بموجبها على أي حب، فالله تعالى يقول: {قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}. (التوبة: 24)

وعن عَبْدِ اللهِ بن هِشَامٍ، قال: (كنا مع النبي، صلى الله عليه وسلم، وهو آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ ابن الْخَطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسُولَ اللهِ؛ لَأَنْتَ أَحَبُّ إلي من كل شَيْءٍ إلا من نَفْسِي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: لا وَالَّذِي نَفْسِي بيده، حتى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ من نَفْسِكَ، فقال له عُمَرُ: فإنه الآنَ، والله لَأَنْتَ أَحَبُّ إليّ من نَفْسِي، فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: الآنَ يا عُمَرُ).[2]

ومن أراد تذوق حلاوة الإيمان، فعليه بحب النبي، صلى الله عليه وسلم، فعن أَنَسٍ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (ثَلاثٌ من كُنَّ فيه، وَجَدَ حَلاوَةَ الإيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إليه مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ).[3]

1. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الإيمان.
2. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي، صلى الله عليه وسلم.
3. صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان.

وعنه، رضي الله عنه: (أَنَّ رَجُلاً سَأَلَ النبي، صلى الله عليه وسلم، عن السَّاعَةِ، فقال: مَتَى السَّاعَةُ؟ قال: وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لها؟ قال: لا شَيْءَ إلا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، صلى الله عليه وسلم، فقال: أنت مع من أَحْبَبْتَ، قال أَنَسٌ: فما فَرِحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحَنَا بِقَوْلِ النبي، صلى الله عليه وسلم: أنت مع من أَحْبَبْتَ، قال أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ النبي، صلى الله عليه وسلم، وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بِحُبِّي إِيَّاهُمْ، وَإِنْ لم أَعْمَلْ بِمِثْلِ أَعْمَالِهِمْ).(*)

هدانا الله لنكون من الذين يحبهم الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، ويحبونه، ويعملون بهداه، ويتأسون بسنته، لنحشر بإذن الله مع محبيه، وننال شفاعته، ونُسقى من حوضه، مع الذين يرضى الله تعالى عنهم ويرضون عنه.

* صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي، رضي الله عنه.

التطاول بذريعة قميص عثمان

تطالعنا الأخبار بين الحين والآخر عن ممارسات تهكمية ضد الإسلام ورموزه، فمرة يكون القرآن الكريم محل تندر واستخفاف من بعضهم، ومرة يكون الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، هدفاً للمتهكمين، وهكذا المقدسات الإسلامية وعلماء المسلمين وقادتهم ومفكروهم وتشريعهم وقيمهم، بل إن بعضهم يضع جملة الإسلام ورموزه هدفاً لتندره واستهزائه وشره.

ومن أوضح الواضح أن التطاول على الإسلام، وشخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، ليس بالأمر العادي أو العفوي، وإنما هو أمر عظيم، ومقصود لذاته، ويعبر عن حقد أعمى، وكراهية بغيضة.

وحيال هذه المواقف المشينة ومبرراتها الواهية، لا بد من وقفة تأمل، فلم تعد المسألة عفوية أو عابرة، وإنما هي حلقة ضمن مسلسل التطاول على الإسلام، والقرآن الكريم، وشخص النبي، صلى الله عليه وسلم، الذي صارت حلقاته تتابع جغرافياً وزمانياً بشكل متسارع ومتلاحق، فبالأمس كان الحدث في الساحة الدنماركية، ثم الهولندية، ثم انتقل إلى الملعب السويدي، وها هو يعود إلى الدنمارك، والحبل على الجرار.

والمبررات في ظاهرها واحدة، تتمثل في ذريعة الدفاع عن حرية الرأي والتعبير، بغض النظر عن اعتبارات الآخرين لمقدساتهم واحترام مشاعرهم ومعتقداتهم. وفي المقابل كان يمكن للدنيا أن تقوم ولا تقعد لو تجرأ الناس وأفصحوا عن آرائهم فيما لا يروق لأدعياء الحرية.

ويتساءل المرء عن الحرية، هل لها حدود، أم هي مطلقة منفلتة من الضوابط والقيود، فإن كانت من ذوات الحدود، فأبسط حدودها القيد الدارج الذي ينص على أنها تنتهي

عندما تبدأ حرية الآخرين، بمعنى أن التمتع بنعيم الحرية يقف حين يتلازم مع انتهاك حقوق الآخرين.

وأما الاعتبار الثاني الذي يطلق اليد والعنان للحرية دون أن يكون لها فراش من الأرض، ولا غطاء من السماء، فهو وهم من الأوهام، أو حيلة كيدية، لا تبعد في حجمها وصورتها عن قصة قميص عثمان. فيروق لبعضهم استخدام هذا الاعتبار كستار واق، يحاولون التظلل به عند تطاولهم على الآخرين، ويخرجون من تحت عباءته حين تكون حرية التعبير في الاتجاه المضاد لهم.

كتبت تحت هذا العنوان مقالاً نشرته صحيفة القدس في عددها ليوم الاثنين 3 /9 /2007، وأشرت فيه وقتها إلى خبر ورد في الصحيفة نفسها في عدد يوم الخميس 30 /8 /2007 تحت عنوان: (صحيفة سويدية تدافع عن رسم مسيء للنبي، صلى الله عليه وسلم) ونقلت الصحيفة في الخبر المنشور تحت هذا العنوان شجب صحيفة (نريكس الهاندا) السويدية اليومية لرفض معارض فنية في السويد عرض رسوم للمسمى بالفنان السويدي (لارس فيلكس) من ضمنها الرسم المسيء للنبي، صلى الله عليه وسلم، والذي قامت صحيفة (نريكس الهاندا) بنشره، بحجة دفاعها عن حرية التعبير، زاعمة أن الحرية الدينية، والحق في ازدراء الأديان، يسيران معاً.

ورأيت التأكيد هنا على أن برنامج الإساءة للإسلام ما زال يتواصل تحت الذرائع والدوافع والأسباب نفسها، فها هي الإساءات تتلاحق، فسبع عشرة صحيفة دنماركية تعيد نشر الرسوم المسيئة في يوم واحد، بعد مضي ثلاثة أعوام على بدء انطلاق حملة الرسوم المسيئة للنبي محمد، صلى الله عليه وسلم، حيث عبرت تلك الصحف بإعادة النشر هذا عن مناصرتها للإساءة للإسلام، بحجة الدفاع عن الحمى المقدس لحرية الرأي، الذي يمثله المتفلتون من ضوابط القيم.

ودافع عن مناصرة الرسوم المسيئة رئيس وزراء الدنمارك آنذاك (أندروس فوغ راسموسن)

وعلل موقفه الداعم لإعادة نشرها، بأن المقصود ليس جرح مشاعر المسلمين، وإنما الأمر يتعلق بالأنظمة الديمقراطية، حيث الصحافة حرة، ومن الطبيعي أن يتمكن الإنسان من التعبير عن رأيه.(*)

ومن المستهجن أنه في هذه الفترة الزمانية نفسها التي تعج بالإساءة الغربية والأجنبية للإسلام، فإن بعض الأقلام والأفواه المسيئة للعرب أو المسلمين تتطاول على الإسلام والقرآن، والرسول، صلى الله عليه وسلم.

وفي ظل هذه الحملة الاستهزائية المسعورة، يقف المرء مشدوهاً، متسائلاً عن خلفية هذه الحملات، وأهدافها، وتاريخها، وخير مجيب عن هذا التساؤل هو القرآن الكريم، حيث عرض جوانب من قضية الاستهزاء في أكثر من موضع ومجال.

أساليب العرض القرآني لمسلسل الاستهزاء بالرسل:

إن سير الأنبياء وخاتمهم محمد، صلى الله عليه وسلم، تشهد على تعرضهم للإساءة بأنواعها من أقوامهم، ولم يكن الاستهزاء قاصراً على الرسول محمد، صلى عليه وسلم، في هذا العصر، بل هي سنة الظالمين مع أنبيائهم، التي أكدها القرآن الكريم، بأساليب متعددة، منها:

* تكرار إخبار القرآن الكريم عن الاستهزاء بالرسل، فقوله تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ...}تكرر ذكره في مطلع ثلاث آيات قرآنية، في سورة الأنعام: آية 10 ، والرعد: آية 32، والأنبياء: آية 41.

* أكد الله حقيقة تعرض الأنبياء للسخرية والاستهزاء من قبل أقوامهم بأسلوب نفي نجاة الرسل والأنبياء جميعاً من الاستهزاء، وجاء هذا النفي في آيتين، فنفاها عن الرسل في قوله تعالى: {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (الحجر:11) ونفاها عن الأنبياء في الآية الأخرى، في قوله تعالى: {وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون }(الزخرف:7)

* صحيفة الأيام، بتاريخ 27 /2/ 2008.

* ذكر الله مسلسل الاستهزاء بالرسل بأسلوب أخاذ آخر، حيث ذكر السخرية في معرض التحسر على الكافرين لما ستؤول إليه عاقبتهم، حيث الندامة والخزي والحسرة والعذاب الأليم، جراء استهزائهم بالمرسلين، فقال تعالى: {يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}(يس:30)

ألوان من الاستهزاء ذكرها القرآن الكريم:

ذكر القرآن الكريم ألواناً من الاستهزاء بالله وآياته ورسله، منها:

* الاستهزاء العام بالله ورسله وآياته، وقد أنكر الله على المنافقين لجوءهم إلى هذا الأسلوب الهابط، فقال تعالى: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِئُواْ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ}(التوبة: 64 - 65)

* السخرية لتأخر عذاب الله، فسخر بعض الكافرين؛ لأنهم بالرغم من استهزائهم وكفرهم إلا أنه لم يلحق بهم عذاب الله حتى ساعتهم تلك، فكانوا يقولون: أي شيء يمنع هذا العذاب من الوقوع إن كان حقاً؟ قال تعالى: {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}(هود:8)

* ومنهم من كان يبطن الكفر والعصيان، ويتظاهر بالإسلام على سبيل الاستهزاء، فقال تعالى عنهم: {وَإِذَا لَقُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ قَالُواْ آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُواْ إِنَّا مَعَكْمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ}(البقرة:14).

* الاستهزاء بالرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، بسبب مواقفه الإيمانية، فقال تعالى: {وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ} (الأنبياء:36)

وفي حوادث أخرى وجه الاستهزاء لشخص الرسول، صلى الله عليه وسلم، انطلاقاً من

تكذيب رسالته، فقال تعالى: {وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللهُ رَسُولاً} (الفرقان:41)

وكان بعض المنافقين يؤذون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويستهزئون به؛ لأنه يستمع لكل ما يقال له، ويصدقه، قال تعالى: {وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ(*)...} (التوبة:61)

* اتخاذ آيات الله ورسله هزواً، سواء على سبيل المزاح والهزل، أم التهكم والجد، حيث أشار الله تعالى إلى هذا النوع من الاستهزاء في عدد من الآيات القرآنية الكريمة، اثنتين منها في سورة الجاثية، نصتا بوضوح على اتخاذهم آيات الله هزواً، فقال تعالى: {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً ...} (الجاثية:9) وقال سبحانه: {ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً ...} (الجاثية:35)

وفي سورة الكهف ورد ذكر هذا الصنف من الاستهزاء في آيتين، أشارت الأولى منهما إلى الاستهزاء بالآيات الربانية، والنذير الذي جاء من الله، قال تعالى: {... وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُواً} (الكهف:56) أما الآية الثانية فأشارت إلى الاستهزاء بآيات الله ورسله، فقال تعالى:{... وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً } (الكهف:106)

وفي سورة لقمان أشار القرآن الكريم إلى الاستهزاء بآيات الله في معرض الحديث عن الضالين أصحاب بضاعة اللهو في الحديث، فقال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً...} (لقمان:6)

* الاستهزاء بالقرآن الكريم، فبعض الناس يأخذ من القرآن الكريم، ويترك على مزاجه، فسماهم الله مقتسمين؛ لأنهم جعلوا القرآن أقساماً، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه الآخر،

* أذن: أي يسمع كل ما يقال له ويصدقه.

قال تعالى: {كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ* الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ(*)} (الحجر:90 - 91)

* الاستهزاء بالصلاة، فقال تعالى: {وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ } (المائدة:58)، فكان الكفار يستهزئون من الأذان حسداً للمسلمين، بل إن بعضهم كان يصف صوت الأذان بأصوات بعض الحيوانات.

توعد الله المستهزئين رغم إمهالهم:

صرح بعض الكفار لزبانيتهم عن استهزائهم بالإسلام خلال تظاهرهم به على غير الحقيقة، فرد الله عليهم بأنه سبحانه سيتولى الاستهزاء بهم، من باب عقوبتهم بنفس ذنوبهم، وما إمهالهم إلا ليزدادوا غياً وضلالاً، قال تعالى: {اللّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ* أُولَـئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ}(البقرة: 15 - 16).

وتوعد الله المنافقين بفضح أسرارهم؛ لاستهزائهم بالله وآياته ورسله، وتوعدهم بكشف زيف مواقفهم، في موقف عصيب، قال تعالى: {يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ} (التوبة: 64 - 65).

وكذلك الذين استهزؤوا بالرسل، فإن الله يمهلهم لعقاب أليم، قال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ}(الرعد:32)

وتوعد الله من يهزأ بآيات الله ويسخر منها بالعذاب المخزي، فقال تعالى: {وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئاً اتَّخَذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ}(الجاثية:9) وقال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ(لقمان:6)

* عضين: أي أجزاء، وعضين جمع عضة، وهي العضو من الشيء، أي جعلوه أعضاء متفرقة، (أضواء البيان: 2/ 318).

والعذاب المخزي سيكون من نصيب الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات أيضاً، قال سبحانه: {وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً} (الأحزاب:58)

وبلا ريب أن المؤمنين أوذوا من المشركين باللسان والسنـــــــان، والآية الكريمة تتوعد الآثمين المسيئين.

وفي القرآن الكريم وعيد عام لجماعة المستهزئين المكذبين، قال تعالى: {فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} (الشعراء:6) ومثله في سورة الأنعام: {فَقَدْ كَذَّبُواْ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (الأنعام:5)

عاقبة المستهزئين:

لم تقف الآيات القرآنية عند وعيد المستهزئين بالعذاب، وتحذيرهم منه، بل فصل بعضها شيئاً من أصناف العذاب الذي أعده الله للمستهزئين، فقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُّهِيناً } (الأحزاب:57)، فالله يطرد من رحمته الذين يؤذون رسول الله بالأقوال أو الأفعال، ويحرمهم مِن كل خير في الدنيا والآخرة، إضافة لما أعدَّه لهم في الآخرة من العذاب المذل المخزي.

وبين القرآن الكريم أن الاستهزاء بآيات الله ورسله عاقبته وخيمة، قال تعالى: {ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون} (الروم:10)

بل إن الاستهزاء سينقلب وبالاً وعذاباً على فاعليه، يحاطون به ويطوقون، قال تعالى: { ... وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} (النحل:34)

ومما يسترعي الانتباه والتدبر، أن لفظ (حاق) استخدم تسع مرات في القرآن الكريم، ورد في ثمان منها ضمن سياق الحديث عن عقاب المستهزئين، وفي التاسعة لم يذكر الاستهزاء

باللفظ، وإنما ذكر في سياق المعاقبة بسيئات المكر، ويبين الجدول الآتي توزيع لفظ (حاق) في القرآن الكريم حسب السورة والآية والسياق.

السياق	السورة	الآية
{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}	الأنعام	10
{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}	الأنبياء	41
{...وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}	هود	8
{...وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}	النحل	34
{...وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون}	الزمر	48
{...وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}	غافر	83
{...وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}	الجاثية	33
{...وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}	الأحقاف	26
{فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ}	غافر	45
المجموع	9	9

فسيظهر لهؤلاء الذين كانوا يكذِّبون بآيات الله ما عملوا في الدنيا من الأعمال القبيحة، وسينزل بهم من عذاب الله جزاء ما كانوا به يستهزئون، قال تعالى: {وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}(الزمر: 48)

وتكرر نص هذه الآية في سورة الجاثية آية رقم 33 مع اختلاف واحد، ففي الأولى استخدم لفظ (كسبوا)، وفي الثانية لفظ (عملوا).

والمستهزئون يفرحون ويقهقهون ابتهاجاً بما أساءوا {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ}(المطففين: 29) لكن ابتهاجهم أمده قصير، والعبرة بالعاقبة؛ لا بالمظاهر الخدّاعة، التي يظن منها أن المرء في رخاء ونعيم، بينما هو في ضنك وجحيم، فالفائز من يضحك آخراً {... فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود: 49) {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}(الأعراف: 128)

وعذاب الله سيحيط بالخاسرين، من حيث لا يحتسبون، وما ذلك على الله بعزيز، قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}(الأحقاف: 26)، {...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ} (الشعراء: 227)

فمن يبتهج بالإساءة لله ورسله ويضحك لذلك في موقف لحظي هنا أو هناك بدار الفناء هذه، سيبكي غداً حين يواجه الحقيقة في دار البقاء، فقد أعلن الله بصريح العبارة أنه أعد جهنم للمستهزئين، فقال تعالى: {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً} (الكهف: 106)، بل سيكونون من الخالدين فيها، قال تعالى: {ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ} (الجاثية: 35).

الصبر على الاستهزاء:

جعل الله الصبر على الأذى المسموع من عزم الأمور، فقال تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} (آل عمران: 186).

وحث سبحانه على مواجهة أذى القول بالصبر، فقال تعالى: { فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ...} (طه: 130، وق: 39)، وتكرر هذا الحث في أربع سور قرآنية، مع اختلاف في لفظ فعل الأمر بالصبر، فذكر مرة بلفظ (اصْبِرْ) وذكر في أخرى بلفظ (وَاصْبِرِ) وفي الباقي بلفظ (فَاصْبِرْ).

ويبين الجدول الآتي توزيع المواضع القرآنية التي أمرت بالصبر على أذى القول، حسب السورة والآية ولفظ الأمر بالصبر:

الرقم	السياق	رقم الآية	السورة	المجموع
1	{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ...}	130	طه	1
2	{فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ...}	39	ق	1
3	{اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ...}	17	ص	1
4	{وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً}	10	المزمل	1
	المجموع	4	4	4

ونبه الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى مثل أعظم في الصبر على هذا النوع من الأذى، فقال: (مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ يَدَّعُونَ لَهُ الْوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ).(*)

وإن عموم الآيات القرآنية التي تحث على الصبر تشمل الدعوة إليه في حالات الاستهزاء، فهي أحوج إليه من غيرها، وهذه الآيات كثيرة، وعكس الصبر الجزع الذي يجر إلى الخنوع والاستسلام، أما الصبر فهو يساعد على تحقيق الغلبة والنصر، والله تعالى يدعو في ختام سورة آل عمران إلى مغالبة العدو بالصبر، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (آل عمران: 200)

ويحث الله على الصبر مع ارتقاب حكم الله في الظالمين، قال تعالى: {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} (يونس: 109).

والصبر على الأذى يتوافق مع طرد الهم والحزن، وضيق النفس والصدر، لهذا ذكر الله هذه القضايا مقترنة في قوله تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ} (النحل: 127).

وفوق ذلك فقد وعد الله الصابرين خير الجزاء وأفضله، فقال تعالى: {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً} (الفرقان: 75)

مواساة الحاضرين بحال السالفين:

واسى القرآن الكريم النبي والمؤمنين بذكر مسلسل الاستهزاء بالرسل السابقين، فكما فَعَل المشركون بالرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، فكذلك فُعِلَ بمن قبله من الرسل فقال تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ}، وتكرر ذكر هذا المقطع من الآية الكريمة في ثلاثة مواضع قرآنية، هي: (في سورة الأنعام، آية: 10، وسورة الأنبياء، آية: 41، وسورة الرعد، آية: 32).

وكان في هذا التذكير تسلية للرسول، صلى الله عليه وسلم، وفيه أيضاً مواساة لنا في هذا الزمان الذي يعج بالممارسات المسيئة لديننا ونبينا وقرآننا، والله تعالى يقول: {تِلْكَ مِنْ

* صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين} (الذاريات: 58)

أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} (هود: 49).

ويقول سبحانه: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ} (آل عمران: 137). ويقول: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدِّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}(الأنعام: 135).

ومن مواساة الله سبحانه لرسوله، صلى الله عليه وسلم، ما ورد في الكوثر من رد على من وصفه بالأبتر، فقال تعالى: {إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ} (الكوثر: 3) ومعلوم أن هذه الآية التي وردت في أصغر سورة قرآنية، نزلت في أحد المستهزئين، وهو العاص بن وائل، الذي قال للمشركين من قومه عن النبي محمد، صلى الله عليه وسلم: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له –أي لا نسل له– فإذا هلك انقطع ذكره، وكان ذلك حين مات (القاسم) ابن الرسول، صلى الله عليه وسلم. فأخبر الله تعالى أن هذا الكافر هو الأبتر، وإن كان له أولاد؛ لأنه مبتور من رحمة الله، أي مقطوع عنها، بخلاف النبي، صلى الله عليه وسلم، فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، اسمه مرفوع على المآذن والمنابر، مقرون بذكر الله تعالى، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه، فهو كالوالد لهم، صلوات الله عليه وسلامه. (*)

ومن الشواهد التي تؤيد ما ورد في كتب التفسير عن الأبتر حقيقة، أن العاص بن وائل بتر مع المبتورين، وذكره القليل إنما يكون في مواضع الذم، وقوائم المسيئين، بينما الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، يذكر مرات عديدة كل يوم على مدار الزمان في معظم أنحاء الكون، ويذكره الملايين يومياً مرات عدة في اليوم الواحد في صلاتهم وغيرها، والذي يتأمل في تقاطر الملايين سنوياً لأداء مناسك الحج، ويدقق النظر في حرص الحجيج على زيارة قبر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وفي بحثهم الدؤوب عن الأماكن التي زارها ليزوروها، والأفعال التي أداها ليؤدوها، يخلص إلى نتيجة مؤكدة، مفادها أن الرسول محمد، صلى الله

* الصابوني، صفوة التفاسير، 3 / 611 – 612.

عليه وسلم، لم يبتر، بل حظي بخلود وأثر وأتباع تغيظ قلوب الظالمين والمستهزئين، وتزيدهم حسرة إلى حسرتهم، وقهراً فوق قهرهم، فهم يريدون طمس دينه، وطمر حقيقته، وهي تزداد علواً وشيوعاً وانتشاراً، مصداقاً لوعد الله الذي قطعه على نفسه، بقوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }(التوبة: 32). وتكرر ذكر هذا الوعد الرباني في قوله سبحانه: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ } (الصف: 8).

فليخسأ المستهزئون المعاصرون كما خسئ الأقدمون، فهم جميعاً خاسرون، كما خسر أسلافهم، الذين أشار الله لمصير بعضهم بقوله سبحانه: { فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً }(الطلاق: 9)، كيف لا، وهم يناصبون الله وأولياءه العداء، ويتجرأون عليه بالاستهزاء والسخرية ؟! {...وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ}(يوسف:21)

ونود في هذا المقام أن نهمس في آذان المنهمكين في الكيد لهذا الدين، ونقول لهم: ارفقوا بأنفسكم، ووفروا عليها الجهد والعناء؛ فالإسلام عظيم، لن تهزه الأعاصير، فكيف برسوم سخيفة؟! وتأكدوا أن الله لكم بالمرصاد، وسوف تجدون جهدكم في المكر والكيد لهذا الدين ورسوله يذهب دائماً وأبداً هباء منثوراً، ونذكركم بوعد الله سبحانه وتعالى لنا ولكم، المتضمن في قوله تعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (التوبة: 32).

ونؤكد في المقابل للمسلمين الحريصين على دينهم بأنه لا مبرر للجزع والحزن أو القلق على مستقبل الإسلام ومصيره، وليطمئنوا إلى حقيقة انتصار الإسلام، رغم أنف الكارهين والمستهزئين، فهي حقيقة قررها الله، فقال سبحانه: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * .... وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}

(الصف: 8 - 9 + 13).

فالحقيقة الساطعة التي يغفل عنها من عميت أبصارهم بغشاوة الأحقاد، أن رسالة الإسلام التي بلغها رسول الله، وخاتم رسله عليه وإياهم صلوات الله وسلامه، ستبقى محفوظة في كنف الرعاية الربانية، رغم أنف الكارهين والحاقدين، ولن تجدي كل محاولات المكر والكره والازدراء في المس بها، فهي في كنف الحفظ الإلهي إلى يوم الدين رضي من رضي، أو كره من كره، بل إن الأفعال المسيئة كالرسوم وغيرها أدت - كما يلمس من الواقع والأخبار - إلى نتائج مباينة لمراد المسيئين، فكانت ردة الفعل عكسية، حيث نبهت الإثارة التي حصلت بعد الرسوم السابقة إلى تشويق بعضهم للتعرف إلى هذا الدين، ورسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، وفي الوقت نفسه دفعت المسلمين إلى مزيد من التمسك بدينهم، وعمقت في قلوبهم جذور الحب والشوق لرسولهم محمد، صلى الله عليه وسلم.

فالله نسأل أن يرد كيد المستهزئين إلى نحورهم، وأن يعجل بالنصر القريب للإسلام، وبالعزة للمسلمين، إنه سميع قريب مجيب.

تأملات في ذكرى المولد النبوي الشريف

تزامنت ذكرى المولد النبوي الشريف في عدد من الأعوام السالفة، مع الحملات المسعورة التي تشن على الإسلام ورموزه ظلماً وعدواناً، فالرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، جاء إلى العالمين برسالة السماء عن ربه، ليهديهم طريق الحق، ويصرفهم عن الضلال والغواية، جاء لينقذهم من براثن الفساد وظلمات الجهل، إلى نور العلم والإيمان والصلاح، ومنذ ولادة الدعوة الإسلامية حاول أعداؤها وأدها في مهدها، ديدن الظالمين في كل زمان مع دعوات النبيين والمرسلين، عليهم السلام، فالمعرضون عن الهدى كُثْرٌ، مصداقاً لقوله تعالى: {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ} (فصلت:3 – 4)

ومع ذلك فإن دعوة الإسلام التي أرسل بها الهادي محمد، صلى الله عليه وسلم، تتنامى ويتسع انتشارها، رغم أنف الكارهين والمتربصين، فها هي وصلت أنحاء الدنيا بقدرة الله، ولا يكاد موضع في الأرض يخلو من المسلمين، وفي الوقت الذي نسمع فيه عن محاولة النيل من احترام الرسول، صلى الله عليه وسلم، من قبل زُمرٍ من الحاقدين، فإننا نسمع عن حالاتٍ ومواقف من التأييد والفداء للرسول، صلى الله عليه وسلم، ويحدث هذا من ناطقين بالعربية، وممن لم يعرفوها، وإنما أشربوا في قلوبهم حب الإسلام ورسوله، عليه الصلاة والسلام، لا يذكر هذا من قبيل التباهي والتفاخر والتعالي على الخلق، وتسجيل النقاط عليهم، وإنما هي الحقيقة التي يحاول بعض الناس حجب شمسها، وإطفاء نورها، فدعوة الإسلام عالمية، وهي دعوة هداية ورشاد، وليست دعوة شخصية وتكَّسب وجني لحظوظ دنيوية، ويجب أن لا تغيب هذه الحقيقة عن أذهان حامليها في كل زمان ومكان، فينطلق سرورهم بكثرة المسلمين، وتزايد عددهم، من النتيجة التي آلت إليها أحوال الخلق، بانتقالهم إلى الله والرشاد.

وأعداء الحق عبر الزمان يكرهون نجاح دعوة محمد، صلى الله عليه وسلم، ويحاربونها وحملَتها بكل ما أوتوا من قوة وبطش، لكن الله لهم بالمرصاد، وهو القائل سبحانه: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (التوبة:32)

ويقول سبحانه: {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} (الصف:9)، ويأتي وعد الله بإظهار دين الإسلام وحفظه من كيد المتآمرين عليه، تماشياً مع وعده سبحانه بإحقاق الحق وإبطال الباطل، يقول تعالى: {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ} (الأنفال:8)، وتشكل هذه الوعود دافعاً لحملة دعوة الإسلام ليستمروا في طريقهم على نهج الله، وسنة رسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، وقد أمرهم الله بهذا في محكم التنزيل، فقال تعالى: {فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} (غافر:14)، فالله معكم ولن يتركم أعمالكم، أما الذين ظلموا وكفروا وفسقوا، فالله لهم بالمرصاد، وقد أنذرهم ذلك، فقال جل شأنه: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ} (محمد:28)، ومكر أولئك سيبور، وستحبط أعمالهم، مهما عظم كيدهم ضد الحق وأهله، والله تعالى يقول: {وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} (إبراهيم:46)

قافلة الخير:

فعلى الرغم من فظاعة الحملات المضادة للرسول، صلى الله عليه وسلم، ودعوته ودينه وأتباعه، فإن النور المبين الذي حمله ما زال يسطع، بل يزداد سطوعاً في ربوع العالمين، والله تعالى يقول: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً} (الفرقان:1) ويقول سبحانه: {كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ} (الأعراف:2)

وقد استوقفني خبر منسوب لصحيفة (الإندبندنت) البريطانية عن انتشار الإسلام

في بريطانيا، فتحت عنوان: (البريطانيون يدخلون الإسلام أفواجاً)، ورد في بعض المواقع الإلكترونية، أن صحيفة (الإندبندنت) كتبت أن واحدة من أشمل المحاولات لإحصاء عدد البريطانيين الذين يعتنقون الإسلام، تبين أن العدد تضاعف تقريباً خلال العقد الماضي.

وتقول الصحيفة: ورغم الصورة السلبية الرائجة غالباً عن الإسلام، فما زال البريطانيون يدخلون في هذا الدين أفواجاً كل عام.

وقد حددت التقديرات السابقة عدد المسلمين الجدد في بريطانيا ما بين 14 ألفاً و25 ألفاً.

لكن دراسة جديدة لمجموعة (فيث ماترز) الفكرية ترى أن العدد الحقيقي يمكن أن يكون أعلى من 100 ألف، بالإضافة إلى أكثر من 5000 حالة هداية جديدة في أنحاء البلد كل عام.

وتضيف (الإندبندنت): وإجمالاً قدر الباحثون عدد المسلمين في بريطانيا عام 2001م بـ60699، وهذه الأرقام مشابهة لدراسات في ألمانيا وفرنسا، وجدت أن هناك نحو 4000 هداية كل عام، ودرس تقرير (فيث ماترز) أيضاً الطريقة التي تصور بها وسائل الإعلام المسلمين الجدد، ووجدت أن 32 % من المقالات عن الإسلام المنشورة منذ عام 2001م كانت مرتبطة بالإرهاب أو التطرف، وقفز الرقم إلى 62 % بخصوص المسلمين الجدد، فالإسلام من أسهل الديانات التي تُعتنق؛ لأن كل ما يحتاجه المرء هو النطق بشهادة الإسلام المعروفة: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله). والنطق بها بإخلاص هو المطلوب كله ليكون الشخص مسلماً.

وذكرت الصحيفة نماذج لمسلمين جدد من الشباب البريطاني، وأسباب اعتناقهم للإسلام، ومنها مصادقة بعض المسلمين، وفضولهم لعدم رغبة بعضهم في ارتياد النوادي أو الاختلاط، وبعضهم كان يرى في الإسلام امتداداً طبيعياً للمسيحية، وهذا ما جعله يهتدي، حتى إن بعض الفتيات البريطانيات لم يستغرقن وقتاً طويلاً في ارتداء الحجاب؛ لأنهن اعتبرنه معنى مهماً في الإسلام، وليس مجرد لباس مظهر، لأنه رمز للتواضع في كل شيء يفعلنه، وكانت

العنصرية تحكم بعضهم، لكنهم عندما تعرفوا إلى الإسلام عن كثب تغير حالهم، ورجعوا إلى بريطانيا وقرروا اعتناق الإسلام.(*)

وينسجم هذا التقرير مع ما ثبت في صحاح السنة النبوية المشرفة، أن من علامات نبوة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، أن أتباعه يزيدون ولا ينقصون، وأنه لا يرجع أحد دخل الإسلام بصدق وإيمان، ففي حديث طويل صحيح عن عَبْد اللهِ بن عَبَّاسٍ، يتضمن حواراً دار بين هرقل عظيم الروم وقتئذ، وبين أبي سفيان قبل أن يسلم، ويبرز هذا الحديث بعض علامات نبوته صلى الله عليه وسلم لدى الأمم والأديان السابقة، فعن ابن عَبَّاسٍ، قال:

حدثني أبو سُفْيَانَ من فيه إلى فِيَّ، قال: انْطَلَقْتُ في الْمُدَّةِ التي كانت بَيْنِي وَبَيْنَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال فَبَيْنَا أنا بالشام، إِذْ جِيءَ بِكِتَابٍ من النبي، صلى الله عليه وسلم، إلى هِرَقْلَ، قال: وكان دَحْيَةُ الْكَلْبِيُّ جاء بِهِ، فَدَفَعَهُ إلى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ عَظِيمُ بُصْرَى إلى هِرَقْلَ، قال: فقال هِرَقْلُ: هل هَا هُنَا أَحَدٌ من قَوْمِ هذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالُوا: نعم، قال: فَدُعِيتُ في نَفَرٍ من قُرَيْشٍ، فَدَخَلْنَا على هِرَقْلَ، فَأُجْلِسْنَا بين يَدَيْهِ، فقال: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا من هذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فقال أبو سُفْيَانَ: فقلت: أنا. فَأَجْلَسُونِي بين يَدَيْهِ، وَأَجْلَسُوا أَصْحَابِي خَلْفِي، ثُمَّ دَعَا بِتَرْجُمَانِهِ، فقال: قُلْ لهم: إني سَائِلٌ هذا عن هذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، فإن كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ.

قال أبو سُفْيَانَ: وَايْمُ اللهِ لَوْلَا أَنْ يُؤْثِرُوا عَلَيَّ الْكَذِبَ لَكَذَبْتُ.

ثُمَّ قال لِتَرْجُمَانِهِ: سَلْهُ كَيْفَ حَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قال: قلت: هو فِينَا ذُو حَسَبٍ.

قال: فَهَلْ كان من آبَائِهِ مَلِكٌ؟ قال: قلت: لَا.

قال: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ، قبل أَنْ يَقُولَ ما قال؟ قلت: لَا.

قال: أَيَتَّبِعُهُ أَشْرَافُ الناس، أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ قال: قلت: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ.

---

* (البريطانيون يدخلون الإسلام أفواجا)، موقع الجزيرة الالكتروني نقلاً عن الاندبندنت البريطانية www.aljazeera.net/news/presstour.

قال: يَزِيدُونَ أو يَنْقُصُونَ؟ قال: قلت: لَا بَلْ يَزِيدُونَ.

قال: هل يَرْتَدُّ أَحَدٌ منهم عن دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه سَخْطَةً له؟ قال: قلت: لَا.

قال: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: قلت: نعم.

قال: فَكَيْفَ كان قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قال: قلت: تَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالًا، يُصِيبُ مِنَّا، وَنُصِيبُ منه.

قال: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قال: قلت: لَا، وَنَحْنُ منه في هذه الْمُدَّةِ، لَا نَدْرِي ما هو صَانِعٌ فيها. قال: والله ما أَمْكَنَنِي من كَلِمَةٍ أُدْخِلُ فيها شيئاً غير هذه.

قال: فَهَلْ قال هذا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ قلت: لَا.

ثُمَّ قال لِتُرْجُمَانِهِ: قُلْ له إني سَأَلْتُكَ عن حَسَبِهِ فِيكُمْ؛ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو حَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ في أَحْسَابِ قَوْمِهَا.

وَسَأَلْتُكَ: هل كان في آبَائِهِ مَلِكٌ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا؛ فقلت: لو كان من آبَائِهِ مَلِكٌ، قلت رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ.

وَسَأَلْتُكَ عن أَتْبَاعِهِ؛ أَضُعَفَاؤُهُمْ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقلت بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ؛ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ.

وَسَأَلْتُكَ: هل كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قبل أَنْ يَقُولَ ما قال؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا؛ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لم يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ على الناس، ثُمَّ يَذْهَبَ فَيَكْذِبَ على اللهِ.

وَسَأَلْتُكَ: هل يَرْتَدُّ أَحَدٌ منهم عن دِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه سَخْطَةً له؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا؛ وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ إذا خَالَطَ بَشَاشَةَ الْقُلُوبِ.

وَسَأَلْتُكَ: هل يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يُزِيدُونَ؛ وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حتى يَتِمَّ.

وَسَأَلْتُكَ: هل قَاتَلْتُمُوهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّكُمْ قَاتَلْتُمُوهُ، فَتَكُونُ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ سِجَالًا، يَنَالُ مِنْكُمْ، وَتَنَالُونَ منه؛ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لهم الْعَاقِبَةُ.

وَسَأَلْتُكَ: هل يَغْدِرُ؟ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ لَا يَغْدِرُ؛ وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ.

وَسَأَلْتُكَ: هل قال أَحَدٌ هذا الْقَوْلَ قَبْلَهُ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لَا؛ فقلت: لو كان قال هذا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ، قلت رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ.

قال: ثُمَّ قال: بِمَ يَأْمُرُكُمْ؟ قال: قلت: يَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّلَةِ، وَالْعَفَافِ. قال: إن يَكُ ما تَقُولُ فيه حَقًّا؛ فإنه نَبِيٌّ، وقد كنت أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، ولم أَكُ أَظُنُّهُ مِنْكُمْ، وَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إليه لَأَحْبَبْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كنت عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمَيْهِ، وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُهُ ما تحت قَدَمَيَّ.

قال: ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَقَرَأَهُ، فإذا فيه؛ (بِسْمِ اللهِ الرحمن الرَّحِيمِ، من مُحَمَّدٍ رسول اللهِ، إلى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ على من اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ الله أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ؛ فإن عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ [1]، {يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألا نَعْبُدَ إلا اللهَ...إلى قَوْلِهِ: اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}).

فلما فَرَغَ من قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، ارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ عِنْدَهُ، وَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَأُمِرَ بِنَا فَأُخْرِجْنَا.

قال: فقلت لِأَصْحَابِي حين خَرَجْنَا: لقد أَمِرَ أَمْرُ بن أبي كَبْشَةَ، إنه لَيَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، فما زِلْتُ مُوقِنًا بِأَمْرِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَنَّهُ سَيَظْهَرُ، حتى أَدْخَلَ الله عَلَيَّ الْإِسْلَامَ.

قال الزُّهْرِيُّ: (فَدَعَا هِرَقْلُ عُظَمَاءَ الرُّومِ، فَجَمَعَهُمْ في دَارٍ له، فقال: يا مَعْشَرَ الرُّومِ، هل لَكُمْ في الْفَلَاحِ وَالرَّشَدِ آخِرَ الْأَبَدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ لَكُمْ مُلْكُكُمْ؟ قال: فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إلى الْأَبْوَابِ، فَوَجَدُوهَا قد غُلِّقَتْ، فقال: عَلَيَّ بِهِمْ، فَدَعَا بِهِمْ، فقال: إني إنما اخْتَبَرْتُ شِدَّتَكُمْ على دِينِكُمْ، فَقَدْ رأيت مِنْكُمْ الذي أَحْبَبْتُ، فَسَجَدُوا له، وَرَضُوا عنه).[2]

وفي المتنكرين للحق ومن لف لفهم، واتبع منهجهم في الإعراض عن ذكر الرحمن الذي

1. الأريسيين: أي الفلاحون والزراعون، ومعناه أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون لك(صحيح مسلم بشرح النووي: 12/ 109).

2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة آل عمران، باب {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله} (آل عمران: 64).

بعث به نبي الله، ورسوله للعالمين محمد، صلى الله عليه وسلم، يصدق قول الله تعالى: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ...} (الشورى:48).

وقوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ} (البقرة:159).

هذا إذا كانوا كذبوا بالحق وهم يعلمون، وأما إن كانوا كذبوا به دون علم، فيصدق فيهم وعيد الله: {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} (يونس:39).

ومن تنكب درب الهدى فسيضل ويشقى، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ} (الزمر:41).

وصاحب هذه الذكرى العطرة الرسول الأمين، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، ما هو إلا نذير للناس أجمعين، {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الحج:49)، {قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الملك:26).

يدور الزمان

في الفاتح من محرم يبدأ عام هجري جديد، معلناً عن طي صفحة، وفتح أخرى في سفر الزمان، والعيون ترنو لأن تكون الصفحة الجديدة مبهجة للصغير، ومفرحة للكبير، وباعثة لروح الأمل في نفوس المستبشرين، وما ذلك على الله ببعيد.

الزمان والعام والأشهر والأيام في نصوص من القرآن و السنة:

لقد حدد الله الأمد الزماني للسنة الواحدة باثني عشر شهراً، فقال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات َالأَرْضَ...} (التوبة:36)

وجعل سبحانه من السنة أشهراً حرماً، حدد عددها بأربعة، فقال تعالى: {... مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ...} (التوبة:36)

وبين الرسول، صلى الله عليه وسلم، عدد الأشهر الحرم وأسماءها ومواقعها، فعَنْ ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ، عَنْ أَبِيه، رضي الله عنه، عَنْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلَاثَ مُتَوَالِيَاتٌ؛ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ)(*)

وحرم سبحانه التلاعب في ترتيب الأشهر، فكان جهلاء العرب يقدمون ويؤخرون الأشهر، وبخاصة الحُرُم منها، لتوافق أهواءهم، فإذا أرادوا حرباً في شهر حرام نقلوا موقعه ليصبح في موقع حلال، بمعنى أنهم كانوا يتلاعبون في تحريك عجلة الزمن بأيديهم حسب وهمهم، فأنكر الله عليهم هذا الصنيع في معرض إثبات الترتيب الحقيقي لأشهر العام، فقال

---

*صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن سورة براءة، باب قوله: {إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله...}(التوبة: 36) هو القائم.

سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا النَّسِيءُ[1] زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِّيُوَاطِؤُواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ اللهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ }(التوبة:37)

وشمل القرآن الكريم ذكراً متنوعاً لأصناف من مواقيت الزمان، فذكر الفجر، والصبح، والضحى، والعصر، والعشاء، والنهار، والليل، والصيف، والشتاء...

وذكر أياماً مميزة، كيوم حنين، ويوم الحصاد، ويوم الظعن، ويوم الإقامة، ويوم الفرقان، ويوم الحج، ويوم الزينة، واليوم العصيب، واليوم المحيط، واليوم العاصف، ويوم الوقت المعلوم... هذا بالإضافة إلى ذكر اليوم الآخر بمسميات مختلفة؛ كيوم القيامة، ويوم الدين، واليوم الآخر، ويوم الحساب...

وعندما يدور الزمان، تمر بالناس أشهر وأيام، ميزها الله بخصائص عن غيرها، فشهر رمضان خصه الله بنزول القرآن الكريم وفَرْض الصيام، فقال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ...} (البقرة:185)

وجعل الله للحج أشهراً معلومات، فقال تعالى: {الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ[2]...} (البقرة:197)

والشهر يضم أسابيع، والأسبوع يشمل سبعة أيام، خص الله منها يوم الجمعة بالذكر، وميزه بصلاة عرفت باسمه، هي صلاة الجمعة، التي تؤدى مكان صلاة الظهر في سائر أيام الأسبوع، فقال تعالى في الجمعة: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ...} (الجمعة:9)

وذكر الله يوم السبت في سياق حديثه عن قيام بني إسرائيل بالتحايل على حكم الله فيهم بخصوص هذا اليوم، فقال تعالى:{وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي

1. النسيء هو التأخير لحرمة شهر إلى آخر ليست له تلك الحرمة. (التفسير الكبير: 16/ 45).

2. الأشهر المعلومات هنا هي: شوال وذو القعدة وذو الحجة.

السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ ...} (الأعراف:163)

وخص الله من الليالي ليلة القدر، فجعلها خيراً من ألف شهر، وأنزل سورة قرآنية سميت باسمها، فقال سبحانه وتعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ* لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ } (القدر: 1 - 3)

وذكر سبحانه مباركته لهذه الليلة بقوله تعالى:{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ}

(الدخان:3)

تحريم سب الدهر:

تمنع شريعة الإسلام سب الزمان؛ لأنه في اعتبارها وحكمها مقدس، لما ورد في الحديث القدسي الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الْأَمْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) (*)

أقوال في الوقت والأيام وقياس الأعمار:

قيل لأحد الحكماء: اكتسب فلان مالاً. فقال: هل اكتسب أياماً ينفقه فيها؟! قالوا: لا. فقال: ما أراه اكتسب شيئاً.

وقيل: إن الأيام ثلاثة: أمس قد ذهب بما فيه، والغد: لعلك لا تدركه، واليوم الذي أنت فيه، فماذا أنت فاعل فيه.

وكان مالك بن دينار يقول: إن الليل والنهار خزانتان، فانظروا ما تضعون فيهما.

وقال أبو الدرداء: ابن آدم، طئ الأرض بقدمك، فإنها عن قليل تكون قبرك، ابن آدم، إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم ذهب بعضك. ابن آدم، إنك لم تزل في هدم عمرك منذ ولدتك أمك.

---

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، حم الجاثية، باب {وما يهلكنا الدهر}(الجاثية: 24).

وقال الحسن: ابن آدم، اليوم ضيفك، والضيف مرتحل بمدحك أو بذمك، وكذلك ليلتك.

وقيل: الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

والأيام دول، يوم لك ويوم عليك.

ولكل دهر دولة ورجال.[1]

قياس عمر الإنسان:

الإنسان يمر خلال العمر الذي يقضيه عبر بحر الزمان بمختلف الأحوال، فيتذوق حلو الأيام ومرها، ويغادر الدنيا راحلاً تاركاً الدنيا لآخرين، سيرحلون بدورهم عنها كما رحل، وينعى المتوفى من ذويه بأنه توفي عن عمر يناهز كذا وكذا، لكن بعض الناس يأبى أن يحسب فترة العمر كما يحسب الناس، وإنما يفضل طريقة أخرى في الحساب، كما ورد في قصة (جبر)؛ فحكي أن شخصا اسمه جبر قام بزيارة مقبرة في إحدى البلدان، ولاحظ ملاحظة غريبة، إذ وجد قبراً مكتوباً عليه عاش صاحبه ساعات محددة، وآخر مكتوب عليه عاش دقائق محددة، وهكذا، فسأل لماذا أعمار الناس هنا قصيرة جداً؟!

فأجابوه أن الناس هنا يحسبون الأعمار حسب اللحظات السعيدة التي عاشها الفقيد في حياته.

فقال جبر: إذا مت أنا هنا ادفنوني، واكتبوا على قبري: (جبر من بطن أمه إلى القبر)[2]!

حقيقة دوران الزمان:

سواء تعارف الناس على التوقيت بالقمري أم بالشمسي أم بغير ذلك، فإن العجلة تدور، والقطار منطلق في المسير، لا يتوقف عند أفراح فلان، ولا عند أتراح علّان، والله تعالى يقول: {وتلك الأيام نداولها بين الناس} (آل عمران: 140)

فدوران الأيام حقيقة، يتبادل الخلق فيها الأدوار، فاليوم هذا بطل منتعش بنشوة النصر، وخصمه مكتئب يتجرع مرارة الهزيمة. ويشهد واقع الخلق على تقلب الأحوال، وتغير

1. زاد المسلم من الشعر والبيان: 1/ 153.
2. http://www.odabasham.net.

المواقع، فحزين اليوم قد يصبح مبتهجاً في جولة الغد، والعكس صحيح، فكم من شخص كان القرار بيده، والصولة له، فكان هو صاحب الأمر والنهي، فإذا به في ضحى الزمان يتلقى الأمر ممن كان بالأمس القريب يستصرخه، أي أنه أصبح صاغراً لمن كان في سالف الزمان يبتهج لو قدر له أن يمسح حذاءه، أو لو حظي بأن يلقي نظرة على موكبه، أو حتى على مركبته واقفة أو متحركة.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، يجدر تذكر ما حصل مع الرئيس الراحل صدام حسين وغيره من الزعماء، الذين شهدت مجريات حياتهم على مصداقية قاعدة وسنة: (تداول الأيام بين الناس).

وهكذا الأمم والشعوب، فالتاريخ قديمه وحديثه يشهد على تغير الأحوال، فهناك شعوب كانت مقهورة فإذا بها اليوم قاهرة، وهناك أمم كانت لا تغيب الشمس عن بقاعها ورقاعها، وإذا بها اليوم في ذيل الركب، والزمان يدور... ويبقى يدور إلى أن يأتي وعد الله الموعود.

ونحن أمة الإسلام جزء من معالم المعادلة، لكن الله تعالى طمأننا بالنتيجة والمآل، فهدأ من روعنا في موطن الجراح، وجدد لنا الوعد والعهد، فقال تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ...} (آل عمران: 140)

وصور الله تعالى دوران الزمان وكأنه عملية سباحة يعوم الخلق بأنواعهم ومختلف صنوفهم، ويغوصون ويبحرون في مياهها، فقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}(الأنبياء: 33)، فالزمان يدور في صورتيه الكمية والنوعية، في آية دالة على عظمة الخالق سبحانه، وهو أيضاً واعظ لمن تدبر فيه، فاليوم يمر نهاره وليله، والسنون تمر بحلوها ومرها، والعمر تمضي مراحله وأحواله، ويبقى الأثر الطيب، والذكر الحسن، والعمل الصالح الله يرفعه.

مشاهدة تغاير الأحوال في دوران الزمان:

عام يمضي وآخر يأتي، وهكذا الزمان(*) يدور كالدولاب، تطلع شمس النهار، ويبدأ ليله

* المراد بالزمان السنة، وهو اسم لقليل الوقت وكثيره.

بالمغيب، ويُطوى يوم، ويبدأ جديد، والأيام حبلى، تحوي أحشاؤها الحدث الحزن، وخلافه السعيد، فهذا يولد، وذاك يموت، وهذا يبكي، وقرينه يضحك، وهنا جراح، وهناك نصر وانتعاش. وغداً تتبدل الصور والأدوار، فتكون هنا أفراح، وهناك أتراح. ويدور الزمان في صور يظهر في ملامحها أنا وأنت، ونحن وهم، وكل له موقع في صورة الكل.

شكوى الزمان:

للناس حيال دوران الزمان مواقف؛ فمنهم الكيس المتعظ، ومنهم السلبي المبتئس؛ فالذين يشكون الزمان بين الحين والآخر، يلقون عليه أسباب معاناتهم وتخلفهم وقصور همتهم، وأجاب الشاعر هؤلاء المشتكين، فقال:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالعَيْبُ فِينَا   وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
وَنَهجُو ذَا الزَّمَانِ بِغيرِ ذَنْبٍ   وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ لَنَا هَجَانَا

فالأجدر بالناس أن ينقبوا في أنفسهم عن أسباب ما بهم من ضنك الحال، بدلاً من أن ينأوا بها عنهم، مستسهلين قذف الزمان بها.

تقلب الزمان:

حدثتنا الآثار الشرعية عن تقلبات تحدث عبر الزمان، فتوعد الله الظالمين بيوم تشخص فيه الأبصار، بقوله سبحانه: {وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ} (إبراهيم:42)

وأشار سبحانه وتعالى إلى تقلب الزمان بالإنسان في ثلاثة أيام، تشهد أحداثاً فاصلة بالنسبة إلى الإنسان، فذكر الولادة والموت والبعث، فقال تعالى:{وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً } (مريم:15)

وتتبدل الأحوال بالناس عبر الزمان، ومن ذلك ما أشار إليه النبي، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (تَصَدَّقُوا، فَسَيَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ، يَمْشِي الرَّجُلُ بِصَدَقَتِهِ، فَيَقُولُ الرَّجُلُ: لَوْ جِئْتَ بِهَا بِالْأَمْسِ لَقَبِلْتُهَا مِنْكَ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهَا)(*)

* صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين.

ومن صور تبدل الأحوال عبر الزمان، ما ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، عَنْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (يَأْتِي زَمَانٌ يَغْزُو فِئَامٌ مِنْ النَّاسِ، فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ، فَيُقَالُ: فِيكُمْ مَنْ صَحِبَ صَاحِبَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيُقَالُ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ[1])[2]

من أخبار آخر الزمان:

أخبار آخر الزمان كثيرة، منها ما ورد في الحديث الشريف الذي يرويه أبو هُرَيْرَةَ، قَالَ: قال رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنْ النُّبُوَّةِ، وَمَا كَانَ مِنْ النُّبُوَّةِ فَإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ) [3]

وورد خبر آخر من أخبار آخر الزمان في الحديث الشريف الذي يرويه أَنس، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: (لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَا يُحَدِّثُكُمْ بِهِ أَحَدٌ غَيْرِي، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيَكْثُرَ الْجَهْلُ، وَيَكْثُرَ الزِّنَا، وَيَكْثُرَ شُرْبُ الْخَمْرِ، وَيَقِلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ، حَتَّى يَكُونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً الْقَيِّمُ الْوَاحِدُ[4])[5]

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: (قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قَالُوا: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: الْقَتْلُ الْقَتْلُ)[6]

من أوصاف الناس آخر الزمان، ما ورد في حديث عَلِيّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، حيث قال: (سَمِعْتُ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ: يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ، سُفَهَاءُ

1. بكسر الفاء، ويجوز فتحها أي جماعة.
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.
3. صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب القيد في المنام.
4. الْقَيِّم الْوَاحِد: أَيْ الَّذِي يَقُوم بِأُمُورِهِنَّ، وَيَحْتَمِل أَنْ يُكَنَّى بِهِ عَنْ اتِّبَاعهنَّ لَهُ لِطَلَبِ النِّكَاح حَلَالًا أَوْ حَرَامًا.
5. صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء.
6. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل.

الْأَحْلَام، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنْ الْإِسْلَام كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنْ الرَّمِيَّةِ، لا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[1]

وعن أبي سعيد وجابر بن عبد الله، قالا: (قَالَ رَسُولُ الله، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ خَلِيفَةٌ يَقْسِمُ الْمَالَ، وَلَا يَعُدُّهُ)[2]

ومعنى الحذر من عواقب الزمان:

بين القرآن الكريم في معرض التحذير، أن تغيرات ستحدث في نظام الكون آخر الزمان، وسوف تنقلب المعايير عند حدوثها، من ذلك ما تضمنه قوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} (إبراهيم:48)

ويأمرنا الله أن نتجهز بالتقوى وحسن العمل استعداداً ليوم الحساب، الذي تتعطل فيه الوساطات، فيقول سبحانه وتعالى: {وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ} (البقرة:48)

وإنفاق المرء في سبيل الله ينفعه حين ينقلب الزمان، وتتبدل المعايير والأوزان، قال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (البقرة:254)

والإيمان هو أساس الأعمال التي نتحصن بها ليوم تقلب الزمان، فيقول الله تعالى:{... يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} (الأنعام:158)

ومما جاءت به النصوص، وأكده الواقع المشاهد والمحسوس، أن تقلب الزمان بالمرء قد يقوده إلى خير أو شر، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، (إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَنَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ)[3]

1. صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به.
2. صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء.
3. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، وكتابة رزقه، وأجله وعمله وشقاوته وسعادته

مما يستدعي من المرء إبداء الحرص الدائم، واليقظة الدؤوبة، ليبقى على الصراط السوي، ومحصناً لتقلب الزمان، وحذراً من الوقوع في المزالق.

خاتمة

فهذه بعض الدلالات والمؤشرات القرآنية والنبوية، ذات الصلة بالزمان وأحواله، تم التذكير بها هنا، بهدف التأكيد على أن الزمان يدور في فلك مقدر، ومراقب، من مُقدِّر الأقدار سبحانه وتعالى، وكما قيل: (دوام الحال من المحال). وهذا يتوافق مع مفهوم قوله تعالى: {وتلك الأيام نداولها بين الناس } (آل عمران: 140)، ويوافقه أيضاً قول: الأيام دول؛ يوم لك، ويوم عليك.

وبما أن أمة الإسلام تقع في دائرة الزمان المقدر، مثلها في ذلك مثل بقية الأمم، وعلى الرغم مما بها من جراح ومصاب، فإنه يجدر بها أن تحافظ على رباطة الجأش، وأن تُبقي الأمل بنصر الله نصب عينيها، وهو قريب إن شاء الله، ويجب أن نراه كذلك حتى في أحلك الظروف، وأصعب الأوضاع، قال تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ} (البقرة: 214)

وأكد الله تعالى هذا الوعد في صورة الصف، فقال تعالى: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (الصف: 13)

واستجلاب النصر القريب، يقتضي الأخذ بالأسباب، والتوكل على الله، والتقوى أساس في ذلك، يقول الله تعالى: {... وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ} (البقرة: 223)

عسى الله أن يعجل بيوم نصر الإسلام والمسلمين، وأن يثبتنا على صراطه المستقيم، وأن يحفظنا من أن نزيغ عن هداه، وأن يلهمنا دوام الشكر على سراء الأيام، والصبر على ضرائها، وذلك من شيم الكرام الأخيار، جعلنا الله والقارئ الكريم منهم.

إلا تنصروه فقد نصره الله

يرتبط حدث الهجرة بالإسلام من مكة إلى المدينة المنورة بقضايا كثيرة، من أبرزها قضية الاعتقاد واليقين بنصر الله المؤكد لدينه الحق، وحملته المؤمنين، وقد أكد الله هذه الحقيقة الإيمانية، فقال تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة: 40)

فالنصر الذي أيد الله به دينه ونبيه والمؤمنين، في كثير من المواقع والأحداث نصر رباني بامتياز، وتأخذنا الآية الكريمة إلى غار ثور الذي شهد الدليل على نصر الله، ويقين النبي، صلى الله عليه وسلم، به، فلما اختبأ وصاحبه أبو بكر فيه، وصل المضطهدون الملاحقون بابه وهما في جوفه، فمن الذي أعمى أبصارهم عنهما؟ ومن الذي أسبل السكينة على الرسول، صلى الله عليه وسلم، ليحافظ على رباطة جأشه؟ إنه الله سبحانه وتعالى ناصر المؤمنين في كل حين، ولكن بعضهم يستعجلون، والآية الكريمة أجملت القضية بالرد على المتقاعسين عن نصرة الدين ورسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم، وهذا الإجمال متضمن في قوله تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ...}.

وقد عني أهل التفسير بالوقوف عند الدلائل العديدة التي أبرزتها الآية الكريمة، فيما يخص قضية الهجرة من مكة إلى المدينة، ومن تلك الدلائل:

* إن الهجرة لم تكن تطوعية، وإنما كانت قسرية قهرية، بدليل نسبة فعلها إلى الكافرين، {... إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ...}، فلم تكن مجرد تفضيل للرحيل من مكان مضطرب إلى آخر

يتوافر فيه رغد العيش، وطيب الإقامة، وإنما كانت محصلة لمجمل أفعال الكافرين ضد نشر رسالة الحق، والإنقاذ الرباني للبشرية، ويشهد لمعنى القهر على الهجرة، آيات قرآنية عديدة، منها، قوله تعالى: {الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا...}(الحج : 40)

ويقول سبحانه وتعالى: {لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }(الحشر : 8)

ويقول جل شأنه: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ}(محمد : 13)

فالإبعاد القسري عن الأوطان والديار والمساكن سنة من سنن الظالمين في الأمم السابقة واللاحقة، فقوم محمد، صلى الله عليه وسلم، أخرجوه من بلده، وكذلك فعل أقوام أسلافه الذين سجل الله مواقفهم، ومنها موقف قوم لوط، فقال تعالى:{وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}(الأعراف : 82)

بل إن الله تعالى جعل الهجرة بالدين مطلباً شرعياً في بعض الظروف القهرية، فيرد الله التعذر بالاستضعاف عن القيام بواجبات الدين ومتطلباته، فيقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا فَأُوْلَـئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصِيراً}(النساء : 97)

وقد جعل الله جريمة قهر المؤمنين على هجرة أوطانهم فيصلاً في معادلة قبول الآخر، أو رفضه، فيقول تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}(الممتحنة: 8-9)

* التذكير بما حصل في الغار خلال رحلة الهجرة النبوية، {... ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ

{إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا...} فهذا المقطع من الآية الكريمة يخفي وراءه تفاصيل الحالة السائدة في تلك اللحظة، وفي ذلك المكان، وبين شخوص الحدث، لكنه يعبر بكل دقة عن عمق الإيمان بقدرة الله، واليقين بنصر الله لدينه ورسالته ورسوله والمؤمنين.

* يمكن تصور الحالة النفسية لمطاردين وصل المتابعون لهما باب حجرتهما، إنهما بالتأكيد في أمس الحاجة للطمأنة، وتثبيت الفؤاد، في تلك الساعة الحرجة، فتسارعت إليهما المعونة الربانية، التي عبر عنها القرآن الكريم، في قوله تعالى: {...فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ...}، فصور الله السكينة، وهي حالة نفسية تُستشعر، أكثر منها قضية مادية تُلمس بالأيدي، أو تُشاهد بالعيون، صورها الله وكأنها أمرٌ ملموسٌ مُشاهدٌ للعيان، يتنزل بأمره وقضائه على قلب رسوله، صلى الله عليه وسلم، ونفسه، مما جعل منه شخصاً مميزاً، غير آبه بالمحاصرين المتعقبين، بل راح يطمئن صاحبه، ويهدئ من روعه، في تلك الساعة الحاسمة الفاصلة، قائلاً له بكل يقين، {...إِنَّ اللهَ مَعَنَا...} ومن اللافت للنظر أن السكينة نزلت على الفور، بدليل استخدام حرف الفاء في صدر حروف فعل الإنزال.

* لم يقتصر العون على السكينة، بل شمل صوراً فاعلة أخرى، أجملها الله بقوله تعالى: {...وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(التوبة : 40)

والملاحظ أن هذا اللون من التأييد ذكر مجملاً شاملاً، لكن بأقل الألفاظ، وفي صيغ نكرة غير محصورة بمعرف من ألوان التأييد، فالجنود والكلمة يحتملان كثيراً من التفاصيل والأشكال والصور، فالملائكة، والعنكبوت، والحمامة، والطير، وعامر بن فهيرة، وابن أريقط، وسراقة ابن مالك، وغير ذلك من جند الله يسخرهم الله عبر الزمان والمكان، وقت شاء، وكيف شاء، لنصرة الحق وأتباعه، على غير توقع من الخلق في كثير من الأحيان، فيأتي المدد من حيث لا يحتسبون.

وكذلك الكلمة، فهي تشمل الإيمان، والحق، والخير في جانب، وتشمل الكفر، والباطل،

والشر في الجانب المقابل، فالله في عقيدة المؤمن قادر على أن يجيء بكلمة الحق، وإزهاق كلمة الباطل، مصداقاً لقوله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً } (الإسراء: 81)

وقوله سبحانه وتعالى: {لَقَدِ ابْتَغَوُاْ الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاء الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ}(التوبة : 48)، وقوله تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}(سبأ : 49)

بل إن الله تعالى تحدى ضعاف الإيمان وفاقديه، الذين تساورهم الشكوك والظنون بحتمية نصر الله لدينه وحقه ورسله والمؤمنين، فقال تعالى:{مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ} (الحج : 15)

قيل: معناه إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن خلاف ذلك، ويتوقعه من غيظه، أو جزعه، فليستقص في إزالة غيظه أو جزعه، بأن يفعل كما يفعله الممتلئ غضباً، أو المبالغ جزعاً، حتى يمد حبلاً إلى سماء بيته، فيختنق من قطع إذا اختنق، فإن المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه، أو فليمدد حبلاً إلى سماء الدنيا، ثم ليقطع به المسافة حتى يبلغ عنانه، فيجتهد في دفع نصره.

وقيل المراد بالنصر الرزق، والضمير لمن...؟

والظن في كتاب الله على وجهين؛ ظن يقين، وظن شك، فهذا ظن شك، قال: من شك أن الله عز وجل لم ينصر رسوله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء، أي يجعل بينه وبين الله دليلاً. وقال: ثم ليقطع؛ أي يميز، فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ؛ أي حيلته.(*)

أما صادقو الإيمان؛ فإنهم ينصرون الله في إيمانهم، وحسن طاعتهم له، وصبرهم على ذلك، ابتغاء مرضاة الله، فيجدون الله معهم ناصرهم ومعينهم ومؤيدهم ومفرج كربهم، وفي هذا

* عن موقع، تفسير الصافي، 3/ 361 - 380.

يقول سبحانه وتعالى: { لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ }(الحشر : 8)

فالعبرة في الهجرة للمقاصد والنوايا، فإن كانت ابتغاء مرضاة الله، وعملاً لنصرة دينه، فأصحابها هم الصادقون، وقد جعل الله هذا المعيار أساساً رئيساً في امتحان المهاجرات، فقال تعالى: {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا إِذا جاءكُمُ الْمُؤْمِناتُ مُهاجِراتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِناتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلا جُناحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوافِرِ وَاسْأَلُوا ما أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا ما أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}(الممتحنة : 10)

والمؤمنون الصادقون الذين هاجروا ابتغاء رضوان ربهم، ونصروا دينهم بحق، ولم يثنهم عن ذلك شدة المحن، ولا عظيم المنح، فإنهم –والحال كذلك- ينتظرون نصر الله في الدنيا، ورضوانه في الآخرة، وقد وعدهم الله بذلك، ولن يخلف الله عهده، وهم على يقين بموعدهم مع نصر الله، مهما اشتدت الخطوب بهم، والله تعالى سجل الموقف الإيماني للمؤمنين من قضية النصر، ومآل ذلك الموقف، فعلى لسان المؤمنين يقول تعالى: {رَّبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصارٍ* رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأبْرَارِ* رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ* فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللهِ وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ* لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ* مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ* لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللهِ وَمَا عِندَ اللهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ}(آل عمران : 192 - 198)

وفي الآية المائة من سورتي النساء والتوبة بين الله مكانة المهاجرين في سبيله، فقال تعالى في سورة النساء: {وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً}(النساء : 100)

وفي سورة التوبة يقول سبحانه وتعالى: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}(التوبة : 100)

والمؤمن على يقين أن الله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو سبحانه قادر أن يهلك الظالمين في كل مكان وحين، فيقول جلت قدرته: {وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ }(محمد : 13)

ووعد الله التوبة للذين ينصرون دينه، سواء بالهجرة في سبيله، أم بإيواء المهاجرين، فقال تعالى: {لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}(التوبة : 117)

ووعد من ينصر دينه بالنصر والتمكين، فقال تعالى:{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}(الحج : 40)

جعلنا الله ممن يؤمن بالله، وينصر دينه، ويهاجر في سبيله، ويسعى ليموت على ذلك، راضياً مرضياً، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين.

انتصار إرادة المؤمنين بعقيدتهم وحقوقهم المشروعة

إن أصحاب الإرادة المؤمنين بعقيدة لا إله إلا الله، الواحد الأحد، الفرد الصمد، والمؤمنين بحقهم في الحياة الكريمة، وبحق مبادئهم في الوجود والبقاء، والصابرين في سبيل ربهم، محتسبين أجره وثوابه، ومنتظرين نصره المؤزر، هم أصحاب العزائم القوية، الذين يحملون قضاياهم المصيرية بعزم وشجاعة وثبات، مستأنسين بتربيتهم الإيمانية، وبثقافتهم الإيجابية، التي يجدون فيها من يحثهم على العزيمة، قائلاً:

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكُن ذا عَزِيمَةٍ ... فإنَّ فسادَ الرَّأْيِ أنْ تَتَرَدَّدا

ومدرسة الإسلام غنية بثروة توطيد العقيدة، وتوثيق عرى الإرادة لدى المؤمنين والمسلمين، فالله تعالى يخاطب نبيه الكريم، صلى الله عليه وسلم، قائلاً: {...وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران:159)

وورد في صحيح البخاري، بَاب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ} {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} وَأَنَّ الْمُشَاوَرَةَ قبل الْعَزْمِ وَالتَّبَيُّنِ، لِقَوْلِهِ {فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ على اللهِ} (فإذا عَزَمَ الرَّسُولُ، صلى الله عليه وسلم، لم يَكُنْ لِبَشَرٍ التَّقَدُّمُ على اللهِ وَرَسُولِهِ، وَشَاوَرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَصْحَابَهُ يوم أُحُدٍ في الْمُقَامِ وَالْخُرُوجِ، فَرَأَوْا له الْخُرُوجَ، فلما لَبِسَ لَأْمَتَهُ وَعَزَمَ، قالوا: أَقِمْ فلم يَمِلْ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْعَزْمِ، وقال: لَا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ يَلْبَسُ لَأْمَتَهُ، فَيَضَعُهَا حتى يَحْكُمَ الله).(*)

وعلى أيدي أصحاب العزائم بقيت مبادئ الرسل، وانتشرت في ربوع الدنيا الأديان السماوية، وخاتمها الإسلام، رغم كيد المعتدين ومكرهم، وقوة بطشهم، حيث أعلنها الله حرباً ضروساً على الذين يكيدون المكر لأصحاب الإرادات المؤمنة، وما يحملون من حق ومبادئ، فقال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً* وَأَكِيدُ كَيْداً* فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً}.(الطارق : 15 - 17).

والذين يكيدون المكر للحق هم الأخسرون، مصداقاً لقوله تعالى: {وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً

* صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}.(الشورى: 38)...

فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ}(الأنبياء: 70)، وهم الأسفلون، لقوله تعالى: {فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ}(الصافات: 98)، وهم المكيدون في المجمل، على طريقة الجزاء من جنس العمل، كما ورد في قوله تعالى: {أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ}.(الطور: 42).

خضر عدنان وهناء شلبي شاهدان للإرادة المؤمنة بالحق المشروع:

من الشواهد المعاصرة للإرادة التي نحسبها مؤمنة صابرة محتسبة، تلك التي مثلها الأسيران خضر عدنان وهناء شلبي، اللذان أعلنا رفضهما الاستسلام لظلام السجن، مستخدمين ما توافر لديهما من إمكانات الضغط على سجّانيهما، فمارسا الكف عن تناول الطعام، تعبيراً عن إنكارهما لظلم الأحكام الإدارية، التي طال تجرع مرارتها، وعانى من قسوة ظلمها عدد لا يستهان به من أبناء شعبنا الصابر المرابط، غير أن خضر عدنان وهناء شلبي، بصبرهما وجلدهما، وقوة عزيمتهما، وإرادتهما المؤمنة بحقهما في نيل الحرية، استطاعا أن يسجلا موقفاً مشرفاً في إعلان رفض الانصياع لأوامر تجديد الاعتقال الإداري، وعملا ببطولتهما هذه حراكاً محلياً وعربياً وعالمياً، حتى في أوساط قوم سجانيهما، وتوِّج صمود خضر عدنان الأسطوري، بقطف ثمار عديدة، كان منها رضوخ مؤسسات السجّان إلى وقف مسلسل تجديد الاعتقال الإداري ضده، ومنها إثارة قضية هذا النوع من الاعتقالات على العديد من الأصعدة، عسى أن تستثمر هذه الإثارة لوضع حد قاطع لهذه الظاهرة، التي يحكمها المزاج والتجبر والظلم، تحت ستار القانون ومظلته.

ولا تقف شواهد الإرادة المؤمنة عند هذا الموقف الفذ، بل إن لدى شعبنا الصابر المرابط بشيبه وشبانه، ورجاله ونسائه، وصغاره وكباره، كثيراً من المواقف على هذا الصعيد، التي يمثل جانباً مهماً منها أسرانا البواسل، الذين دفعوا حريتهم، ومتاع دنياهم، والتواصل مع أحبابهم وأهليهم وأبنائهم، ثمناً مشرفاً لقضيتهم وأرضهم ومقدساتهم وكرامتهم، فحق لهم وللشهداء أن يكونوا الأكرم منا جميعاً، وأن يبقوا دوماً محل اعتزازنا وفخرنا، ومحط اهتمامنا وتكريمنا، لنكون وإياهم على درب من قال الله فيهم: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}(الأحزاب: 23)، والذين أثنى

عليهم رب العالمين بقوله سبحانه وتعالى: {..وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}.(البقرة: 177)

وقد يكون من حسن المقام هنا استذكار أبيات شعرية لعنترة بن شداد العبسي، عساها تعبر عن بعض حال المناضل خضر عدنان وهناء شلبي وإخوانهما الأسرى، وهم يواجهون ظلام السجن، وقسوة السجان وبطشه، بإرادة أقوى من الفولاذ، فيقول عنترة:

حَكِّم سُيوفَكَ في رِقابِ العُذَّلِ ... وَإِذا نَزَلتَ بِدارِ ذُلٍّ فارحَـــلِ

وَإِذا الجَبانُ نَهاكَ يَومَ كَـريهَةٍ ... خَوفاً عَلَيكَ مِنَ اِزدِحامِ الجَحفَلِ

فَاعصِ مَقالَتَهُ وَلا تَحفِل بِـهـا ... وَاقـدِم إِذا حَـقَّ اللِقا في الأَوَّلِ

وَاختَر لِنَفسِكَ مَنزِلاً تَعلو بِهِ ... أَو مُت كَريماً تَحتَ ظِلِّ القَسطَلِ

فَالمَوتُ لا يُنجيكَ مِن آفـاتِهِ ... حِـصنٌ وَلَـو شَيَّدتَهُ بِالجَنـدَلِ

مَوتُ الفَتى في عِزَّةٍ خَيرٌ لَـهُ ... مِن أَن يَبيتَ أَسيرَ طَرفٍ أَكحَلِ

إِن كُنتُ في عَدَدِ العَبيدِ فَهِمَّتي ... فَوقَ الثُرَيّا وَالسِماكِ الأَعـزَلِ

يا نازِلينَ عَلى الحِمى وَدِيـارِهِ ... هَـلّا رَأَيتُم في الـدِيارِ تَقَلقُلي

قَد طالَ عِزُّكُم وَذُلّي في الهَوى ... وَمِنَ العَجائِبِ عِزُّكُم وَتَذَلُّلي

لا تَسقِني مـاءَ الحَـياةِ بِذِلَّةٍ ... بَل فَاسقِني بِالعِزِّ كَأسَ الحَنظَلِ

أصحاب الإرادة المؤمنة يأبون الاستسلام للوهن والأحزان:

إن المؤمن الذي يتربى على موائد الصبر والمصابرة والمرابطة، يأبى الخنوع والاستسلام لظروف قاهرة، أو لأحوال قاسية، مستهدياً بفحوى قوله تعالى: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}(آل عمران: 139)، وبقوله تعالى: {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً}.(النساء: 104)

فصاحب هذه الإرادة يوقن بأنه في صبره ومرابطته يرجو أن يحظى بنصر من عند الله قريب، إيماناً بوعد الله، حيث يقول سبحانه وتعالى: {إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن

يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}(آل عمران: 160)، ويقول تعالى: {وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}.(المائدة: 56)

وفوق هذا وذاك، فإن صاحب الإرادة الصادقة يؤمن بأن الله سيشكر سعيه، ويجزيه مثوبته، مصداقاً لقوله تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً}. (الإسراء: 19)

بينما أصحاب الإرادة الطاغية العاصية يرعبهم وعيد الله، إذ يقول سبحانه وتعالى:{وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}.(الزخرف: 36)

ومثلهم أصحاب الإرادة المخادعة، الذين قال الله في أمثالهم: {وَلَوْ أَرَادُواْ الْخُرُوجَ لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً وَلَـكِن كَرِهَ اللّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ}.(التوبة: 46)

فما أروع أن يكون المرء من جند الله الأوفياء، الصابرين في الضراء، الشاكرين في السراء، الذين جزم الله بنصرهم، فقال سبحانه وتعالى: {وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}(الصافات: 173)، فالغلبة لجند الله الأوفياء، بإذن الله وعونه، شاء من شاء، وأبى من أبى، مصداقاً لوعد الرسول، صلى الله عليه وسلم، لصحابته الذين جاؤوه يشكون قسوة المحن، وضغط الظروف القاهرة وصعوبتها، كما جاء في الحديث الصحيح عن خَبَّابِ بن الأَرَتِّ قال: (شَكَوْنَا إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا له: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا؟! ألا تَدْعُو اللهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ على رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ ما دُونَ لَحْمِهِ من عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأَمْرَ حتى يَسِيرَ الرَّاكِبُ من صَنْعَاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إلا اللهَ أو الذِّئْبَ على غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ)(*)، فقد عبر صلى الله عليه وسلم في رده على هذه الشكوى عن عزيمته الصلبة، وإرادته المؤمنة، وعن يقينه بانتصار حقه ودينه، مهما بلغ ظلام الليل ودلسه، وفي حتمية الفرج، وانبلاج الصبح، قال الشاعر:

ولا بُدَّ لليلِ أن ينجليْ   ولابُدَّ للقيدِ أن ينكسرْ

* صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

والشاعر الفلسطيني العنبتاوي عبد الرحيم محمود، نظم قصيدته (الشهيد)، وكان عمره حوالي أربعة وعشرين عامًا، عبر فيها عن الإرادة الصلبة للمواطن الفلسطيني الأبي، من خلال تصَوِّره الشهيد، كما يتمنّاه، فقال:

سأحمل روحـــي على راحتي | وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حـــياةٌ تســـرُّ الصـــديق | وإما ممـــاتٌ يغيظ العدا
ونفس الشـــريف لها غـايتان | ورودُ المنـــايا ونيـلُ المنى
لعمـرُك إنـــي أرى مصرعي | ولكـن أَغُـذُّ إلـيـه الخطى
أرى مقتلي دون حقي السليب | ودون بلادي هــو المُبتــغى
لَعَمْرُكَ هذا ممـــاتُ الرجـــال | ومن رَامَ موتـاً شـريفاً فَذَا

أصحاب الإرادة المؤمنة يرفضون مداهنة الباطل:

خير ما يذكر من شواهد على رفض مداهنة الباطل من أصحاب العزائم الصادقة المنافحة عن نقاء مبادئها، وصفاء سريرتها، ما جاء في القرآن الكريم، من إعلانات عن هذا الرفض، الذي تمثله سورة (الكافرون) بتأكيدها رفض المساومة على المبدأ، فقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ* وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ* لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}.(سورة الكافرون)

ونهى الله نبيه المصطفى، صلى الله عليه وسلم، عن مداهنة فريق الباطل في سياق إخباره سبحانه عن رغبتهم في نيل مداهنته وحرصهم عليها، فقال تعالى: {فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ* وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ}.(القلم: 8 - 9)

وأصحاب الإرادة المؤمنة لا يخشون جبروت الباطل، ولا يرتعشون من أراجيفه، لأنهم على ربهم يتوكلون، وبه يؤمنون، وفي أسلافهم قال رب البرية سبحانه وتعالى: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}.

(آل عمران: 173)

ومن أهم ما تجب مراجعته عند تشخيص حال الأمة جراء ما تعانيه من هزائم وخوار، هو فحص وضع إرادتها؛ إذ إن الخلل فيها يؤدي إلى اضطراب حالها، واستئساد الجبان عليها،

فعن ثَوْبَانَ، قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كما تَدَاعَى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، فقال قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قال: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ الله من صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ الله في قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ، فقال قَائِلٌ: يا رَسُولَ اللهِ؛ وما الْوَهْنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ).[1]

مشهد من سيرة الصحابة يعبر عن الإرادة المؤمنة وتضحيات أصحابها ونصرتهم:

عن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال: (بَعَثَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، عَشَرَةَ رَهْطٍ سَرِيَّةً عَيْنًا، وَأَمَّرَ عليهم عَاصِمَ بن ثَابِتٍ الأَنْصَارِيَّ جَدَّ عَاصِمَ بن عُمَرَ، فَانْطَلَقُوا حتى إذا كَانُوا بِالْهَدَأَةِ، وهو بين عُسْفَانَ وَمَكَّةَ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ من هُذَيْلٍ، يُقَالُ لهم بَنُو لَحْيَانَ، فَنَفَرُوا لهم قَرِيبًا من مِائَتَيْ رَجُلٍ كلهم رَامٍ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ حتى وَجَدُوا مَأْكَلَهُمْ تَمْراً تَزَوَّدُوهُ من الْمَدِينَةِ، فَقَالُوا: هذا تَمْرُ يَثْرِبَ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ، فلما رَآهُمْ عَاصِمٌ وَأَصْحَابُهُ، لجؤوا إلى فَدْفَدٍ[2]، وَأَحَاطَ بِهِمْ الْقَوْمُ، فَقَالُوا لهم: انْزِلُوا وَأَعْطُونَا بِأَيْدِيكُمْ، وَلَكُمْ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ، ولا نَقْتُلُ مِنْكُمْ أَحَدًا، قال عَاصِمُ بن ثَابِتٍ أَمِيرُ السَّرِيَّةِ، **أَمَّا أنا فَوَاللهِ لا أَنْزِلُ الْيَوْمَ في ذِمَّةِ كَافِرٍ، اللهم أَخْبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ**، فَرَمَوْهُمْ بِالنَّبْلِ، فَقَتَلُوا عَاصِماً في سَبْعَةٍ، فَنَزَلَ إِلَيْهِمْ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ بِالْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ، منهم خُبَيْبٌ الأَنْصَارِيُّ وابن دَثِنَةَ وَرَجُلٌ آخَرُ، فلما اسْتَمْكَنُوا منهم، أَطْلَقُوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ، فَأَوْثَقُوهُمْ، فقال الرَّجُلُ الثَّالِثُ: **هذا أَوَّلُ الْغَدْرِ، والله لا أَصْحَبُكُمْ، إِنَّ في هَؤُلَاءِ لَأُسْوَةً يُرِيدُ الْقَتْلَى، فَجَرَّرُوهُ، وَعَالَجُوهُ على أَنْ يَصْحَبَهُمْ**، فَأَبَى، فَقَتَلُوهُ، فَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبٍ وابن دَثِنَةَ حتى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ بَعْدَ وقعة بَدْرٍ، فَابْتَاعَ خُبَيْباً بَنُو الْحَارِثِ بن عَامِرِ بن نَوْفَلِ بن عبد مَنَافٍ، وكان خُبَيْبٌ هو قَتَلَ الْحَارِثَ بن عَامِرٍ يوم بَدْرٍ، فَلَبِثَ خُبَيْبٌ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا، فَأَخْبَرَنِي عُبَيْدُ اللهِ بن عِيَاضٍ أَنَّ بِنْتَ الْحَارِثِ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُمْ حين اجْتَمَعُوا اسْتَعَارَ منها مُوسَى يَسْتَحِدُّ بها، فَأَعَارَتْهُ، فَأَخَذَ ابْنًا لي، وأنا غَافِلَةٌ، حين أَتَاهُ، قالت: فَوَجَدْتُهُ مُجْلِسَهُ على فَخِذِهِ، وَالْمُوسَى بيده، فَفَزِعْتُ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيْبٌ في وَجْهِي، فقال: تَخْشَيْنَ أَنْ أَقْتُلَهُ ما كنت لِأَفْعَلَ ذلك، والله

1. سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، وصححه الألباني.
2. فدفد: بِفَاءَيْنِ مَفْتُوحَتَيْنِ وَمُهْمَلَتَيْنِ، الأُولَى سَاكِنَة، وَهِيَ الرَّابِيَة الْمُشْرِفَة، قَالَ ابْن الأَثِير: هُوَ الْمَوْضِع الْمُرْتَفِع، وَيُقَال: الأَرْض الْمُسْتَوِيَة. وَالأَوَّلُ أَصَحُّ. (فتح الباري، 11/ 420).

ما رأيت أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا من خُبَيْبٍ، **والله لقد وَجَدْتُهُ يَوْمًا يَأْكُل من قِطْف عِنَبٍ في يَدِه، وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ في الْحَدِيد، وما بِمَكَّة من ثَمَرٍ، وَكَانَتْ تَقُولُ: إنه لَرِزْقٌ من اللهِ رَزَقَهُ خُبَيْبًا، فلما خَرجُوا من الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ في الْحِلِّ، قال لهم خُبَيْبٌ: ذَرُونِي أَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ، فَتَرَكُوهُ، فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قال: لو لا أَنْ تَظُنُّوا أَنَّ ما بِي جَزَعٌ لَطَوَّلْتُهَا، اللهم أَحْصِهِمْ عَدَدًا.**

وما أُبَالِي حين أُقْتَلُ مُسْلِمًا على أَيِّ شِقٍّ كان لِلهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ في ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ على أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

فَقَتَلَهُ ابن الْحَارِثِ، فَكَانَ خُبَيْبٌ هو سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ لِكُلِّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا، **فَاسْتَجَابَ اللهُ لِعَاصِمِ بن ثَابِتٍ يوم أُصِيبَ**، فَأَخْبَرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ، وما أُصِيبُوا، **وَبَعَثَ نَاسٌ من كُفَّارِ قُرَيْشٍ إلى عَاصِمٍ، حين حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتِلَ، لِيُؤْتَوْا بِشَيْءٍ منه يُعْرَفُ، وكان قد قَتَلَ رَجُلاً من عُظَمَائِهِمْ يوم بَدْرٍ، فَبُعِثَ على عَاصِمٍ مِثْلُ الظُّلَّةِ من الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ من رَسُولِهِمْ، فلم يَقْدِرُوا على أَنْ يقطعوا من لَحْمِهِ شيئاً).**(*)

فهذا المشهد يتضمن دلالات على الإرادة المؤمنة، وما يقدم أصحابها من تضحيات بسبب التشبث بها، وما يلقون في المقابل من عون إلهي، ومدد رباني، ومن مواطن تلك الدلالات المتضمنة في هذا المشهد ما يأتي:

* إصرار قائد المجموعة (أمير السرية) على رفض النزول في ذمة كافر، وهو يعلم باحتمال تصفيته جسدياً من قبلهم، بدليل أنه دعا الله أن يبلغ خبرهم لنبيه، صلى الله عليه وسلم.

* رفض الأسير الثالث مطاوعة آسريه، متحدياً رغبتهم ليصحبهم، وتهديدهم بقتله، حتى قتلوه.

* ثناء بنت الحارث على أخلاق الصحابي الأسير خبيب الأنصاري، وحسن سلوكه، وهو في أسر قومها، وشهادتها بمشاهدته يأكل من قطف عنب، وهو موثوق في الحديد، وما بمكة تمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيباً.

* صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسر ومن ركع ركعتين عند القتل.

* طلب الصحابي خبيب السماح له بأن يصلي ركعتين قبل إعدامه، ولم يطل فيهما مخافة أن يظنوا أنه يصنع ذلك جزّعاً.

* دعاء خبيب على أعدائه وهو يواجه مصيره المحتوم على أيديهم، بأن يحصيهم الله عدداً، وإنشاده بيتين أصبح يرددهما المسلمون عبر الزمان ومختلف الأجيال والمستويات والمناسبات.

* استجابة الله دعاء عاصم – أمير السرية– فأخبر الله النبي، صلى الله عليه وسلم، بخبرهم.

* حفظ الله جثمان الشهيد عاصم بن ثابت الأنصاري، فبعث عليه مثل الظُلة من الدُبر، فحمته من كفار قريش، الذين سعوا للحصول على شيء منه يعرف، بعد أن عرفوا أنه قُتل، فحماه الله ممن أوفدهم كفار قريش لتحقيق غايتهم، فلم يقدروا أن يقطعوا من لحمه شيئاً.

فهذا مشهد يؤكد بدلالاته ووقعه، على مكانة الإرادة المؤمنة، التي تمثلت في مواقف هذا النفر من صحابة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأقوالهم، وما حباهم الله به من تكريم وحفظ، سواء بنيل الشهادة، أم باستجابة دعائهم، وحفظ جثامينهم، أم بما نالوا من نِعمٍ خلال أسرهم، وخيرات، وشهادة عدوهم بحسن سلوكهم، وكرم أخلاقهم.

عسى أن يكون في تدبر هذا المشهد ودلالاته إيناساً للقابضين على جمر الصبر، الذين يحتسبون ثواب إصرارهم على حمل مبادئهم، وتمثل أحكام ربهم، وهم يواجهون قسوة المحن، وظلم البشر، بإرادة مؤمنين بعقيدتهم، وحقوقهم المشروعة، أبيّون على الخنوع والخضوع إلا لربهم الذي خلقهم.

هدانا الله لنكون من أصحاب الإرادة المؤمنة، بحتمية انتصار حقنا على باطل أعدائنا، بعون ربنا صاحب الإرادة الأقوى، والقدرة الأعظم، التي يمثلها قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}(يس: 82)، وقوله جل شأنه:{سَيَعْلَمُونَ غَداً مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ}(القمر: 26)، وقوله عز وجل:{... إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} (هود: 81)، وقوله جلت قدرته:{...قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ}. (الأنعام: 158)

دلالات إيمانية لـمقولة (ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّه ثَالِثُهُمَا)

خلال رحلة هجرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصاحبه الصديق، رضي الله عنه، من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، أرسلت قريش في طلبهما، وعينت جائزة لمن يأتيها بالرسول، صلى الله عليه وسلم، فلحق بهما رجال منها، طمعاً في القبض عليهما، وحصل أن دخلا غار ثور، ووصل ملاحقوهما إلى باب الغار، فبدت على أبي بكر آثار التحسب من عواقب هذا الحصار، عن أبي بَكْرٍ، رضي الله عنه، قال: (كنت مع النبي، صلى الله عليه وسلم، في الْغَارِ، فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ، قلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ لو أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا، قال: ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا). (*)

فردُّ الرسول، صلى الله عليه وسلم، على تخوف صاحبه أبي بكر، رضي الله عنه، بقوله: (ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ الله ثَالِثُهُمَا)، ينم عن عمق إيمانه صلى الله عليه وسلم بربه، وقوة توكله عليه سبحانه وتعالى، مع أخذه بأسباب النجاة والنجاح، وفي الآيات القرآنية التي تضمنت وصف ما جرى في هذا المقطع من رحلة الهجرة، ما يدل بوضوح على عمق يقينه صلى الله عليه وسلم، فيقول سبحانه وتعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}. (التوبة: 40)

فيا له من موقف! يوحي بالدروس والعبر لمن أراد الاستزادة من الإيمان، والتمكن من التسلح بالعزيمة ورباطة الجأش في مواجهة الخطوب والمحن والابتلاءات، فإذا كانت الرعاية

* صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة براءة، باب قوله {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا}(التوبة: 40).

الربانية تحف المرء، فما عليه من بأس، وإذا كانت عين الله ترعاه، فما عليه من خوف، وإذا كان المرء مع الله، فإنه يستسهل الصعاب، ويصبر على تداعياتها، مستعيناً بالصبر والصلاة، عملاً بهدي الله، حيث أوصى سبحانه بهما، فقال تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ}(البقرة: 45)، وقال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(البقرة: 153)، وسبق أن طلب موسى، عليه السلام، من قومه الأخذ بهذا الهدي الناجع، فقال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}. (الأعراف: 128)

لا ملجأ من الله إلا إليه سبحانه:

قد يقول قائل إن الذي تنقطع به سبل النجاة لا يملك إلا أن يلجأ إلى الله، لأنه لا يجد أمامه خياراً آخر، حتى لو لم يكن مؤمناً من قبل، والله تعالى يقول: {أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ}(النمل: 62)، نعم؛ هذه حقيقة واقعة، فحتى فرعون لما صدمته الحقيقة، وعاين الغرق، طلب النجاة من الله، فقال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلِـهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}.(يونس: 90)

غير أن الذي يلجأ إلى ربه من منطلق إيمانه ويقينه به سبحانه وقدرته على كل شيء، يختلف حاله، عمن يلجأ إلى الله خلاصاً من حبكة، أو شدة ألمت به، مخالفاً تنكره للإيمان في أحواله الأخرى، فرد الله على المحاولة اليائسة لفرعون بالتشبث بطوق الإيمان للنجاة من المصير المحتوم، والعاقبة الوخيمة، بسبب طغيانه، وظلمه، وشططه، ونكرانه الإيمان، بقوله سبحانه وتعالى: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}.(يونس: 91 - 92)

فشتان بين الذي يرجو الله بعد إفلاسه من دعم الآخرين، ومدد العالمين، وبين الذي يرجوه

سبحانه ابتداء، في سرائه وضرائه، وكل أحواله، من هنا يجيء تنبيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى ضرورة المحافظة على حسن رجاء الله، في الرخاء والشدة، فعن ابن عَبَّاسٍ، قال: (كنت خَلْفَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يَوْمًا فقال: يا غُلامُ؛ إني أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ؛ احْفَظْ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إذا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللهَ، وإذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ على أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لم يَنْفَعُوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله لك، وَلَوْ اجْتَمَعُوا على أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لم يَضُرُّوكَ إلا بِشَيْءٍ قد كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ). (*)

الأمر لله من قبل ومن بعد:

إن موقف النبي، صلى الله عليه وسلم، في الغار، ورده على تخوف صاحبه، بتلك العبارات الإيمانية، يرسم للمؤمن الصورة المشرقة للمواقف النابعة من الإيمان حين يواجه الصعاب، ويبتلى بالمحن، فما دام الأمر - أولاً وأخيراً، ومن قبل ومن بعد -بيد الله، فمن المنطق والسلامة والسداد، أن لا يكون التوجه بطلب النجاة إلا إلى الله، مع الأخذ بمقومات الإجابة، ومتطلبات رضاه سبحانه.

ومن المفيد بمكان تدبر المضامين المقترنة بذكر حسن التوكل على الله، كما وردت في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي مثلتها الباقة المستشهد بها آنفاً، فالله يؤكد على إمداده النصر لنبيه، صلى الله عليه وسلم، حتى إنَّ التفاف الأنصار والأصحاب حوله مناصرين، لم يكن أن يتم لولا أن أراد الله، {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ...}، وقد ساق الله ذكر نصرته صلى الله عليه وسلم وصاحبه وهما في الغار، على أن هِبَةَ النصر محصورة بالله سبحانه، ويثبت الله ذكر مضمون هذه الحقيقة في آيتين كريمتين، فيقول سبحانه: {وَمَا

* سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب منه، وصححه الألباني.

جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمَ} (آل عمران: 126)، ويتكرر هذا الذكر في سورة الأنفال، مع اختلاف بسيط في حروف بعض الألفاظ وترتيبها، فيقول سبحانه: {وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (الأنفال: 10)

وأكد الله في آية من سورة التوبة التي أشارت إلى نصرة الله جل وعلا لرسوله، صلى الله عليه وسلم، في هجرته، على أن كلمة الله هي العليا، وكلمة أهل الباطل هي السفلى، وأن الذي يقدر هذه الحقائق، ويقرر ما يترتب عليها من نتائج، هو الله العزيز الحكيم، فقال سبحانه وتعالى: {...وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة: 40)

وهذه الحقيقة تتماشى مع الحقيقة الإيمانية الساطعة، المتمثلة بكون النفع والضرر بيد الله وحده، فالخلق، مجتمعين أو متفرقين، لا يملكون، ولا يستطيعون أن يحدثوا في الكون شيئاً لا يريده الله سبحانه وتعالى.

ربط النتائج والعواقب بالمقدمات والأسباب:

في قصة فرعون أشار سبحانه وتعالى إلى سبب رفض الاستجابة الإيجابية لطلب فرعون، حين لجأ إلى الاعتراف بالإيمان بعد فوات الأوان، فقال تعالى: {آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} (يونس: 91)

كما أفصح سبحانه وتعالى عن سبب إعراض كثير من الناس عن الحقائق الإيمانية، مبيناً أنه العمى الذي يصيب القلوب، على الرغم من كون العيون مبصرة، فعقب سبحانه وتعالى على حقيقة ما انتهى إليه أمر فرعون، بقوله سبحانه: {...وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}(يونس: 92)

وفي المقابل؛ فإن الذين يستجيرون بحمى الله، ويعملون بهديه، يهبهم الله سبحانه وتعالى

خيرات كثيرة، ونعماً جزيلة، فيبعد عنهم هَمّ الحزن، فها هو الرسول، صلى الله عليه وسلم، يهدئ روع صاحبه في أحلك الساحات، وأدق الظروف، قائلاً: {...لاَ تَحْزَنْ...}، فعلى أي أساس تقوم هذه التهدئة؟ إنها تقوم على مرتكز إيماني: {... إِنَّ اللهَ مَعَنَا ...}، فالذي يعتقد جازماً أن الله معه وناصره، يطرد شبح الحزن عن نفسه، وينطلق من وحل الخوف إلى ربيع الأمل، واستشراف الفوز.

وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ:

إن الذي يعتمد على الله، ويتوكل عليه سبحانه، لن يخيب رجاؤه، ولن يحبط أمله، فالله جازى نبيه، الذي نطق ساعة المحنة والكرب بما يعبر عن مكنون إيمانه، (الله معنا)، (وما ظنك باثنين الله ثالثهما)، جازاه بأن أنزل السكينة على قلبه، وأيده بجنود السماء والأرض تنافح عنه، وتقاتل من عاداه وخاصمه، {...فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا...} ومن سنن الله في خلقه أن يحقق التمكين والمنعة في الأرض للمؤمنين الصادقين، ولو بعد حين، فالعبرة بالعواقب والنهايات {...إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}، وهكذا كانت العاقبة للمهاجر محمد، صلى الله عليه وسلم، أن دانت له بقاع كثيرة من المعمورة قبل موته، وخلال فترة دعوته محدودة السنين، واسعة الآثار والتحصيل، حتى إنَّ الدنيا ما زالت تردد اسم محمد، صلى الله عليه وسلم، بكل الفخر والاعتزاز، وستبقى على ذلك، بإذن الله وتوفيقه، وها هي بقاع الدنيا تشهد حضوره صلى الله عليه وسلم في أوساطها، بالذكر المحمود، واقتفاء أثره، والإيمان بدينه، والمحافظة على دوام ذكره صلى الله عليه وسلم في ركعات الصلاة اليومية، وخارج نطاقها، على الدوام، وبكل حب وانتماء إليه صلى الله عليه وسلم، على الرغم من مضي مئات القرون على حادثة مطاردته، خلال رحلة هجرته وصاحبه بدين الإسلام، حتى يتاح بلوغه العالمين، فبلغ، والحمد الله، العرب والعجم، وها هو يشهد المزيد المزيد من الذين يدخلون فيه أفواجاً، رغم حنق الكارهين،

وكيد المتآمرين، لأن الله لهم بالمرصاد، وهو القائل سبحانه وتعالى: {يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ}(التوبة: 32)، يأتي هذا الوعد القاطع من الله لنصرة دينه إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، شاء من شاء، وأبى من أبى، إذ يقول سبحانه في محكم التنزيل: {وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}.(يونس: 82)

وحين الوقوف عند هذه التأملات الإيمانية، المستوحاة من معين الهدي القرآني والنبوي، يجد المواطن الفلسطيني، القابض على الجمر، بلسماً يداوي جراحه، ويسعف نفسه، فلا فرج ولا نصر إلا من الله سبحانه وتعالى، ولن تثني مؤمناً محتسباً صعاب المحن، ولا لهيب الجمر عن التمسك بيقين الإيمان، والجزم بنيل الفرج بالانتصار، ولو بعد حين من الوقت، فنحن على موعد معه، طال الزمان أم قصر، وقد أصاب من قال:

عَلى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ تأتي العَزائِمُ وَتأتي عَلَى قَدْرِ الكِرامِ المَكـارِمُ
وَتَعْظُمُ في عَينِ الصّغيرِ صغارُهـا وَتَصْغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

عام جديد ... والأمة تبكي حالها

يهلُّ على أمة الإسلام عام هجري جديد، وهي تعاني الوهن، وتشكو التمزق، وتسودها الاضطرابات الداخلية، ويعمها فساد ينخر عظامها، غير أنها باقية في مجمل أمرها على دينها، يحاول الصالحون فيها التشبث بحكم الله، فَيُصَلّون، ويصومون، ويحجون، ويعملون جهدهم على اقتفاء شرع الله في اعتقادهم، وسلوكهم، وعلاقاتهم، والجديد في حال الأمة، صراعاتها الداخلية، التي طفت على السطح، واختلط فيها الحابل بالنابل، وللأسف أنها تشهد حالاً مستعصية من استغلال التناقض الحاصل بين فئاتها من قبل جهات متربصة، تدير حلبة الحراك بطريقة (فَرّقْ تَسُد)، مستغلة حنق الشعوب على حكّامها، فأشعلت نيران الصدام، وحركت شعوباً كانت ساكنة على ضيم، فقامت في عدد من أقطار المسلمين معارك طاحنة، هدف طرف الحكام فيها المحافظة على البقاء، ولو على حساب دمار البلاد، وهلاك العباد، وهدف الخصم الآخر زلزلة عروش السلاطين، والإطاحة بأنظمة عززت مبدأ الأسياد والعبيد، وأذاقت الناس ويلات الفقر والقهر والظلم، حتى طفح الكيل، وحانت فرصة الانقضاض على ملكوت السادة، ومنافع الساسة، فسالت دماء، وما زالت تسيل، وأخرى تنتظر القرابين، والله أعلم بما سيحدث بعد حين.

وإزاء هذا الحال الذي يسرُّ العدى، ويغيظ الصديق، لا بد للأمة وأبنائها من وقفة تفحّص، وتشخيص؛ بغية البحث عما يوصل إلى شاطئ الأمان؛ خلاصاً من دياجير الظلام، وتلاطم أمواجه، ونار فتنه، فهي حقيقة فتن كقطع الليل المظلم، حيرت الحليم، وطيرت عقول المفكرين، وأحرقت قلوب المخلصين، والله المستعان، وهو رب العرش العظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

داء الأمة وأهمية تشخيصه:

تصعب الإحاطة بتفاصيل حال الأمة في ظرف كالذي تعيشه الآن، فالمشكلات كثيرة، والصعاب جمة، والحلول متنوعة، غير أن محاولة المرورِ مرورَ الكرام على هذه الحال، يمكن أن تتم بما تيسر الوقوف عنده، وبما أمكن طرحه من حلول لنواحي الخلل الحاصل، من هنا؛ يمكن التنويه بأهمية تفحص حال الأمة، وتشخيص دائها مع بداية العام الهجري، فشعوبها تعيش حالاً من التخبط والضياع؛ جراء الفجوة العميقة التي تباعد بين تطلعاتها نحو السمو، والرقي، والعيش الكريم، وبين ما تعانيه من آلام القهر، والاضطهاد، والفقر، والحرمان؛ بسبب بطش الظالمين القابعين على الرقاب، وسوء توزيع الخيرات، والإجحاف في فرض الالتزامات والخاوات، مما ولد فيهم احتقاناً متعدد الصور والأسباب، فأضحوا براكين موقوتة، وزلازل مدمرة، يهدد وقوعها مظاهر الاستقرار الوهمية التي يحاول المنتفعون التغني بوجودها، والوقوف على أطلالها المزيفة، وبعضاً من هذا وقع في عدد من الدول العربية مؤخراً، في ظلال ما بات يسمى بالربيع العربي، الذي للناس منه مواقف متباينة، وتحليلات مختلفة، وتفسيرات متعددة، فلماذا ظهر الربيع على هذا النحو، وفي هذا الوقت، وفي تلك المواقع؟! وما الذي جعل هذا الربيع يظهر متلاحقاً في عدد من الدول دون غيرها؟! فهذه بعض المحاور التي يدور حولها الاختلاف في المواقف والتحليلات حول ربيع العرب الميمون، عسى أن تكون عواقبه سليمة، وتكون فيها الصحوة من الدياجير، والسلامة من الفساد، والنجاة من الانحطاط.

فقد عانت الأمة، وكان لا بد لها من تغيير، يكون عماده سواعد الأحرار، الذين يرفضون أن يبيعوا حريتهم، ومقدساتهم، وأرضهم الطهور، لعدو يتربص بهم الدوائر، ويطمع في نهب خيراتهم، وحرية الأحرار تأبى عليهم أن يساوموا على ثوابتهم، مهما بلغ بهم الضيق؛ لأنهم يدركون معنى أن تموت الحرة ولا تأكل بثدييها، ويعلمون أن عليهم واجباً تجاه نهضة أمتهم، فلا ينفع طول العويل على تردي الحال والظروف، بل لا بد من التشمير

عن سواعد العاملين؛ ليدفنوا الهموم والأحزان، ويهبوا للقيام بالمطلوب من صالح الأعمال، وقد سبق لشاعرنا الفلسطيني إبراهيم طوقان، أن قرّع المكتفين بالبكاء على حال أمتهم البئيس، طالباً المبادرة إلى أداء الواجب دون كلل ولا ملل، فخاطب الكسول المتخاذل عن القيام بالمطلوب قائلاً:

كَفْكِفْ دموعَكَ ليس ينفَعُكَ البكاءُ ولا العويل
وانهضْ ولا تشكُ الزمانَ فما شكا إلاَّ الكسول
واسلكْ بهمَّتِكَ السَّبيلَ ولا تقلْ كيف السَّبيلُ
ما ضَلَّ ذو أملٍ سَعى يوماً وحكمتهُ الدَّليلُ
كلاَّ ولا خاب امرؤٌ يوماً ومقصْدهُ نبيلُ
أَفنَيْتَ يا مسكينُ عُمرَكَ بالتَّأوُّهِ والحزَنْ
وقعدتَ مكتوفَ اليديْن تقولُ حاربني الزَّمنْ
ما لمْ تقمْ بالعبء أنتَ فَمَنْ يقوم به إذن
كم قلتَ أمراض البلاد وأنتَ من أمراضها
والشؤم علتها فهل فتشت عن أعراضها
يا مَنْ حملْتَ الفأْسَ تهدِمها على أنْقاضِها
أُقعدْ فما أنتَ الذي يَسْعى إلى إنهاضها
وانظرْ بعينيْك الذئاب تعُبُّ في أحواضها
وطنٌ يُباعُ ويُشترى وتصيحُ فليحيَى الوطنْ
لو كنتَ تبغي خيْرَهُ لبذلتَ من دمِك الثمنْ
ولقمتَ تضْمِدُ جرحهُ لو كنتَ من أهلِ الفطنْ

انحراف البوصلة:

حين تتقاعس معظم أحزاب الأمة وفصائلها ومجموعاتها، إضافة إلى تخلف كثير من

عناصرها وأفرادها عن أداء الواجب نحو نهضتها، ومسح الغبار عنها، بالوسائل التي شرعها الله، وفصلّها في كتابه العزيز، وجاءت بها سنة نبيه الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، باني عزة هذه الأمة، ومرسي دعائم مجدها، فاقرأ عليها السلام، وكَبّر عليها أربعاً؛ لأنها ستتيه في بحر الظلمات، وتضيع بين أسنان المتكالبين عليها، وبخاصة حين ترمي نفسها في أحضان المفترسين المغتصبين؛ طمعاً في دفئهم، وعون أيديهم، أو الاستقواء بهم على الخصوم، والله سبحانه وتعالى يحذر في قرآنه الكريم من طلب العزة من سواه، فيقول جل شأنه: {الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلهِ جَمِيعاً}. (النساء: 139)

فالعزة لله، ولا يقبل من مؤمن أن يبتغيها من سواه سبحانه، فيقول جل شأنه: {مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ}. (فاطر: 10)

ولا تغيب حقيقة أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، إلا عن المنافقين أو الكافرين، الذين في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضاً، وقد ردَّ الله تعالى على زعم المنافقين أنهم الأعزة والمؤمنين الأذلة، فقال سبحانه وتعالى: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ}. (المنافقون: 8)

فالذين يظنون أن العزة في بيت فلان، أو دولة علان ممن يتنكبون درب الله، هم واهمون، بل غارقون في أضغاث الأحلام، وبوصلتهم منحرفة؛ لأن الله مع الذين آمنوا، والكافرون لا مولى لهم، مصداقاً لقوله سبحانه وتعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ}(محمد: 11)، والله يدافع عن الذين آمنوا بعزته وجلاله، وذلك وعد قطعه الله على نفسه، فقال تعالى: {إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ}(الحج: 38)، وحين تكون بوصلة المؤمنين صحيحة، تؤشر لهم نحو ضرورة أن ينصروا الله كي ينصرهم، ويعلي شأنهم، ويرفع المقت والغضب عنهم، فالله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ}(محمد: 7)، وإذا كان الله مع المؤمنين ونصرهم فمن

الذي يغلبهم، وهو سبحانه وتعالى يقول: {إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}.(آل عمران:160)

المطلوب لتفادي المخاطر التي تتهدد الأمة:

تتهدد أمة الإسلام والمسلمين مخاطر كثيرة، تستهدف المس بحياة أبنائها، وكرامتهم، وعقيدتهم، ومقدساتهم، وقيمهم، وتأتي رياح هذه المخاطر من جهات عدة، فهي تَرِد من حاقدين، ومن متطلعين لسلب الخيرات، ووضع اليد على المقدسات، ومن جهات لا يروق لها إلا أن تنشر الانحلال والفساد، على نمط منهج الشيطان الذي أعلن عن هدفه الخاص بإغواء من يستهويهم صراط الله المستقيم، فقال تعالى مخبراً عن هذا الهدف: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ}(الأعراف:16)، واسترسل القرآن الكريم في الإخبار عن بعض الخطوط العريضة لخطط إبليس وأساليبه التي يسعى من خلالها إلى تحقيق أهدافه، لإغواء أصحاب الصراط المستقيم، فذكر الله بعض ما ورد على لسانه بهذا الشأن، فقال تعالى: {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ}(الأعراف:17)، والذين يبذلون الجهود من أجل حَرف المسلمين عن دينهم وعقيدتهم إنما يقتفون أثر إبليس، وللأسف الشديد أن كثيراً من أبناء هذه الأمة لا يدركون هذه الحقيقة، أو يتجاهلونها، فالحرب المسعورة التي تشن على عقيدة المسلمين، وشريعتهم، ودينهم، ومقدساتهم، ووجودهم، تنطلق في مجملها من هذه الخلفية، مما يحتم على الغيورين على دينهم، والحريصين على كرامتهم وعزة أمتهم، أن يتنبهوا إلى هذه الحقيقة، حتى يديروا دواليب مقارعة أعداء الأمة بالشكل الصحيح، وحتى يجنبوها وإياهم ويلات المخاطر التي تدبر لها ولهم، فيعودون إلى منابع خيرهم، وموارد عزهم، دون أن يتلبسوا بجرائم الخيانة، ما ظهر منها وما بطن، سائلين الله العلي القدير أن يهدينا سبيل الرشاد، وأن ينير لنا آفاق الحكمة، لنوفق في دحر المخاطر التي تتهدد أمتنا، وتحاول النيل من مقدساتنا، وعقيدتنا، ووجودنا، وإننا على يقين أن الله سيكون معنا يوم أن نبذل الجهد لنصرة دينه، ونسعى وسعنا إلى العمل بكتابه وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم. وكل عام وأمتنا المجيدة بألف خير

الفصل الرابع
المسجد الأقصى المبارك

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
22.	الإيمان متطلب للتصديق بالإسراء	169
23.	ملخص المطلوب لحماية مسرى الرسول، صلى الله عليه وسلم	172
24.	مسؤولية مسلمي العالم عن حماية مسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم	175
25.	الله يعلم المفسد في شد الرحال إلى المسجد الأقصى من المصلح	180
26.	إطلالة على ثانوية الأقصى الشرعية	188

الإيمان متطلب للتصديق بالإسراء

دعا الله سبحانه وتعالى الناس إلى التفكر في آيات عظمته، والتدبر في دلائل قدرته، ليؤمنوا ابتداء، أو ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ومجال ذلك رحب واسع، سواء في خلق الكائنات، أو وقوع الأحداث، فخلق السماء والأرض والسهول والجبال والبحار والصحراء، والزروع والثمار، والإنسان والحيوان ...إلخ، كل ذلك ميادين للتأمل، كطريق لتأكيد الإيمان، أو تحصيله، على أساس من القناعة والقوة والرسوخ.

وفي جانب الأحداث والأفعال فإن آيات الله تتجلى في مجال التدبير، وميادين التدمير، فالله هزم الأحزاب، ودمر القرى الظالمة، وأنجى الصالحين من الأنبياء والرسل، وممن سار على هديهم، ورد الكيد إلى نحور أصحابه، وأيد القلة الصادقة، على الكثرة الضالة التائهة، في إشارات واضحة على آيات قدرته، وعلامات عظمته سبحانه.

ومن الأحداث التي احتوت دلالات باهرة على القدرة الربانية، حادثة الإسراء والمعراج، فهي لم تكن أمراً عابراً، ولا معتاداً، بل وقعت خارج نطاق قدرة الخلق، ومألوفهم، وتدبيرهم، من هنا جاء الإخبار القرآني عنها، في سياق بيان الفعل الرباني، وليس البشري، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ}(الإسراء:1)

ففاعل الإسراء هو الله سبحانه، وليس النبي، صلى الله عليه وسلم، ومن لطيف التعبير القرآني في هذا المقطع القصير من الآية الكريمة، البدء في مطلعها بالتسبيح، والذي يعني التنزيه، فقبل استفظاع خبر الإسراء، ينبغي التنبه إلى تنزه الله وأفعاله عن أن تقاس بموازين

القدرة البشرية، فلم يكن بالأمر العابر اختيار التسبيح {سُبْحَانَ} لمطلع الآية الكريمة التي افتتحت بها سورة الإسراء، وتناولت بعده سرد خبر حادثة الإسراء، ففي هذا الاختيار تنبيه واضح لمنع المقارنة بين فعل الخالق، وفعل الخلق، فشتان بين الثرى والثريا، ولمزيد من التأكيد على هذا البعد أُسند فعل الإسراء لله تعالى، فقال جل شأنه: {الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ} فلم يكن للنبي، صلى الله عليه وسلم، دور في إيجاد أصل الفعل، سوى أن الله أكرمه بنقله هذه النقلة العجيبة العظيمة، وبالتالي فإن تصور الحدث يجب أن يكون في هذا الإطار، حتى يجري عليه التسليم والتصديق، خارج نطاق التصور العقلي للممكن والمستحيل، فالسفر على البراق، من مكة إلى بيت المقدس، والعودة في جزء من ليلة قبل توافر وسائل المواصلات الحديثة، يعود بالأمر إلى إطار الإيمان، الذي يستلزم التسليم المطلق لله تعالى في الفعل، والتصديق بما يخبر عنه سبحانه، والذي يصل إلى التصديق بهذه الحقيقة، يسهل عليه الإقرار بما وراءها من أخبار وأحداث ووقائع، أما الذي ينكرها فيجد صعوبة في التسليم بتوابعها، فمن صدق بأن الله على كل شيء قدير، وأنه أخبر عن حدث الإسراء في قرآنه الكريم، يصدق بحادثة شق صدر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيها، ويصدق بصعوده صلى الله عليه وسلم في الليلة ذاتها إلى السماوات، وبما جرى في تلك الرحلة العظيمة من الأحداث، التي ثبت خبرها في الروايات الصحيحة، أما الذي ينكر قدرة الله، أو لا يؤمن بالقرآن وأخباره، فسيبقى في حالة من الشك والإنكار لحادثة الإسراء وما تبعها من أخبار وحوادث. إذن المسألة تتعلق بالإيمان وجوداً وخللاً وعدماً، فإن وجد الإيمان تبعه التصديق، وعند فقد الإيمان؛ فإن حالة الجحود والإنكار هي التي تسود الموقف، وعند وجود خلل في الإيمان، فإن الشك والريبة يعتوران الحالة والموقف.

فكفار مكة حين سمعوا بخبر الإسراء ازدادوا كفراً على كفرهم، وذهبوا إلى أبي بكر بالخبر

سعياً لإحراجه، وإفحامه، وإقامة الحجة عليه، لكنه ألقمهم حجارة في أفواههم، وصفعهم على وجوههم، حين أجابهم بقوله: (إن كان قال ذلك فقد صدق)(*) معللاً موقفه بأنه يصدقه بأبعد من ذلك؛ يصدقه بوحي السماء، فكيف ينكر عليه خبر الإسراء، وهكذا كثير من الأمور التي تقتضي الإيمان بصدقها، ما دامت الأخبار عنها ثبتت في صحيح الرواية، وصدق نسبة فعلها إلى الله سبحانه، فصلاته صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء بالنبيين، ومرافقته جبريل إلى السماوات، واحدة تلو الأخرى، وحديثه مع الأنبياء، عليهم السلام، والنقاش الذي دار حول فرض الصلاة، وعددها، وغير ذلك من أحداث الإسراء والمعراج، وما شابهها من أمور السمعيات، مما يعوزه التصديق المطلق بالقدرة الربانية، فهو سبحانه على كل شيء قدير، وإذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، فحادثة الإسراء وما شملته من مجريات، لن تدخل حيز القناعة خارج إطار الإيمان.

وبصفتنا مؤمنين فإننا ندعو الله أن يجعلنا ممن اهتدى للدين، والصراط المستقيم، وأن يزودنا بالهدى والتقى، لنبقى على العهد الذي أوصى به الله تعالى ورسله، عليهم السلام، مصداقاً لقوله جل شأنه: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } (آل عمران :102).

* في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية: 1/ 53.

ملخص المطلوب لحماية مسرى الرسول ﷺ

ينبغي أن يعلم القاصي والداني، أن ما يستهدف المسجد الأقصى من تهديد، إنما يستهدف عقيدة مسلمي العالم، ويمس حقوقهم الثابتة، ديناً وتاريخاً وثقافةً وواقعاً في هذا المسجد، الذي يمثل قبلتهم الأولى، ومسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم، ومنطلق معراجه إلى السماء، فالله بارك حوله، في مطلع السورة القرآنية التي سميت بالإسراء، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إلى الْمَسْجِدِ الأقصى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}(الإسراء:1)

ولو لم يكن إلا هذا الدليل القرآني يدعو إلى ارتباط المسلم بالمسجد الأقصى، لكفى، فهو يشير إلى الصلة الوثيقة بينه وبين المسجد الحرام، بما يمثله من مكانة عظيمة في تاريخ المسلمين، وعبادتهم، وعقيدتهم، فهو أول مسجد بني في الأرض لعبادة الله، وتلاه المسجد الأقصى، ففي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: (يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَيُّ مَسْجِدٍ وُضِعَ فِي الْأَرْضِ أَوَّلَ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْمَسْجِدُ الْأَقْصَى، قُلْتُ: كَمْ كَانَ بَيْنَهُمَا؟ قَالَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، ثُمَّ أَيْنَمَا أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ بَعْدُ فَصَلِّهْ، فَإِنَّ الْفَضْلَ فِيهِ)(*)، وهو القبلة المقررة من رب العالمين للمسلمين، يتوجهون إليه في صلاتهم أينما كانوا، التزاماً بقوله تعالى: {وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}(البقرة: 150)، ومعلوم أن قبلة المسلمين الأولى كانت المسجد الأقصى، حتى نزل الأمر الإلهي بالتحول إلى البيت الحرام،

* صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه.

ففي الحديث الصحيح عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (كَانَ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَنَزَلَتْ {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} (البقرة: 144)، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، وَهُمْ رُكُوعٌ فِي صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَقَدْ صَلَّوْا رَكْعَةً، فَنَادَى: أَلَا إِنَّ الْقِبْلَةَ قَدْ حُوِّلَتْ، قَالَ: فَمَالُوا كَمَا هُمْ، نَحْوَ الْقِبْلَةِ).(*)

إن الإعلان عن المشروع اليهودي الذي يهدف إلى تهويد القدس، وتقسيم المسجد الأقصى المبارك، إنما هو ضرب من العدوان الآثم، يمس عقيدة المسلمين؛ لأن القدس والمسجد الأقصى المبارك هما ملك للمسلمين وحدهم، وتنحصر السيادة فيهما بهم وحدهم، ولعل ما يتهدد قبلتنا الأولى ومسرى نبينا محمد، صلى الله عليه وسلم، يتطلب وقفةً جدية، لوقف الانتهاكات الإسرائيلية في القدس، والمسجد الأقصى، قبل أن تقع الطامة بهما.

إن العالم أجمع بحكوماته ومنظماته ومؤسساته التي تعنى بالسلام والإنسان والمقدسات وزعماء الأمة العربية والإسلامية وشعوبها -على وجه الخصوص- مطالبون بالعمل على إنقاذ القدس والمسجد الأقصى المبارك قبل فوات الأوان، وهم مطالبون أيضاً بضرورة ثني سلطات الاحتلال عما تخطط له من طمس لهوية مدينة القدس، وتشريد أبنائها، والوقوف في وجه الآلة العسكرية لسلطات الاحتلال، التي تمارس أبشع جرائم الإحلال والتطهير العرقي ضد أبناء فلسطين بعامة، ومدينة القدس وأبنائها بخاصة، مما يزيد من حالة الاحتقان في المنطقة، ويضر بالاستقرار والأمن العالميين، مع التأكيد على أن القانون الدولي يمنع التعرض للمقدسات والآثار التاريخية للبلد المحتل، فالصمت الدولي إزاء هذه الممارسات، وضد أبناء الشعب الفلسطيني ومقدساته مستهجن، وفق معايير القيم النبيلة جميعها.

كما أن شعبنا الفلسطيني مطالب بضرورة العمل لوحدة الصف ونبذ الفرقة والانقسام، من أجل الدفاع عن القدس والمقدسات، والحقوق الفلسطينية والعربية والإسلامية، فحالة الانقسام الداخلي هي من أهم الأسباب التي أغرت وتغري سلطات الاحتلال في التعامل

* صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة.

بغطرسة واستهتار مع حقوق الشعب الفلسطيني، ودول العالم مطالبة بضرورة التحرك لوقف العدوان الإسرائيلي الغاشم ضد شعبنا ومقدساته، للحيلولة دون مخاطر العبث بالمسجد الأقصى المبارك وتداعياته.

وتأتي في هذا السياق دعوة المواطنين والمؤسسات للعمل على ترميم البيوت وإعمارها، وتفويت الفرصة على سلطات الاحتلال، حفاظاً على هذه الأماكن من أن تمس، مع التأكيد على ضرورة الثبات في وجه هذه الهجمة الشرسة، التي تطال البشر والحجر والشجر، وكل ما هو أصيل في القدس، ولا بد من تأكيد الدعوة لكل من يستطيع الوصول إلى المسجد الأقصى المبارك من مدينة القدس وما حولها، وفلسطينيي 48 إلى شد الرحال إليه، والمرابطة فيه، وإعماره بالصلاة، لتفويت الفرصة على من يريدون اقتحامه وتدنيسه، وفي هذا المقام لا بد من الثناء على يقظة حراس المسجد الأقصى المبارك، وسدنته والمصلين فيه، الذين يقومون بواجبهم في حماية مسرى نبيهم ﷺ.

فالمطلوب من زعماء العرب والمسلمين وضع القدس وفلسطين على سلم أولوياتهم، وملاحقة من يعتدون على المصلين الآمنين ومساجدهم، والبحث عن سبل حماية للمواطن الفلسطيني ومقدساته، وعلى رأسها المسجد الأقصى المبارك، وبخاصة في ظل الصمت الدولي تجاه ممارسات سلطات الاحتلال الإسرائيلي وانتهاكاتها للمقدسات والحقوق العربية في الأراضي الفلسطينية، وبخاصة في مدينة القدس.

مسؤولية مسلمي العالم عن حماية مسرى نبيهم ﷺ

ضمن واجب الأمة نحو وجودها، ومسؤوليتها عن قضاياها المصيرية، تأتي مسؤوليتها عن حماية ثالث المساجد التي لا تشد الرحال إلا إليها، وهو قبلة المسلمين الأولى، ونهاية رحلة إسراء رسولهم، صلى الله عليه وسلم، من مكة، ومحطة انطلاق معراجه إلى السماء، وقد نزل فيه قرآن يتعبد المسلم بتلاوته في صلاته، وخارجها، مما يجعله في صلب منظومة اهتمام المسلمين أينما وجدوا، وكيفما تحدثوا، وبغض النظر عن لون بشرتهم، ومكان إقامتهم، فهو من مكونات عقيدتهم، ومن متعلقات تاريخهم وتراثهم، من هنا يكون الدفاع عنه واجباً على كل مسلم ومسلمة، وبالإضافة إلى هذه المسوغات لوجوب أداء مقتضيات المسؤولية الملقاة على عواتق المسلمين نحو مسجدهم الأقصى، فإن مبادئ الإسلام وأحكام شريعته، ومضامين قيمه وسننه، تقتضي من المسلم القيام بمتطلبات حماية هذا المسجد المبارك، والمرابطين في أكنافه، من منطلق الواجب العام الذي يلزم المسلمين أفراداً وجماعات على الاهتمام بأمر المسلمين، وقضايا الإسلام، وتستنبط مؤيدات هذا الاقتضاء، ودلائل هذا الواجب من النصوص الشرعية ذات الصلة، التي يمكن الوقوف عند بعضها، ضمن العرض الآتي:

ففي الآيات التي ذكرت رد بني إسرائيل على موسى، عليه السلام، المتضمن تقاعسهم عن معاضدته ونصرته، في قوله تعالى: {قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}.(المائدة: 24 - 26)

فقد جاء تعقيب الله على ردهم المتضمن في قولهم: {فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا

قَاعِدُونَ} بأن وصفهم بالفاسقين، مؤكداً ما ورد على لسان موسى، عليه السلام، مما يشير إلى ذم من يتخلى عن تلبية نداء الواجب وتقريعه، ولا ينحصر هذا الذم بمن تقاعسوا عن نصرة موسى، عليه السلام، بل يشمل أشباههم في كل زمان ومكان، ممن يختارون سلوك درب التخاذل عن نصرة الحق، ومعاضدة أهله.

وذكر الله أيضاً موقف الملأ من بني إسرائيل، بعد أن لبى طلبهم بأن بعث فيهم طالوت ملكاً، لكنهم تولوا عن نصرته، إلا قليلاً منهم، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ}(البقرة: 246)، حيث تخلف معظمهم عن نصرته، وتولوا عنه، فكانوا بذلك ظالمين؛ لخروجهم عن درب الحق والموقف المنصف.

وذكر الله تعذرهم بقلة حيلتهم، وضعف قوتهم عن مواجهة جالوت، فقال تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ}.(البقرة: 249)

فالتخاذل عن نصرة الحق سبيل الفاسقين والظالمين والمنافقين، والله يؤنب المتخاذلين عن أداء واجبهم نحو قضاياهم المصيرية، ففي شأن المنافقين يقول تعالى: {فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ}(التوبة: 81)، ومثلهم الذين تعذروا عن المشاركة في أداء واجب حماية الحمى المقدسة، بحجة أن بيوتهم عورة، فقال الله تعالى فيهم: {وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلا فِرَاراً}.(الأحزاب: 13)

فالذين يختلقون الأعذار لأخذ الرخص عن أداء الواجب، هم المنافقون والفاسقون والظالمون، الذين يتوعدهم الله بعذاب بئيس يوم القيامة، إضافة إلى فضح نفاقهم، وذم سوء سلوكهم واختيارهم.

وأنكر الله على القادرين خذلهم المستضعفين، بجعلهم يواجهون حالة الاستضعاف بمفردهم، فقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً}.(النساء: 75)

وإذا ما نُظر إلى مسرى الرسول، صلى الله عليه وسلم، وهو يئن من ويلات الأسر، وظلم من يستبيحون حرمته، ويبطشون بروداه وأهله، فإن حالة الاستضعاف التي يعاني منها تحدث عن نفسها، وتستصرخ رموز الأمة، وقادتها، وشعوبها، وأصحاب النفوذ فيها، فالمسجد الأقصى يستغيث، طالباً استحقاقات الواجب الذي تمليه مبادئ الدين وقيمه عليهم نحوه، ومما ورد بهذا الصدد أنه جاء في صحيح البخاري، بَاب يَمِينِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ إنه أَخُوهُ إذا خَافَ عليه الْقَتْلَ أو نَحْوَهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مُكْرَهٍ يَخَافُ، فإنه يَذُبُّ عنه الظالم، وَيُقَاتِلُ دُونَهُ، ولا يَخْذُلُهُ، فَإِنْ قَاتَلَ دُونَ الْمَظْلُوم فلا قَوَدَ عليه، ولا قِصَاصَ،...وفيه أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمَ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كان في حَاجَةِ أَخِيهِ كان الله في حَاجَتِهِ).[1]

وفي صحيح مسلم، عن أبي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (لا تَحَاسَدُوا، ولا تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، ولا تَدَابَرُوا، ولا يَبِعْ بَعْضُكُمْ على بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمَ، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هاهنا، وَيُشِيرُ إلى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، بِحَسْبِ امْرِئٍ من الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمَ على الْمُسْلِمَ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ).[2]

1. صحيح البخاري، كتاب الإكراه، باب يَمِينِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ إنه أَخُوهُ إذا خَافَ عليه الْقَتْلَ أو نَحْوَهُ ...
2. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله ...

فخذل المسلم للمسلم، وتسليمه ليلاقي مصيره المؤلم، وحتفه الصعب، من المنكرات التي يشجبها الإسلام، ويرفضها الله تعالى ورسوله، صلى الله عليه وسلم، وعلى العكس من ذلك تماماً، فإن الرسول، صلى الله عليه وسلم، يصور حال العلاقة بين المؤمنين، بحال أعضاء الجسد الواحد، التي يؤرقها الألم الذي ينتج عن إصابة عضو منها، فيصبح الجسد بكليته يعاني السهر والحمى، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ؛ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْواً، تَدَاعَى له سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى)[1]. وتعبر مواقف المسلمين الذين تربوا في مدرسة النبوة عن امتثال هذه المعاني، والتحلي بهذه القيم، فيروى أن القائد الفذ صلاح الدين الأيوبي لم يُر ضاحكاً حين كانت القدس ومسجدها الأقصى في أسر الصليبيين، فلمّا قيل له في ذلك، قال: كيف يحلو لي الضحك والقدس في أيدي الصليبيين[2]، وقد أدرك الصحابة واجبهم بهذا الصدد منذ العهد الأول للإسلام، ومن النماذج التي تستحق التدبر والتأمل، ما جاء في ردود الأنصار، حين طرح الرسول، صلى الله عليه وسلم، الاستشارة بأمر مواجهة العدو في أولى غزوات المسلمين الكبرى، فوقف المقداد بن الأسود، رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله! امض بنا لأمر الله، فنحن معك، والله لا نقول لك مثل ما قالت بنو إسرائيل لموسى: {...فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ} (المائدة: 24)، ولكن اذهب أنت وربّك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، والذي بعثك بالحق! لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه، حتى تنتهي إليه[3].

ولم تقتصر المواقف النبيلة والشجاعة التي جاءت في سياق القيام بواجب حماية حمى الإسلام والمسلمين على الرجال دون النساء، بل عبرت المرأة المسلمة، والفتى المسلم عن التحلي بهذه القيم، في أكثر من مناسبة وحدث، فيروى أن إحدى نساء المسلمين لم تجد ما تقدمه للقائد المسلم للمشاركة في صدّ عدوان أعداء الأمة إلا ضفائر شعرها؛ لجعلها لجاماً لحصان منطلق في سبيل الله، فقدّمت ما تستطيع، ولم تبق في وضع المتفرّج العاجز اليائس.

1. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.
2. أخلاق المؤمن: 1/ 69.
3. السيرة النبوية، ابن هشام، 3/ 162.

فالفرد المسلم ذكراً كان أم أنثى، بغض النظر عن موقعه، مسؤول ومطالب بأن يتفاعل إيجاباً مع قضايا أمته، فيبذل وسعه وطاقته دون تلكؤ أو تثاقل، في سبيل رفع الضيم عنها، ومن المفروض أن لا يرتاح له بال، ولا يهنأ بعيش، وجزء من أرض المسلمين مستباح، وبعض المسلمين في أسر، فكيف إذا كان الأسير هو أولى القبلتين، ومسرى الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم، وما حوله من الأرض التي باركها الله، والعباد المؤمنين القاطنين فيها، المرابطين على ثغورها؟! فهل يعذر مسلم في أنحاء المعمورة أن يقف متخاذلاً عن نصرتهم، وقدسهم، ومسجدهم الأقصى؟! وكيف ينام المسلمون في أنحاء الدنيا ويقومون، ويسمرون، ويأكلون، ويبتهجون، ويحتفلون، ويتلذذون بما لذّ وطاب من متع الطعام والشراب وطيبات الحياة، وهم يعلمون بحال إخوانهم في فلسطين، ويشاهدون عبر المرئيات يومياً بالبث الحي والمباشر انتهاك حرمات المقدسات، واستباحة دماء إخوانهم، وانتهاك حرماتهم، وتشديد الخناق عليهم، فهل يقبل منهم عذر للخذلان، والتغاضي عن نصرة إخوانهم ومقدساتهم؟!

ومثلما سألهم الله منكراً خذل المستضعفين، فإنه سألهم منكراً كذلك ترك الإنفاق عليهم، وعلى قضاياهم المصيرية، فقال تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}.(الحديد: 10)

فهل يستفيق الغارقون في سُبات عميقٍ من المسلمين، ويخلعون ثياب الخذلان عن مواقفهم، ويرتدون ثوب الستر الذي أوجب الله تعالى ورسوله، صلى الله عليه وسلم، عليهم أن يكتسوا به، ليظهروا على الوجه الذي يرضي الله، أعزة متفانين، في سبيل قضاياهم، مؤازرين مساندين للمستضعفين منهم، نسأل الله أن يوفقهم لذلك، وأن يحق الحق على أيديهم، مثلما كان من الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحابته البررة، الذين عادوا إلى مكة بالحق، ومن أجل الحق، واستحقاقاته، مرددين: {وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً}. (الإسراء: 81)

اللّه يَعْلَمُ المُفْسِدَ في شد الرحال إلى المسجد الأقصى مِنَ المُصْلِحِ

يحكم المسلم على الأعمال، والمواقف، والأقوال، بناء على اعتبارات عدة، منها بواعثها، ومدى تقيدها بحكم الشرع، والظروف التي وردت فيها، والحكمة في اتخاذها، ومدى النفع أو الضرر الذي يترتب عليها، وإلى جانب معيار حكم الشرع فيها، يأتي الباعث والقصد على رأس معايير تقويم الأعمال؛ من حيث القبول والرد، فجزاء الأعمال عند الله يرتبط بالنوايا والمقاصد ارتباطاً وثيقاً، فمن كانت مقاصده من وراء عمل الخير والمعروف حسنة، لقي من الله الجزاء الحسن، ومن كانت مقاصده غير ذلك لقي ما يستحق، فالله من وراء القصد، وكثيرة هي الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، التي تؤكد هذه الحقيقة الدينية في مجال الثواب والجزاء، ففي الحديث الصحيح، الذي رواه عُمَر بن الْخَطَّابِ، رضي الله عنه، على الْمِنْبَرِ، قال: سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (إنما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ ما نَوَى؛ فَمَنْ كانت هِجْرَتُهُ إلى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أو إلى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إلى ما هَاجَرَ إليه).(*)

شواهد على قبول الأعمال أو رفضها حسب بواعثها وسلوك أصحابها:

تعددت الشواهد الدينية الدالة على ربط حكم قبول الأعمال، والمواقف بناء على بواعث أصحابها وسلوكهم نحوها، فجزاء الإنفاق ربطه القرآن الكريم بمقاصد المنفق ونيته، فيقول الله تعالى بشأن من أنفق ابتغاء مرضاته سبحانه: {وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}.(البقرة: 265)

ويقول سبحانه فيمن أنفق رياءً ونفاقاً: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ

* صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.(البقرة: 264)

فالذي أنفق، وكانت نيته نيل رضوان الله، بالعمل وفق ما أمر سبحانه، فإن أجر إنفاقه يتضاعف، كالبستان الذي تضاعف ثمره وحصاده بما نزل عليه من غيث السماء، وبركات الله ورعايته سبحانه، بخلاف الذي كان الرياء والسعي للشهرة والسمعة من وراء إقدامه على البذل والإنفاق، فسيحبط الله عمله، ولن ينال من ورائه الأجر الحسن، بل الوبال والخسران، كمثل الصخرة الصلدة الملساء، التي لا يبقى عليها تراب يصلح لإنبات الزرع، إذا ما أصابها المطر الشديد، فلا يصلح إنفاق المرائي، وصاحب سلوك المن بالصدقة، لتحصيل الثواب الحسن، مثل تلك الصخرة التي لم ينفعها المطر الشديد لإنبات الزرع، بعد أن أذهب التراب المنبت عنها.

ومن الشواهد الأخرى مسألة التصرف في مال اليتيم والإنفاق منه، فالوصي الذي يخلط مال اليتيم مع ماله لتسهيل استثماره وحفظه، مع حفظ حقوق اليتيم، والمحافظة على ماله ، **يختلف** حكمه عن الذي يخلط مال اليتيم مع ماله بقصد اختلاسه وأكله، والله تعالى يقول: {...وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ...}(البقرة: 220)، وفي صحيح البخاري: (كان طَاوُسٌ إذا سُئِلَ عن شَيْءٍ من أَمْرِ الْيَتَامَى قَرَأَ: {وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ من الْمُصْلِحِ}).(*)

شد الرحال إلى المسجد الأقصى في ظل الاحتلال:

ومن الأفعال التي تحتمل أن تأخذ حكمين مختلفين، بل متباينين، بناء على بواعث فاعلها، والملابسات المقترنة بوقوعها، والتداعيات المرافقة لظروفها، مسألة شد الرحال إلى المسجد الأقصى، وزيارة القدس والأراضي الفلسطينية في ظل الاحتلال، إذ تباينت المواقف

* صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: {ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم}...

والفتاوى بشأن حكم هذه المسألة، بين مؤيد ومعارض، بل بين مبيح ومحرم، وبذل كل طرف جهده في الاستدلال بالنصوص والوقائع التاريخية والواقعية، التي فهم منها ما يعضدُ وجهة نظره، وكان في الحديث عن هذا الموضوع، وما صاحبه من تداعيات مادة إعلامية، عرضتها العديد من وسائل الإعلام المختلفة بطريقتها، وبقي المواطن العربي والمسلم يترنح بين شد الأطراف وجذبها، وحتى المتابع أو المطلع على تلك العروض في أنحاء العالم، فإن الصورة تصله مشوشة، بسبب ما صاحب تلك العروض من انفعالات وتناقضات عجيبة، إضافة إلى التشكيك والطعون المختلفة، مما تبادله أطراف النزاع حول هذه القضية.

وفي ضوء فهمنا لمعايير الإسلام الحنيف في تقويم الأعمال، من حيث القبول والرد؛ فإن الذي نود قوله في هذا المقام: إن مسألة شد الرحال إلى المسجد الأقصى، وزيارة القدس والأراضي الفلسطينية في ظل الاحتلال ليست فقهية محضة، بقدر ما هي سياسية بامتياز، فهي تتعلق بتقدير سياسي للمصالح، ودرء المفاسد أكثر من تعلقها بفقه الحلال والحرام المحض، وهي من النوازل التي تحتمل التأويل، وتعدد الآراء، فلماذا تزج في خانة الحلال، أو الحرام، وهي تحتملهما؟ فهي حلال إذا لم تناقض حكماً شرعياً، يستند إلى أدلة شرعية بينة الدلالة، صحيحة الثبوت، وهي كذلك تحتمل أن تكون حراماً إذا ثبت أنها تتلبس بمحاذير شرعية، مستندة إلى أدلة شرعية بينة الدلالة، صحيحة الثبوت.

والمطلع على أدلة الفريقين، يجد أن المسألة تفتقر في التحريم أو الإباحة إلى أدلة قطعية، ويبدو أن الفريقين يسعيان إلى تحقيق مصالح عامة للقدس والمسجد الأقصى والأراضي المحتلة وأهلها، على طريقة كل فريق وقناعاته وتصوراته للأمور، وتقدير عواقبها، غير أن الحملات الشعواء -بغض النظر عن مصدرها- تحرف المسألة عن مساراتها المنطقية والطبيعية، وعن جني المصالح الشرعية من وراء وجهات النظر المطروحة، إلى حال من الصراع المفضي إلى التنازع، الذي يكون من ورائه الفشل، ومواصلة الغرق في بحر الضعف اللجي، مخالفين بذلك هدي الله وأوامره، إذ يقول تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ

فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}.(الأنفال: 46)

عبر وعظات من اختلاف الصحابة في المواقف وفهم النصوص:

اختلف الصحابة، رضي الله عنهم، في الاجتهاد، وفي فهم النصوص، وتطبيقها على الواقع، ومارس أطراف الاختلاف ما يتوافق مع اجتهادهم، ولم يلجأوا إلى التخوين، والتكفير، والطعن، أو الغمز واللمز المتبادل، مع بعضهم بعضاً، وإنما عادوا إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، مخبرين بما وقع منهم، وما حصل بينهم، ولم يعنف الرسول، صلى الله عليه وسلم، فريقاً منهم، ومن الشواهد الثابتة على هذا المنحى، ما جاء في رواية نَافِعٍ عن ابن عُمَرَ، قال: قال النبي، صلى الله عليه وسلم، لنا لَمَّا رَجَعَ من الأَحْزَابِ: (لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إلا في بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأَدْرَكَ بَعْضَهُمْ الْعَصْرُ في الطَّرِيقِ، فقال بَعْضُهُمْ: لا نُصَلِّي حتى نَأْتِيَهَا، وقال بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي، لم يُرَدْ مِنَّا ذلك، فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، فلم يُعَنِّفْ وَاحِدًا منهم). (*)

وحدث اختلاف في الآراء قبيل غزوة أحد، حيث (شَاوَرَ النبي، صلى الله عليه وسلم، أَصْحَابَهُ يوم أُحُدٍ في الْمُقَامِ وَالْخُرُوجِ، فَرَأَوْا له الْخُرُوجَ، فلما لَبِسَ لأْمَتَهُ وَعَزَمَ، قالوا: أَقِمْ، فلم يَمِلْ إِلَيْهِمِ بَعْدَ الْعَزْمِ، وقال: لا يَنْبَغِي لِنَبِيٍّ يَلْبَسُ لأْمَتَهُ، فَيَضَعُهَا حتى يَحْكُمَ الله، وَشَاوَرَ عَلِيًّا وَأُسَامَةَ فِيمَا رَمَى بِهِ أَهْلُ الإِفْكِ عَائِشَةَ، فَسَمِعَ مِنْهُمَا حتى نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَجَلَدَ الرَّامِينَ، ولم يَلْتَفِتْ إلى تَنَازُعِهِمْ، وَلَكِنْ حَكَمَ بِمَا أَمَرَهُ الله، وَكَانَتْ الأَئِمَّةُ بَعْدَ النبي، صلى الله عليه وسلم، يَسْتَشِيرُونَ الأُمَنَاءَ من أَهْلِ الْعِلْمِ في الأُمُورِ الْمُبَاحَةِ؛ لِيَأْخُذُوا بِأَسْهَلِهَا، فإذا وَضَحَ الْكِتَابُ أو السُّنَّةُ، لم يَتَعَدَّوْهُ إلى غَيْرِهِ، اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ، صلى الله عليه وسلم، وَرَأَى أبو بَكْرٍ قِتَالَ من مَنَعَ الزَّكَاةَ، فقال عُمَرُ: كَيْفَ تُقَاتِلُ الناس وقد قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الناس حتى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إلا الله، فإذا قالوا: لا إِلَهَ إلا الله عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ على اللهِ، فقال أبو بَكْرٍ: والله لأُقَاتِلَنَّ من فَرَّقَ بين ما

* صحيح البخاري، كتاب صلاة الخوف، باب صلاة الطالب والمطلوب راكباً وإيماءً.

جَمَعَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ تَابَعَهُ بَعْدُ عُمَرُ، فلم يَلْتَفِتْ أبو بَكْرٍ إلى مَشُورَةٍ إذْ كان عِنْدَهُ حُكْمُ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، في الَّذِينَ فَرَّقُوا بين الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ، وَأَرَادُوا تَبْدِيلَ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ، وقال النبي، صلى الله عليه وسلم: من بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ، وكان الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَشُورَةِ عُمَرَ كُهُولاً أو شُبَّانًا، وكان وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللهِ عز وجل)[1].

ومن الشواهد أيضاً على اختلاف الرأي في القضايا السياسية، ما جاء في صحيح مسلم عن تعدد وجهات نظر الصحابة والرسول، صلى الله عليه وسلم، بين ظهرانيهم بشأن التعامل مع موضوع أسرى بدر، الذين وقعوا بين أيدي المسلمين في أول غزوة تقع بينهم وبين كفار قريش، الذين هجّروا المسلمين من ديارهم، واضطهدوهم، وتربصوا بهم وبدينهم وبرسولهم الدوائر، فعن ابن عَبَّاسٍ، أنه لما أَسَرُوا الأُسَارَى، قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: (ما تَرَوْنَ في هَؤُلاءِ الأُسَارَى؟ فقال أبو بَكْرٍ: يا نَبِيَّ اللهِ؛ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ منهم فِدْيَةً، فَتَكُونُ لنا قُوَّةً على الْكُفَّارِ، فَعَسَى الله أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلامِ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: ما تَرَى يا ابن الْخَطَّابِ؟ قلت: لا والله يا رَسُولَ اللهِ، ما أَرَى الذي رَأَى أبو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا، فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا من عَقِيلٍ، فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي من فُلانٍ -نَسِيبًا لِعُمَرَ- فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فإن هَؤُلاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فهوى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ما قال أبو بَكْرٍ، ولم يَهْوَ ما قلت، فلما كان من الْغَدِ، جِئْتُ، فإذا رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وأبو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قلت: يا رَسُولَ اللهِ؛ أَخْبِرْنِي من أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أنت وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لم أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ من أَخْذِهِمْ الْفِدَاءَ، لقد عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى من هذه الشَّجَرَةِ -شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ من نَبِيِّ اللهِ، صلى الله عليه وسلم- وَأَنْزَلَ الله عز وجل: {ما كان لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ له أَسْرَى حتى يُثْخِنَ في الأرض} إلى قَوْلِهِ: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالاً طَيِّبًا}، فَأَحَلَّ الله الْغَنِيمَةَ لهم...)[2].

1. صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}.(الشورى:38)
2. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم.

فالفعل الواحد مما يحتمل اختلاف الآراء والمواقف حياله من أصحاب الرأي المعتبر، والفقه النير، قد يَصدُر بشأنه حكمان مختلفان من قبلهم، بل متباينان، بناء على بواعث فاعله، والملابسات المقترنة بوقوعه، والتداعيات المرافقة لظرفه، إذ العقول ليست واحدة، والفهم وإعمال النظر لا ينحصران بمستوى واحد بين الناس، مما يفسح المجال لتعدد المواقف، وتضارب الآراء، تحت سقف التمسك بالثوابت، والمحافظة على سقف الغايات، التي يعلوها الحرص على مرضاة الله، واقتفاء أثر رسوله، صلى الله عليه وسلم، في معالجة المشكلات والنوازل، وبعدها يعبر حال المختلفين، عن مقولة: (الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية)، فما بالكم إذا تعلقت بهذا الود مصالح الأمة العامة، ومصالح دينها ومقدساتها، وسياساتها في مواجهة أعدائها المتربصين بها؟!

فهذه أدلة صحيحة معتبرة على شرعية تعدد وجهات النظر والآراء في مثل هذه المسائل والقضايا، دون الذهاب إلى الانتصار الفظ والمفرط للمواقف والآراء، والزعم بأن العمل المنبثق عنها حلال وشرعي، وأن عمل الطرف الآخر المخالف حرام وغير شرعي.

فتوى دار الإفتاء الفلسطينية:

يجدر في هذا المقام الإشارة إلى أنه سبق لدار الإفتاء الفلسطينية أن أصدرت فتوى جواباً عن سؤال وردها حول حكم الشرع في زيارة المسلمين للأراضي الفلسطينية بعامة، والمسجد الأقصى المبارك بخاصة، في ظل الظروف الحالية؟

جاء فيها أنَّ فلسطين أرض باركها الله في كتابه العزيز، وأسرى إليها رسوله المصطفى، صلى الله عليه وسلم، وأخبر الله عن ذلك، فقال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}. (الإسراء:1)

وإن من أبرز واجبات الأمة الإسلامية أن تعمل جهدها لتحرير هذه الأرض المباركة، ومسجدها الأقصى، حتى تكون مفتوحة لمن يشد الرحال إليها، ابتغاء رضوان الله وثوابه،

مع التأكيد على أن شد الرحال إلى المسجد الأقصى في ظل الاحتلال يختلف عنه في ظل الحرية والأمان.

فإذا أدرك المسلمون مدى مسؤوليتهم وواجبهم نحو الأرض الفلسطينية والقدس، فلن يكون إشكال في زيارتها، في إطار الضوابط الشرعية التي تجب مراعاتها، ومنها:

- رفض تكريس الوضع الاحتلالي للأرض الفلسطينية والقدس والمسجد الأقصى المبارك.
- تجنب الخوض في أي إجراء يصب في مصلحة تطبيع علاقات المسلمين مع الاحتلال، الذي يأسر أرضنا وشعبنا وقدسنا وأقصانا.
- التنسيق مع الجهات الفلسطينية المسؤولة، التي تتولى المسؤولية عن زيارات الأرض المحتلة.
- أن تكون الزيارة للأرض الفلسطينية تأكيداً لهويتها العربية والإسلامية، ورفضاً للاحتلال، وعوناً للمرابطين فيها على الصمود حتى التحرير.

وختمت الفتوى بالإشارة إلى مناشدة المسلمين مراراً وتكراراً من خلال الخطب والفتاوى والبيانات بضرورة الحفاظ على المسجد الأقصى المبارك، والقدس، وأرضنا الفلسطينية، وعمارتها وحمايتها من الاستيطان والتهويد. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الفتوى صدرت بتاريخ 28/صفر/1433هـ، وفق 22/كانون ثاني/2012م؛ أي قبل وقوع السجال الذي رافق بعض الزيارات الأخيرة للمسجد الأقصى، فإذا انتفت الموانع التي نبهت إليها هذه الفتوى من خلال الضوابط التي حددتها لإباحة شد الرحال إلى المسجد الأقصى وزيارة الأراضي الفلسطينية الواقعة تحت الاحتلال، فلماذا يبقى الإصرار على منع هذه الزيارات أو تحريمها، والقدس وأقصاها على وجه الخصوص يعانيان الوحدة والكيد الماكر، والإفراغ من الجموع البشرية المؤمنة، تحت ضغط قيود الاحتلال وإجراءاته الصارمة، فلماذا يسد الباب أمام المدد البشري المؤازر للوجود العربي والإسلامي في القدس؟

المطلوب موقف لا يجامل قريباً ولا يناكف بعيداً:

فالموقف إذن من شد الرحال إلى المسجد الأقصى في ظل الاحتلال، يبقى رهن المعايير الشرعية، والاعتبارات السياسية المعتبرة، التي تصب في صالح بقاء الأقصى والقدس وأهلهما سالمين مما يحاك لهم من كيد، ويدبر لهم من سوء في السر والعلن، على درب تدميرهما، أو سلخهم عن هويتهم، وتجريد القدس من ساكنيها المسلمين والمسيحيين، وحرمان المسجد الأقصى من رواده الذين يشدون الرحال إليه، من المؤمنين بأولى القبلتين، ومسرى البشير النذير، محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم.

وهذا يقتضي أن يتبلور الموقف المطلوب حيال هذه القضية بالغة الحساسية والأهمية، بعيداً عن الانغلاق الحزبي والمذهبي، والتبعية العمياء لأشخاص من هنا أو هناك، وفي منأى عن أساليب الانتصار التعصبي للآراء الشخصية، التي تبدو أحياناً، وكأنها تعبر عن أمر يتعلق بتحديات على حلبات المصارعة، أو المبارزة في ساحات الوغى.

وطبيعي أن يجد ما قلنا آنفاً قبولاً أو تفهماً من بعض الناس، ورفضاً من بعضهم، غير أنها وجهة نظر لا بد من التعبير عنها حول هذه المسألة، مناشدين المخالفين والموافقين، أن يتقوا الله في فتاوى الحلال والحرام، وأن يتقوا الله في الظرف المكاني المقدس الذي يختلفون من أجله، وفي الظرف الزماني الحرج الذي يختلفون فيه، والله أولاً وآخراً أعلم بالمقاصد والنوايا، وهو تعالى يعلم المفسد من المصلح، وهو القائل جل شأنه: {وَمِنهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ}. (يونس: 40)

في ظلال القدس عاصمة الثقافة العربية لعام 2009 م
إطلالة على ثانوية الأقصى الشرعية، مقرونة بمناشدة لاعتماد شهادتها

في الأروقة الشمالية الشرقية للمسجد الأقصى المبارك، بين باب الأسباط شرقاً، وباب حطة غرباً، يقع مكانها الذي تعلوه مئذنة باب الأسباط، وهي مرتبطة بالتاريخ والآثار والثقافة والتعليم والدين والقداسة، إنها مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية، التي أنشأها حريصون على القدس ومسجدها، غيورون على دينهم وثقافتهم ومستقبل أمتهم وأجيالهم، فقد شهدت بدايات النصف الثاني من القرن الماضي في أواخر العقد السادس منه عام 1958م ولادة هذه المدرسة، التي شكلت منذ تخريج أول فوج منها رافداً مميزاً للمجتمع الفلسطيني من متخصصي العلم الشرعي في ميادينه المختلفة، كالإمامة والخطابة والوعظ والإرشاد والقضاء الشرعي، فنالت من البركة التي أسبغها الله على المسجد الأقصى المبارك، والتي نص عليها قوله تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}(الإسراء:1)، وكثيراً ما تحدث المتابعون لهذه المدرسة في مجالسهم وكتاباتهم وآثارهم عن هذه البركة، التي لمسوها في واقعهم، فقد تولدت عن هذه المدرسة معظم المؤسسات التعليمية المتخصصة بالتعليم الشرعي في القدس، وعدد من مدن الضفة الغربية وخارجها، فمدارس الثانوية الشرعية في الخليل ونابلس وجنين والبيرة والثانوية الشرعية للبنات في القدس، وما يتبعها من مدارس أخرى، جاءت بصورة أو بأخرى لمتابعة السير على خطى ثانوية الأقصى الشرعية، والتي نشأ في محيطها ومن قبل إدارتها المعهد الشرعي، الذي سمي فيما بعد (كلية العلوم الإسلامية) التي كانت نواة لكلية الدعوة وأصول الدين، ثم كلية القرآن والدراسات الإسلامية، وعلى

غرار هذه النشأة أيضاً تأسست كلية العلوم الإسلامية في قلقيلية، التي تطورت إلى كلية جامعية للشريعة الإسلامية.

وعند تفحص المراكز والمناصب والوظائف التي احتلها خريجو هذه المدرسة، عبر سنوات عمرها الخمسين، تبرز أهمية الدور الذي تؤديه هذه المدرسة، فبعض خريجيها أصبحوا وزراء ومفتين وقضاة وخطباء وأئمة، ومن حملة الشهادات العليا، ومدرسي جامعات، وغير ذلك من أصحاب الوظائف والمراكز المهمة.

وحظيت هذه المدرسة برعاية إدارة الأوقاف الإسلامية في القدس، ومؤازرة الهيئة الإسلامية العليا ومجلس الأوقاف، ووزارة الأوقاف في المملكة الأردنية الهاشمية، وبعد تأسيس السلطة الوطنية الفلسطينية، انتقلت رعاية المدارس الشرعية ومؤسسات التعليم الشرعي في مدن الضفة الغربية إلى وزارة الأوقاف الفلسطينية، وبقيت مدرسة ثانوية الأقصى الشرعية في القدس تحت رعاية إدارة الأوقاف الإسلامية في القدس، ووزارة الأوقاف في عمان، وكان طلابها يحظون ببعثات دراسية لإكمال دراساتهم الجامعية في عدد من أهم الجامعات العربية؛ كالأزهر الشريف في القاهرة، وجامعات المملكة العربية السعودية، وكلية الشريعة في قطر، وكلية الشريعة في الجامعة الأردنية.

ولم يتوان أهل الخير عن دعم هذه المدرسة وطلابها، فتابع عدد من خريجيها الدراسة في الجامعات، على نفقة بعض المحسنين الذين كان جلهم من مدينة القدس وما حولها، فكان بعض الأشخاص الميسورين، وكذلك بعض العائلات، يتعهدون بتقديم نفقات مالية تغطية للبعثات الدراسية للطلبة المتفوقين من خريجي هذه المدرسة، لإكمال دراستهم الجامعية في الخارج على نفقتهم الخاصة.

وبمناسبة الاحتفال بالقدس عاصمة للثقافة العربية لعام 2009م، يجدر تسليط الضوء على دور هذه المؤسسة العريقة في ثمارها، ومددها، ووجودها، ومكانها، وتاريخها، ومضمون عملها، ومناهجها، لإعطائها بعض حقها على مجتمعنا، وتراثنا، وتعليمنا، ووجودنا في القدس، وقلبها النابض المسجد الأقصى المبارك.

لقد كانت هذه المدرسة رائدة في تبني بعض المهرجانات الثقافية، والمشاركة في بعضها الآخر، وكانت تحوز على درجات مميزة ومتفوقة بين كبار مدارس القدس في هذا المجال، بالإضافة إلى تواصلها الثقافي مع شقيقاتها المدارس الشرعية في الضفة الغربية على أكثر من صعيد.

إن هذه المؤسسة المقدسية تعاني من مشكلة قديمة جديدة(*)، وجدت حلاً لها مؤخراً في المدارس الشرعية في المملكة الأردنية الهاشمية، والمدارس الشرعية في الضفة الغربية، وتتمثل هذه المشكلة في معاناة طلبة المدارس الشرعية جراء أعباء الدراسة المزدوجة، فهم يدرسون المنهاج الشرعي مضافاً إليه منهاج العلوم الإنسانية – الأدبي– أو المنهاج العلمي، ويتقدمون في نهاية المرحلة الثانوية لامتحان شهادة الدراسة الثانوية العامة في أحد المنهاجين الأخيرين، دون المنهاج الشرعي، مما يترك انطباعاً لدى الطلبة وذويهم أن دراستهم تتم دون رعاية، ومن غير حفظ حقوقهم من قبل الجهات الرسمية، التي يؤمل منها أن تعيد النظر في موقفها من شهادة الثانوية الشرعية بالطريقة التي تجدها مناسبة، مراعاة لمصلحة الطلبة والمؤسسات التعليمية، التي أضحت تعاني من إهمال مسارها الخاص بالتعليم الشرعي، الذي أنشئت من أجله، واشتهرت برعايته، وأثبتت وجودها بخريجيه، وأثرهم في المجتمع الفلسطيني وخارجه.

فهل تحذو وزارة التربية والتعليم الفلسطينية حذو شقيقتها الأردنية، التي أنشئت المدارس الشرعية لديها بعد عقود من نشأة المدارس الشرعية في القدس ومدن الضفة الغربية، غير أن مدارسها تجاوزت مشكلة الشهادة بتخصيص مسار خاص بالثانوية الشرعية، إلى جانب مسارات التعليم الثانوي الأخرى، وعندنا توجد المسارات نفسها، باستثناء المسار الشرعي، فتعقد امتحانات الثانوية العامة من قبل وزارة التربية والتعليم لكل الفروع؛ العلمي، والعلوم الإنسانية، والصناعي، والفندقي، والتجاري، والتمريضي، سوى الفرع الشرعي

* كتب هذا المقال عام 2009م،وقد تم بعد ذلك بحمد الله تعالى تجاوز هذه المشكلة، باعتماد مسار رسمي للامتحان الشرعي ضمن الامتحانات الرسمية للثانوية العامة في فلسطين والأردن.

الذي بقي ينتظر قراراً بإقراره واعتماده، وسيكون هذا الإقرار لو حصل بمثابة هدية ثمينة للقدس، يفرح بها، وينتفع منها، كثير من المرابطين في أرض الإسراء والمعراج وما حولها، مما يعزز من صمودهم، ويقوي عزيمتهم، ويشد على أيديهم، وهم يشدون الرحال وفلذات أكبادهم إلى المسجد الأقصى المبارك، ليعمروه بالعلم والدراسة والعبادة، ومن أجل أن تبقى ثانوية الأقصى الشرعية وشقيقاتها المدارس الشرعية في الضفة الغربية وغزة منارات مشعة في ربوع وطننا الغالي، فهل من مجيب؟!!

إن الأمل معقود أن تجد هذه المناشدة الآذان الصاغية لدى المسؤولين وأصحاب القرار، للمساهمة في رفع المعاناة عن التعليم الشرعي في القدس، من خلال اعتماد مساره رسمياً، بما يساهم في المحافظة على الهوية، وجذور المؤسسات الفلسطينية في القدس، حتى يبقى المسجد الأقصى المبارك عامراً برواده من طلبة العلم، على هدي السلف، الذين تشهد لهم مساطب الأقصى وأروقته وقبابه، بتلقي التعلم وأداء التعليم في جنباته.

سائلين الله أن يعيد للمسجد الأقصى مجده، وأن يوفقنا للعمل الجاد بكل ما توفر لدينا من إمكانات ووسائل وأساليب للمحافظة على هويته الإسلامية، ودوره العلمي البارز الذي يعتز به كل غيور ومخلص وحريص على الوجود العربي الإسلامي في مدينة القدس.

تعقيب مهم:

تأكيداً لما أشير في الصفحة السابقة، فقد تم بحمد الله تعالى، تحقيق إنجاز فاعل ومهم على صعيد الاعتراف بشهادة الثانوية الشرعية، وذلك من خلال اعتمادها رسمياً من قبل وزارة التربية والتعليم لمسار التعليم الشرعي، محققة بذلك حلاً لمشكلة كانت مستعصية، وقافزة بالمدارس الشرعية وطلابها قفزة نوعية إلى الأمام، وبهذه المناسبة يطيب المقام لشكر وزارة التربية والتعليم ووزارة الأوقاف والقائمين على المدارس الشرعية، الذين ساهموا في تحقيق هذا الإنجاز الفاعل المشكور.

الفصل الخامس
الفتوى

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
.27	الفتوى بين المتربصين والمسيئين والمستوى المنشود	193
.28	صرخة استفاقة لمتهافتي الأدعياء ومتبذليهم	199

الفتوى بين المتربصين والمسيئين والمستوى المنشود

تعني الفتوى في اللغة الكشف والبيان والإيضاح والإخبار، ويدل معناها الاصطلاحي على جواب ما يَشْكُل من الأحكام والمسائل الفقهية.

ووظيفة المفتي تتلخص في بيان الحكم الشرعي في مسألة من المسائل، أو في أمر من الأمور. ويقتضيه هذا العلم بالقرآن، والسنة النبوية، وفتاوى سلف العلماء وخلفهم، فيما يخص المسألة التي يفتي فيها، على أقل تقدير، كما لا بد له من الإحاطة الواعية بالظروف والبيئة المحيطة بحال السائل ومسألته. وينبغي للمفتي كذلك أن تكون له قدرة على تحليل المواقف وربطها بالأحكام الشرعية.

ويجدر به أيضاً بذل الجهد في طلب الدليل الشرعي، ولا يصح له تجاهل الأخذ به، أو التقصير في العمل بموجبه، فهو النبراس والمستند الرئيس للفتوى الشرعية.

الاختلاف في الفتوى:

والفتوى بمعناها الشرعي تنبع من اجتهاد في دلالات النصوص الصحيحة على الوقائع والمسائل والحوادث، والمفتي بشر يصيب ويخطئ، والذي يؤديه فهمه لشيء قد يجد مخالفاً له في الشيء نفسه ودليله، لأسباب مختلفة، منها: اختلاف مستويات الفهم بين الناس، فلا عجب ولا غرابة أن نجد الناس قد اختلفوا في الفتوى منذ زمن بعيد، حتى في عصور الخير، وأقربها صلة وزمناً بالرسول، صلى الله عليه وسلم، وكبار صحابته وخلفائه الراشدين، فقليلة هي المسائل الفقهية التي حظيت بإجماع أهل الفتوى عبر التاريخ الإسلامي.

وجميل بالمرء أن يطلع على ما ورد في كتاب رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية، ليجد مسوغات حقيقية لوجود الاختلاف في الفتوى والمسائل الفقهية بين العلماء، بل بين

أئمتهم وخيارهم. حتى إن الصحابة، رضي الله عنهم، اختلفوا في فهم بعض النصوص الشرعية والرسول، صلى الله عليه وسلم، بين ظهرانيهم، وشواهد ذلك كثيرة، من أشهرها اختلافهم في فهم المراد من أمره صلى الله عليه وسلم أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، فلما أدركتهم صلاة العصر وهم في الطريق إليها، صلى بعضهم، وامتنع آخرون، فالذين صلوا في الطريق أداهم فهمهم إلى أن الرسول، صلى الله عليه وسلم، قصد الإسراع في المسير إلى بني قريظة، ولم يرد حقيقة تأخير صلاة العصر لو أدركتهم في الطريق، أما الفريق الثاني فأخذوا الأمر بظاهره دون تأويل فسارعوا بالمسير، وحين أدركتهم الصلاة في الطريق أجلوا أداءها إلى حين الوصول إلى بني قريظة، والمهم أن الفريقين لما عادا إلى الرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يعنف أياً منهما، بل قبل من كليهما ما أداه إليه فهمه، في إشارة دالة بوضوح على مشروعية الاختلاف في الفتوى المستنبطة من النصوص ظنية الدلالة التي تحتمل التباين في الفهم، انطلاقاً من إمكانية وقوع ذلك التباين من بشر لهم عقول وأذهان متباينة في النظر والمستوى والربط...إلخ.

غير أن الاختلاف في الفتوى ليس كله معتبراً في ميزان الشرع الحنيف، فالاختلاف منه المبرر، ومنه الشطط، فالمبرر ما كان هدفه الحق، وغايته الوصول إلى حقيقة الحكم، وسبيله قواعد الاستنباط السليمة، التي تكون وفق شروط الإفتاء الشرعي.

أما شطط الاختلاف في الفتوى فهو الأرعن الذي ينطلق من الهوجائية، دون أن يقيم للأصول الشرعية اعتبارها اللازم، وفق ميزان الشرع الحنيف، ومعايير الفتوى الصحيحة.

الفتوى علم قائم بذاته:

فالفتوى علم قائم بذاته، ومثلها مثل كل العلوم، فلكل علم قواعده وأصوله، إذ لا يعقل أن يقحم شخص نفسه في علم الطب، أو الصيدلة، أو الهندسة، أو الرياضيات، دون أن يكون لديه إلمام بقواعد تلك العلوم، ومباحثها، ومصطلحاتها، ومفاهيمها،

وأصولها، وفروعها، ولا نجد مخالفاً في إقرار هذا الحق لكل علم من العلوم المذكورة، ولكن الغرابة تبدو جلية، حين نجد السماح باقتحام حصون الفتوى من غير أهلها، وقبول ذلك من فاعليه، وكأن من حق أي شخص أو فئة الإفتاء دون التقيد بأي مرجعية أو معيار. وفي هذا تعسف واضح، وللأسف أن بعض الناس يبدو أنهم يتجاهلون هذا التجني رغم وضوحه، بدليل أنهم يحاجون بسفاسف الفتاوى وشواذها، ولو ردوا الفتاوى إلى أولي الأمر من العلماء لعرفوا الحقيقة دون مواربة، والله تعالى يقول: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً}. (النساء: 83)

بل إن بعض المتربصين يبعد في الشطط فيحاجج في الفتاوى المشبوهة انطلاقاً من العداء للدين، وبهدف الطعن فيه، وهؤلاء يتصيدون ما يلتبس على بعض الناس من فهم لبعض أمور الدين التي يرد ذكرها في بعض النصوص الشرعية، بهدف التشكيك بالدين وأحكامه، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (تَلَا رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هَذِهِ الْآيَةَ {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ...}[1] قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِذَا رَأَيْتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكِ الَّذِينَ سَمَّى اللهُ فَاحْذَرُوهُمْ).[2]

اتجاهات معاصرة حيال الفتوى:

وبعد هذه التوطئة عن مفهوم الفتوى ودلالتها، وعن مشارب المختلفين فيها، ننطلق بالإشارة إلى ما يشهده واقعنا المعاصر من اتجاهات حيال الفتوى ومواقف، من حيث مستواها

1. {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ... الْأَلْبَابِ}(آل عمران: 7)
2. صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة آل عمران، باب {منه آيات محكمات}(آل عمران:7).

ومضمونها ومصادرها وشروطها ومجالها وقضاياها، فهناك اتجاه هدفه معرفة الحقيقة والتوصل إلى الحكم الشرعي الصحيح، وضابطه التقيد بالأصول الشرعية الخاصة بالفتوى، وعماده بذل الجهد في البحث عن إجابة السائلين، أو بيان حكم شرعي في الواقعة، أو المسألة، موضوع الفتوى، ومرتكزه الدليل الشرعي الصحيح، ثم القواعد السليمة في استنباط الحكم الشرعي، وإصدار الفتاوى، إذ إن الاقتصار على الوقوف عند الدليل لا يكفي، إن لم تُتبع الطريقة الصحيحة في التعاطي معه، وحتى نقرب الصورة نضرب المثال الآتي: فلو أردنا طعاماً معيناً، فإن مجرد حصولنا على مواده لا يوفر لنا الطعام المطلوب، فلا بد من الدراية بكيفية عمل ذاك الطعام، والشروع فعلاً بخطوات العمل، وفق الطريقة المنظمة والمعدة لعمله.

عوامل اختيار الفتوى:

والفتوى تتعلق بالمسائل التي يطرحها الناس، أو بالأحداث والوقائع التي يشهدها واقعهم، ويتساءل الناس أحياناً عن مواضيع الفتاوى التي يتصدى لها المفتون، لماذا هذه دون غيرها؟! لماذا الاهتمام والتركيز على محاور وأبعاد معينة، وتجاهل غيرها؟!

وعند تحري الإنصاف والموضوعية في الإجابة عن هذه التساؤلات، تجدر الإشارة إلى عوامل عدة تؤثر في اختيار موضوع الفتوى، ومستواها، وحياديتها، ودقتها العلمية، ومن تلك العوامل:

1 . المستوى العلمي للمفتي.

2 . قدرة المفتي على تحليل المواقف والأحداث، وربطها بالحكم الشرعي المناسب.

3 . مدى إخلاص المفتي، وصدق نيته، وبعده عن النفاق والخداع، وكتم العلم، وجرأته على قول الحق، وعدم الرضوخ للطمع والتخويف.

4 . مدى إتاحة المجال للمفتي ليعبر عن رأيه، دون ممارسة أي ضغوط فعلية، أو تهديدية عليه، ليفتي حسب مصالح، أو أهواء الجهات الضاغطة، أو ثنيه عن قول الحق، أو التعبير عن قناعته بالحكم المناسب.

5 . مدى تقدير الناس للفتوى، واهتمامهم بها.

6 . المواضيع التي يطرحها الناس للفتوى.

فإذا وجد المفتي المؤهل دينياً، وعلمياً، وشخصياً، وأتيح له المجال ليصدر فتواه المستنبطة من الدليل الشرعي الصحيح، وفق الضوابط الشرعية التي تشترط في الفتوى والمفتي، فإننا سنشهد انقلاباً جذرياً في عالم الفتوى، يكون التركيز فيه على مستجدات الأمور، وعلى قضايا الناس ومشكلاتهم، والمواضيع التي تثير اهتمامهم، دون الهبوط إلى درك الأمور وسفاسفها، وسينأى بالفتوى عن المجاذبات السياسية، وستحمى من المناكفات الحزبية والمذهبية، وستبرأ من الظهور بألوان الأطياف الحزبية، أو السياسية، أو المنفعية، وحينها تعود الثقة بالفتوى، وتصبح كما يرجى لها محط تقدير عامة الناس، واحترام خاصتهم واهتمامهم.

فالمسؤولية إذن لا تقع على عاتق المفتي وحده، رغم أنه لن يكون بحال من الأحوال في منأى عن تحمل نصيبه في الأسباب التي آلت إلى ما آل إليه واقع الفتوى في مجالي النجاح أو الفشل، فهو ركن أساس، ولكن المجتمع بأنظمته وقوانينه وسياسته وجماعاته وأحزابه وأفراده يشاركون كل بسهمه في تحمل المسؤولية عن ذلك.

التربص بالفتوى والمفتين:

وحتى لا تختلط الأمور والأوراق لا بد من إعلان البراءة الحقيقية من الفتاوى السخيفة والمنحرفة عن جادة صواب الشرع وأدلته، أياً كان مصدر تلك الفتاوى، فكل فتوى تنطلق من المزاجية، وتتفلت من الضوابط المشروعة، وتتجاهل الأصول المقررة للفتوى، هي فتوى مرفوضة، ولا تعبر بحال من الأحوال عن موقف الشرع الحنيف وحكمه، سواء صدرت عن شخص، أم هيئة، أم حزب، أم دولة، من عجم أم عرب، فهي مردودة على أصحابها، ومشجوبة من كل مخلص صادق غيور على حرمة الدين وقداسته، ومن كل حريص على تحري الحقيقة.

وتتعرض الفتوى بين الحين والآخر للبحث والتعليق والمتابعة من قبل وسائل الإعلام

المختلفة، سواء من خلال عرض الفتاوى المثيرة، أم عن طريق التعقيب عليها، وتحليلها، وتبني مواقف منها، والبناء عليها.

وبعض المغرضين يتربصون بالفتوى الدوائر، تربص مرضى القلوب بالدين الإسلامي وأركانه ومصادره ورموزه، فيسيحون في الأرض متتبعين عثرات المفتين، وسقطات الفتاوى، مبتغين التشهير، والطعن، وإثارة الشبهات، ونشر المكائد، ومن أساليبهم في ذلك الإتيان بمقاطع مبتورة من الفتاوى، تاركين تتماتها الموضحة، سعياً وراء إبراز مواضع الشبهة **ومواطنها**، ومخرجين النصوص بالبتر عن حقيقة دلالتها، على نهج من قرأ قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ...} وسكت دون أن يقرأ بقية الآية {وَأَنتُمْ سُكَارَى}.(*)

وما أكبر جرم المفتي الذي يتصدى للتركيز على هوامش القضايا، ويتجاهل أمهات الأمور، والطامات الكبرى التي تئن من ثقل عبئها الأمة، وتعاني من الاكتواء بنارها الإنسانية برمتها.

والمزاجيون يريدون الفتوى مفصلة على مقاييس أهوائهم، وملونة بأصباغ مذاهبهم، فيسخرون بالفتوى التي تحرم ما حرمه الشرع، ويستخفون بالتي تحل الحلال الذي جاء به الدين، إذا كان حرام الشرع وحلال الدين يتناقض مع ما ذهبوا إليه في الحل والتحريم.

ومن ناحية أخرى لا بد من الإشارة إلى أن بعض أصحاب صرعات الفتاوى يتجاوزون الخطوط الحمراء حين يقبلون لأنفسهم أن يكونوا مادة للاستخفاف والتندر، أو أبواباً لتسريب الطعن إلى دينهم وقيمهم، فاتحين الأبواب على مصاريعها للمتصيدين في المياه العكرة، غير آبهين بالضرر الذي يلحقونه بدينهم والطعن بأحكامه والهزء بأتباعه، والإساءة للدعوة إليه، ولو أن هؤلاء صدقوا دينهم لاتقوا الله في فتاويهم.

* {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ}(النساء: 43)

صرخة استفاقة لمتهافتي الأدعياء ومتبذليهم

أثنى الله تعالى على العلماء، وأشاد بمكانتهم، والناس في ميزان العلم مستويات ومراتب، عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: (كَانَ يُقَالُ: الْعُلَمَاءُ ثَلاَثَةٌ؛ عَالِمٌ بِاللهِ يَخْشَى اللهَ؛ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللهِ، وَعَالِمٌ بِاللهِ، عَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ، يَخْشَى اللهَ، فَذَلِكَ الْعَالِمُ الْكَامِلُ، وَعَالِمٌ بِأَمْرِ اللهِ، لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللهِ، لاَ يَخْشَى اللهَ فَذَلِكَ الْعَالِمُ الْفَاجِرُ).[1]

فالعلماء منهم النافع، وبعضهم لا يتعدى كونه زبداً، والله تعالى يقول: {أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ}(الرعد:17)

عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنْ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:(مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا، وَسَقَوْا، وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ) [2]

وإن الصنف الصادق من العلماء لم ولن ينقطع وجوده، ولم يندثر من ساحات العلم والوغى، فهم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وفقهوا مستلزمات رسالتهم، وعرفوا طريقهم إلى العلم والعمل، وهؤلاء يشكلون جزءاً مهماً في صدارة الطائفة التي جزم الرسول، صلى الله عليه وسلم، ببقائهم على الحق ظاهرين، فعَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، عَنْ

1. سنن الدارمي، في المقدمة، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، 1/ 114.
2. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علم وعلم .

النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: (لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ) (*)

ومع كل اليقين بالشواهد الشرعية التي بينت فضل العلماء، ومع الإقرار بأهمية العلماء ومكانتهم، إلا أن المرء يجد نفسه مضطراً لأن ينحو بالحديث عن أدعياء العلم ممن امتطوا العلم شكلاً خاوياً من المضمون، وتبذلوا به، لينالوا مطامع زهد في أفضلها علماء السلف المحترمين.

فالمتطون المتسلقون الوصوليون، هم المتبذلون المتهافتون، الذين رضوا لأنفسهم أن يكونوا وصمة في جبين العلم، فنزلوا عن المعالي إلى الدرك، ورضوا الدنية دون السمو، فباعوا علمهم بعرض هزيل، وتنازلوا عن دينهم دون مقابل يذكر، سوى المنافقة لمن استرخصهم، فاستخفهم وأطاعوه.

ورب سائل عن هؤلاء، من هم؟ وبديهي أن لا يشمل الجواب أسماء أعيان من الناس، وإنما يمكن التعرف إلى صنفهم من أوصافهم، فهم من علموا ولم يعملوا، أو علموا ليشار إليهم بالبنان، ويقال عنهم علماء، أو هدفوا للتكسب بعلمهم دراهم ومناصب وشهرة، غير آبهين بالأثمان، فحين جاء السعي، رأيتهم يلهثون جرياً وراء مسميات، أو دعاية، وهم عراة من كل وقار، فخلعوا عن وجوههم خلال جريهم براقع الحشمة والوقار، ولم يبقوا حتى ورق التوت على سوءاتهم، فبرزوا في قلوب الخلق ومكنونات نفوسهم عراة من أي حشمة أو احترام.

وينبغي أن يعلم أن الحديث هنا عن هذه الشريحة، دافعه الغيظ من حركاتهم الرعناء، والحنق على مواقفهم المخزية، فتراهم علمياً دون الضحالة في المستوى، لكنهم ذئاب في

* صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق يقاتلون. وهم أهل العلم.

التنافس على الظهور، أو المخاصمة على الصلاحيات، أو الهلع وراء المشاركة في البروز الإعلامي، أو الحرص على تحصيل مكاسب مادية، وامتيازات نفعية، لهم وذراريهم، وكأن علمهم لم يقدهم بعد لإدراك أنهم يركضون لتحصيل مطامع، لها أول دون آخر، فلو أعطوا الدنيا برمتها ما شبعوا لجشعهم، عَنْ عَبَّاسِ بْنِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قال: (سَمِعْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ عَلَى الْمِنْبَرِ بِمَكَّةَ فِي خُطْبَتِهِ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلْئًا مِنْ ذَهَبٍ، أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ ثَانِيًا، أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ) [1]

ومن أبشع صنيع متهافتي أدعياء العلم، تنافسهم على صلاحيات شكلية، ومكاسب دونية، على الرغم من علمهم بتحذير الرسول، صلى الله عليه وسلم، من عواقب التنافس على الدنيا، فقال: (فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ)[2].

فإذا كان جشع عامة الناس مصيبة، فكيف إذا كان صفوة المسلمين - حسب الأصول المفترضة - هم المتنافسون على المطامع والمصالح ؟!

لا أظن أحداً يماري في أن المسلمين يعانون اليوم من أزمة علماء، وهي دون شك معاناة صعبة، وقاصمة من أعتى القواصم التي تعصف بأركان الأمة، وتبعث الوهن في كيانها.

فحين عرف العلماء دورهم، وأدوا واجبهم، وتحلوا بقيم الإسلام، وعملوا بأحكام الدين ومقتضيات علمهم، برزوا في ميادين الشهامة، وكانوا عوناً على الحق، للأمراء والقادة والشعوب والحكام، فحازوا احترام الخلق، بعد أن تجهزوا لذلك باحترام أنفسهم أولاً،

1. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب ما يتقى من فتنة المال، وقول الله تعالى: {إنما أموالكم وأولادكم فتنة}. (التغابن: 15)

2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدراً.

فالعلماء كاليد، حين تكون أمينة تكن ثمينة، وحين تخون تهون، قيل هذا عن اليد رداً على من اعترض على قطعها بالسرقة، وهكذا العلماء لما احترموا أنفسهم وقاموا بواجبهم، احترمهم السلاطين، وكانت لهم هيبة وعزة ومنعة، وحضور قوي في نفوس الناس وواقعهم، وحين تخلوا عن دورهم، ونزلوا عن أعلى درجات السلم إلى أدناها، خسروا كل شيء، حتى أنفسهم، فمن يهن يسهل الهوان عليه، فصار احترامهم لا يتعدى ظواهر المجاملة، وصار حديثهم لا يسمع، وفقد الناس الثقة بهم، وأصبحت تسمع بين الفينة والأخرى عن أخبارهم ما لا يسر صديق، ولا يحزن عدو.

فهؤلاء هم المشاركون في العمل على إماتة الدين في نفوس الخلق، هم المشوهون له، والمشوشون على من يبحث عن الحقيقة الصادقة الناصعة الصالحة، فجرمهم كبير كبير، وإثمهم عظيم.

هؤلاء هم الذين يجرون لتحصيل المزيد من الامتيازات الشخصية، ويركضون وراء الشهرة والمراكز والمناصب، ويتنافسون في تقديم أشكال منوعة من أطباق التملق لأصحاب النفوذ، من المسؤولين والأحزاب والهيئات، طمعاً في نيل الحظوة لديهم، فكانوا لهم خائنين لا ناصحين، فلو صدقوهم لبينوا ونصحوا، أما وقد تملقوا، وحسنوا المنكر والخطأ لفاعليه، فقد خدعوا وكذبوا، وكانوا لهم بطانة سوء، والنبي، صلى الله عليه وسلم، يقول:(مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيٍّ وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ؛ بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ، وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، فَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعَالَى)[*]

إن أدعياء العلم في عصرنا يتبوأون أدوار العلماء ومناصبهم، ويتسمون بأسمائهم، ويحملون ألقابهم، وهم بعيدون عنهم بعد المشرقين، ومن شك في وجودهم، أو لم يصدق

* صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب بطانة الإمام وأهل مشورته البطانة الدخلاء.

وصفهم، أو رأى فيه تجنياً أو مبالغة، فنرجوه غاية الرجاء، أن يستبدل نظارته بأخرى، مجهزة بعدسة التدبر الموضوعي والحيادية، عساه يسعف في تشخيص الخلل، والتعرف إلى العلاج، إذ إن الأعراض الأولية تشير إلى تنكب واضح لدرب الحق والعلم والدين من قبل كل من يدعي العلم، ويتساهل مختاراً في التنازل عن أحكام الشرع الحنيف، فإذا كانت شجاعة العلماء وجرأتهم مفخرة في الدين والدنيا، فإن الاستعاضة عنها بالنفاق والمخادعة والتملق أمر ترفضه قيم الدين وأحوال العلماء الصالحين، وحتى لا نكون ظلاميين أو مجحفين، نذكر بمواقف خيار العلماء الذين سجل لهم التاريخ صفحات مشرقة، كموقف الشيخ سعيد الحلبي الذي رد عطية الأمير إبراهيم باشا، قائلاً لحاملها: عد بنقود سيدك وردها إليه، وقل له: إن الذي يمد رجله، لا يمد يده.

وعملاً بأن لا تكلف نفس إلا وسعها، فلا بد من الإشارة إلى أن العالم إن أخذ بالعزيمة فصدع بالحق، فهو مع سيد الشهداء، لقوله صلى الله عليه وسلم: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر، فأمره، فنهاه، فقتله).(*)

وإن أخذ العالم بالرخصة فسكت جبناً أو خوفاً وأنكر في قلبه ووجدانه، فقد كان في مصاف ضعاف الإيمان، أما إن تجاوز أحكام الشرع بغماز المجاملة أو المنافقة، فلن يقبل منه ذلك في حال من الأحوال.

إن الأمة قادة وشعوباً على مختلف المستويات والأطياف أمانة في رقاب العلماء، ومسؤولية العالم جليلة، فلا تجعلوها أيها الأدعياء هزيلة، قوموا من هزالكم مسارعين لأخذ مواقعكم، واضعين نصب عيونكم منازلكم التي أعدها الله لعباده العلماء، فلا بد لكم من وقفة مراجعة مع النفس، تستعرضون فيها مواقفكم، وتحاسبونها قبل أن يحاسبها الله، فإن وجدتموها على

* المستدرك، الحاكم، 3/ 195، وحسنه الألباني.

هدى، فأنتم على خير، وإن كان يلفها الزيغ والانحراف واتباع الهوى، فأنتم على شفا جرف هار، والعياذ بالله.

فتدارسوا العلم وتعمقوا في استيعابه، وتشربوا معانيه، والتزموا قيم الدين ومبادئه وأحكامه، وكونوا قدوة صالحة للراعي، وأسوة حسنة للرعية، وإلا فالخزي والعار يلاحقانكم أينما حللتم، ولا تنخدعوا بالوهم الذي يسول لكم أنكم حزتم خير الدارين، فأنتم في المظاهر والمسميات علماء، ولكنكم وهم زائل، مغايرون للمخلصين الأوفياء من علماء الأمة الذين نالوا الشهرة والسمعة الطيبة التي ما زالت تذكر لهم بما قدموا من حسن العمل وشجاعة المواقف، وذلك هو الدرب الذي نتمنى لكل من أراد السير على هدى أولئك الأخيار نفسه، فهل من مجيب؟!

الفصل السادس
سلوك وآداب

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
29.	الجاهلية تواصل مسيرتها في نبذ الفضيلة	206
30.	نحن وثقافة الاعتذار	211
31.	وجهة نظر دينية في جرائم الشرف	217
32.	وجهة نظر في .... فهم الآخر	222

الجاهلية تواصل مسيرتها في نبذ الفضيلة

تعرضت الفضيلة للنبذ والمحاربة القاسية من قبل حملة لواء الرذيلة والجاهلية عبر الزمان؛ بطوله وعرضه، فلقي الأنبياء والرسل وأتباعهم حرباً شعواء من قبل خصومهم من مناهضي منهج الحق الذي أُرسيت دعائمه، ورُسِّخَت جذوره بأمر الله عز وجل وتوجيهه سبحانه، فقوم لوط جَرّموا لوطاً؛ لأنه نهاهم عن سلوكهم المشين، فاعتبروا الطهارة التي جاءهم بها سبباً لشن الحرب عليه، قال تعالى: {وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ* إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ*وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ}(الأعراف: 80 – 82).

وذكرت الطهارة سبباً لمعاداة حملة لوائها من قبل قوم لوط، في سورة قرآنية أخرى، فقال تعالى:{وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ* أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ* فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} (النمل: 54 – 56).

أسباب محاربة الفضيلة:

ولم يتحدد شكل الحرب على الفضيلة في صورة واحدة، بل تعددت الصور، لكن المحتوى واحد، ويتلخص في معاداة الحق والفضيلة من قبل من تجندوا في صفوف الباطل والرذيلة، ففرعون وهامان وقومهما وصفوا موسى، عليه السلام، وأتباعه بالذين آمنوا، وأعلنوا الحرب عليهم؛ لأنهم جاءوا يحملون رسالة الحق من ربهم، قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ*إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ* فَلَمَّا جَاءهُم بِالْحَقِّ

مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاء الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ* وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}(غافر: 23 – 26).

ويأتي التوحيد على رأس الفضائل التي يحاربها أهل الرذيلة، ففرعون أفصح عن سبب إعلانه الحرب على موسى، وذلك لدعوته إلى التوحيد، مخالفاً زعمه التفرد بالألوهية، قال تعالى: {قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ} (الشعراء: 29).

ولم تنته الحرب الضروس بين منهج الفضيلة ومناهج الجاهلية، فها هي تزداد ضراوة مع اتساع رقعة الصراع، التي باتت متاحة لمن هب ودب، في زمن توافرت فيه وسائل اتصال تخترق الحدود والقارات بسهولة ويسر، وسرعة مذهلة، فما يقال أو يحدث أو يبث في مكان ما يصل أرجاء المعمورة بسرعة تفوق سرعة البرق والرعد، فلم تعد الأحداث تنحصر آثارها في رقعة وقوعها، وإنما باتت تخترق بقاع الدنيا، ويشاهدها سكان الأرض ويلمسونها على اختلاف أجناسهم ومشاربهم ولغاتهم.

فالحرب المسعورة على الحجاب الشرعي ترعاها جهات متنفذة في أنحاء مختلفة من عالمنا المعاصر، في الوقت الذي يجري فيه الترويج بوقاحة للسفور والتفنن في كشف العورات، أو إبرازها من خلال الملابس الضيقة، أو المعدة بعناية لتجسيد المفاتن وإظهارها بأشكال مغرية وفاتنة، وتحرم بعض النساء والفتيات من طلب العلم أو دخول معترك العمل، لا لشيء سوى أنهن يحافظن على ارتداء اللباس الشرعي، ومن العجب المستهجن أن المدافعين عن الحريات يلتزمون الصمت حيال هذا الحرمان، في أحسن الأحوال، وقد يتخلى بعضهم عن شعاراته، وينبري للتجند مع الحرب المعلنة على الحجاب تحت ذرائع ما أنزل الله بها من سلطان.

فالحرب على الزي الشرعي تفتقر لأي مبرر منطقي، حتى النقاب الذي تجبر من ترتديه على خلعه، أو الحرمان من التعليم بسببه، تحت ذرائع مختلفة، بعضها قد يرجع إلى سوء استخدامه أو استغلاله، لكن على متخذي قرارات الحرب على النقاب أن يبحثوا عن وسائل وأساليب تحفظ لصاحبة النقاب حقها المقدس في حريتها في اختيار هذا النوع من اللباس، مع وضع إجراءات تضمن التغلب على ما قد يرافق هذا اللباس من سلبيات تنجم عن سوء الاستغلال أو الاستخدام.

وتتستر الحرب على فضيلة الاحتشام أحياناً وراء ستائر خادعة، مثل محاربة الإرهاب، أو الدفاع عن الحريات، أو مسايرة الحداثة والمدنية والمعاصرة، والعمل على الاندماج مع العالم المتمدن، ونبذ التقوقع والهمجية والتخلف والانعزال عن العالم الحر، وفي بعض الأحيان الأخرى تعلن الحرب المكشوفة والصريحة على فضيلة الحشمة والحجاب الشرعي، بصورة تشبه في مستوى صراحتها مبرر شن الحرب على لوط، عليه السلام، وأتباعه، حين اعتبر أعداء الطهارة جرماً أعلنوا عليه بسببها المخاصمة والعداء. فعجباً لعالم يتغنى بالمعاصرة والحضارة والمدنية في الوقت الذي يرجع فيه آلاف السنين إلى الوراء بمشابهة منهج قوم لوط من خلال الدفاع عن حرية المثليين في الزواج الذي يناكف طبيعة الخلق، والخصائص التي خلقها الله في جنسي الإنسان لتؤدي وظائفها السوية على طريق تحقيق الأهداف التي وجدت من أجلها.

ومن صور الحرب المعاصرة على الفضيلة، توفير الخمور في الفنادق والمطاعم الفاخرة، وعلى متن الطائرات، وفي الأسواق الحرة في معظم البلدان الإسلامية، إلا من رحم الله، ويتذرع مستبيحو المراقص والبارات بحجة التسويق السياحي، دون أن يضعوا في حسبانهم غضب الله ورضاه، مع الإشارة في المقابل إلى أن السائح المسلم يحرم في كثير من الأحيان

والأماكن من حقه في نيل الجو الذي يريحه، كحجب الخمور والفجور عن عينيه، وتوفير مكان لصلاته.

ومن صور الحرب المعاصرة المعلنة على الفضيلة، الترويج للقمار والربا، وتسهيل السبل لدخول معتركيهما، فعن الدعاية لهما لا تَسَلْ، فهي تطرق سمع الناس، وتجلب أنظارهم صباح مساء، وبأساليب غاية في التشويق والجذب والإغراء، عدا عن الإغواء للتورط في حبالهما، وفي المقابل يبقى الممتنع عنهما كالقابض على الجمر، حيران بين الحرمان الناتج عن الامتناع عنهما، وما يتبع ذلك من معاناة، وبين هواجس ونوازع الخوض مع من خاض غمارهما، طمعاً في نيل المغريات التي تصورها الدعاية المحكمة لهما.

ومن صور الحرب المعلنة على الفضيلة، تلك التي تشن على التعليم الديني، الذي يقوم على التفقه في الدين، والسعي لحمل رسالات الأنبياء والرسل، حيث يعمل أنصار نبذ الفضيلة على تشويه الثقافة الدينية، وتنفير الناس منها، ويغلقون أمامها ما استطاعوا من مجالات البث والإرسال، جاهدين في جعلها محاصرة في أضيق نطاق، ومكبلة بكثير من القيود، حتى إن المساجد لم تسلم من هذا الحصار الظالم، الذي يجري في كثير من الأحيان لتحقيق أهداف مبيتة، تخدم في المحصلة النهائية حالة الصراع القائمة بين الفضيلة والرذيلة في شتى المناحي والأماكن.

فالحرب ضروس على الفضيلة في شتى أنواع السلوك، وفي مختلف مناحي الحياة، وتجد هذه الحرب - كعادتها في قديم الزمان وحديثه - الأنصار والقوى الباغية الطاغية المؤثرة التي تعمل ليل نهار على نصرة الرذيلة وهزم الفضيلة، تحت مظلات مختلفة من الغايات والمواضيع والأساليب والمواقع ومراكز القوى.

والصراع أبدي بين الفضيلة بما تمثله من قيم ومبادئ وأنصار، وبين الرذيلة بما تمثله من فساد وانحراف وأنصار كذلك، ونتيجة هذا الصراع دائماً وأبداً لصالح الفضيلة، أما الرذيلة فهي- وإن حاولت تضخيم إنجازاتها الوهمية والآنية- ستقود الناس إلى ويلات، رغم الانخداع ببريقها الزائف في بعض الأحيان، فهي التي تسهل المجال للأوبئة الفتاكة، والتفكك الأسري، والأنانيات الشخصية والاجتماعية، كيف لا؟! ومنهجها يبنى على الانفلات الخلقي، والتحلل من الضوابط السلوكية التي شرعها الله، وقد أشار القرآن الكريم إلى المفاضلة بين منهجي الفضيلة والرذيلة، فمنهج الفضيلة، هو صبغة الله، القائل سبحانه وتعالى: {صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ}(البقرة: 138)، وهو الأحسن ديناً، يقول سبحانه وتعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً}(النساء: 125)، والرذيلة هي منهج الجاهلية المنبوذ، والله تعالى يقول: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}(المائدة: 50). والله يقول الحق ويهدي إلى سواء السبيل

نحن وثقافة الاعتذار

يقال: إن الإنسان مدني بطبعه، فهو يعايش الآخرين، فيجالسهم، ويحدثهم، ويسمع لهم، ويتعامل معهم، وخلال ذلك تقع منه أخطاء نحوهم، فهو بطبيعته خطاء، وهذا العنوان ذو صلة بالتصرف بعد ارتكاب الخطأ، فالإنسان معرض للوقوع في الزلل والتقصير والأخطاء المختلفة، ويكون ذلك نحو الله تعالى، كما يكون نحو خلقه سبحانه.

وسلوك الناس حيال أخطائهم متنوع، فمنهم المكابرون، ومنهم الذين يعتذرون، والمكابر يصر على الخطأ، ولا تطاوعه نفسه للاعتذار عنه، سواء سلك أساليب التبرير له وإسقاط أسبابه على الآخرين، أم عاند وتبجح بارتكاب الأخطاء، منطلقاً من سبق الإصرار والقصد على فعلها.

وللمعتذرين كذلك سلوك متعدد نحو التراجع عن الخطأ، والتعبير عن الأسف لوقوعه، فبعضهم يسارع إلى الاعتذار فور وقوعه في الخطأ، والبعض يتروى ويتأنى ويؤجل ويسّوف، ثم يعتذر عن أخطائه، وبعضهم يعبر عن اعتذاره بوضوح وصراحة، وبعضهم يورده في سياق ضمني وسلوك بديل، وقد عني إسلامنا الحنيف أيما عناية في ترسيخ أصول ثقافة الاعتذار، ففي القرآن الكريم حث جم على الاستغفار والتوبة، وهما سلوكان بارزان للتراجع عن الأخطاء والاعتذار عنها، ويكونان في الغالب عقب ارتكاب الذنوب والخطايا، والله تعالى يقول:{وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً}(التوبة:102)

وأثنى الله على النفس اللوامة، فقال تعالى: {وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ}(القيامة:2)، ولوم النفس من أهم أركان الاعتذار، كما أثنى سبحانه على الذين يتراجعون عن الأخطاء، فقال سبحانه:{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن

يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}(آل عمران: 135)، ولما راجع فرعون موسى في شأن الرجل الذي قتله، اعتذر عن فعلته، قال تعالى: { قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ *قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ }(الشعراء:18 - 20)، وحين أشار الرسول ﷺ إلى أن الإنسان بطبيعته خطاء، بيّن أن خيرية الاعتذار عن الذنوب تكون بالتوبة عنها، فيقول ﷺ:(كُلُّ ابْنِ آدَم خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ)(*)

وقد مارس الرسول ﷺ الاعتذار إلى الله بطول الاستغفار والإكثار منه، وهو محوط بالعصمة، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، حتى يُعلِّم المسلمين أن الاستغفار في ذاته عبادة يتقرب بها المؤمن إلى ربه عز وجل، هذا من جانب، وليؤكد لهم من جانب آخر أهمية الاعتذار عن الذنوب والأخطاء، والتراجع عنها بالأساليب المناسبة.

ولم تقتصر ممارسة الرسول ﷺ للاعتذار على الاستغفار لله، بل مارسه في تعامله مع أصحابه وفي دعوته، فحين أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم لما جاء يسأله، وهو مشغول مع أناس يدعوهم إلى الإسلام، عاتبه الله في سورة سميت (عبس) وهو اسم ذو صلةٍ بوصف سلوكه نحو ابن أم مكتوم، حيث عبس في وجهه وأعرض عنه، (فقد وَقَفُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ مَعَ رَسُولِ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَرَسُولُ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، يُكَلّمُهُ، وَقَدْ طَمِعَ فِي إسْلَامِهِ فَبَيْنَا هُوَ فِي ذَلِكَ، إذْ مَرّ بِهِ ابْنُ أُمّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى، فَكَلّمَ رَسُولَ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، وَجَعَلَ يَسْتَقْرِئُهُ الْقُرْآنَ، فَشَقّ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، حَتّى أَضْجَرَهُ، وَذَلِكَ أَنّهُ شَغَلَهُ عَمّا كَانَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ الْوَلِيدِ، وَمَا طَمِعَ فِيهِ مِنْ إسْلَامِهِ، فَلَمّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ؛ انْصَرَفَ عَنْهُ عَابِسًا، وَتَرَكَهُ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ {عَبَسَ وَتَوَلّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى } إلى

* سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، باب منه، وحسنه الألباني.

قَوْلِهِ تَعَالَى: {فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ} أَيْ إنّمَا بَعَثْتُك بَشِيرًا وَنَذِيرًا، لَمْ أَخُصّ بِك أَحَدًا دُونَ أَحَدٍ، فَلَا تَمْنَعْهُ مِمّنْ ابْتَغَاهُ وَلَا تَتَصَدّيَنّ بِهِ لِمَنْ لَا يُرِيدُهُ. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: ابْنُ أُمّ مَكْتُومٍ، أَحَدُ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيّ ، وَاسْمُهُ عَبْدُ اللهِ، وَيُقَالُ عَمْرٌو)[1]

ولما وخز الرسول، صلى الله عليه وسلم، سواد بن غزية قائلاً: (اسْتَوِ يَا سَوَادُ، فَقَالَ لَهُ سَوَادُ: أَوْجَعْتنِي؛ وَالّذِي بَعَثَك بِالْحَقّ نَبِيّا، أَقِدْنِي، فَكَشَفَ رَسُولُ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، عَنْ بَطْنِهِ، ثُمّ قَالَ: اسْتَقِدْ، فَاعْتَنَقَهُ وَقَبّلَهُ، وَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَك عَلَى مَا صَنَعْت؟ فَقَالَ: حَضَرَ مِنْ أَمْرِ اللهِ مَا قَدْ تَرَى، وَخَشِيت الْقَتْلَ، فَأَرَدْت أَنْ يَكُونَ آخِرَ عَهْدِي بِك، أَنْ أَعْتَنِقَك)[2]

ومن دلالات اهتمام الإسلام بثقافة الاعتذار، أنه جعل كفارات على بعض الأخطاء، في إشارة إلى ضرورة المسارعة إلى تعديل المواقف السلبية التي صاحبت صدور الأخطاء، بسلوك إيجابي فاعل وعملي ونافع.

وعلى الرغم من عناية الإسلام بتربية المسلمين على ثقافة الاعتذار، فإنَّ بعضهم يعرض عن الاعتذار معتقداً أنه يعبر عن ضعف المعتذر، أو يعطي انطباعاً سيئاً عنه، غير أن الاعتذار سلوك حضاري، يضفي على المعتذر حلل التواضع والموضوعية والتسامح، ويعبر عن مصداقية في السلوك والمواقف، ومع ذلك فهو مغيب عن كثير من مجالات واقعنا.

وقد سجل القرآن الكريم اعتذارات بعض المخطئين، التي كان منها، اعتذار ملكة سبأ، حين قالت:{رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(النمل:44)، كما سجل اعتذار موسى، عليه السلام، المشار إليه آنفاً، بالإضافة إلى العديد من صور الاعتذار المنسوبة للخلق، رسلاً كانوا أم غير ذلك، ومن ذلك اعتذار أصحاب الجنة، بعد أن أصبحت بأمر الله صريماً جزاء أخطائهم.

والمتجاهلون أو المعرضون عن الاعتذار قد يكونون أفراداً يخطئون، وقد يكونون مسؤولين

1. الروض الأنف: الجزء الثاني.
2. المغازي، الميمنة والميسرة في جيش المسلمين يوم بدر، الجزء الأول.

أو جهات معينة، وهنا تعظم الحاجة إلى الاعتذار، فعمر بن الخطاب ﷺ لما سمع المرأة تشكو أمير المؤمنين، وهي لا تعرف شخصه، عرف واجبه، فتوجه إلى بيت المال وحمل لها المؤن، واطمأن على أدائه لواجبه نحو رعيته، وبخاصة المحتاجين منهم، فسلك سبيلاً لتصويب الوضع.

ويلاحظ أن الاعتذار يطفئ نار كثير من الحروب والخلافات، وحين تعتذر العائلة عن أخطاء أبنائها، أو الدولة عن خطأ وقع من مواطنيها، فإن ذلك يصب أيضاً في كبح جماح البغضاء بين الدول والعائلات والمجتمعات، وفي المقابل يعظم الضرر نتيجة الإعراض عن الاعتذار، أو التعالي عليه.

والمعتذر يمثل نهج آدم، عليه السلام، والمكابر الرافض للاعتذار يمثل نهج إبليس، فإبليس وآدم نسبت لهما معصية الله، لكن آدم تاب وأناب، وإبليس أعرض واستكبر.

والاعتذار المطلوب ليس قاصراً على الشكل دون المضمون والجدوى، بل يشمل التعبير اللفظي والأداء العملي بتصويب الخطأ والتراجع عنه.

أما أن تزهق الأرواح، أو تنتهك الحرمات، ويُعتدى على الكرامات، دون أداء الاعتذار الواجب نحو الخطأ، فتلك من أقبح المصائب والسلبيات التي تقع في المجتمعات.

وإن كثيراً من المواقف لو استخدم فيها الاعتذار بالمستوى الذي يناسبها، لوضع حد كبير لكثير من الفتن والمعارك الطاحنة، فخلاف بين سائقين مثلاً بسبب شرارة انطلقت من خطأ أحدهما ربما يتطور أحياناً إلى حوادث قتل، ويتشعَّب إلى مطاحنات دامية، وحروب قبلية، وحوادث ثأر، وما إلى ذلك من العواقب الوخيمة، ولو أن الاعتذار رأى النور في بدء تلك الحوادث، لما تطورت الأخطاء إلى ما وصلت إليه الأمور من تلك النتائج المدمرة.

وقد حث الإسلام على مراجعة أخطاء النفس، والاعتذار مهم في كل الميادين والمجالات، ففي داخل الأسرة الواحدة ينبغي أن يكون من طرف أحد الزوجين للآخر، أو من طرف الآباء للأبناء، أو من الأبناء للآباء، أو من الإخوة نحو بعضهم بعضاً، فيجب أن تزول

العوائق أمام الاعتذار، فلا العمر، ولا الجنس، ولا نوع الارتباط، مبرر لرفض الإقدام على الاعتذار من الطرف المسيء، أو المخطئ، نحو غيره.

وإذا كان الاعتذار عن الخطأ فضيلة، فإن تجنب الوقوع في الخطأ أفضل، وقد ورد في وصية رسول الله ﷺ لأبي أيوب الأنصاري: (وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ غَدًا)[1]

ومن توابع الاعتذار تعلم أساليبه، فهو قد يكون مباشراً بصريح عباراته، وقد يكون بأساليب ضمنية، ولكل ظرف ما يناسبه من الأساليب، وتقتضي ثقافة الاعتذار وآدابه من الطرف المعتذر له تقبل الاعتذار، وأن لا يشعر المعتذر بالنقص، ولا يمتهن من كرامته، حتى تعزز هذه الثقافة بدعائم البقاء والنماء، ومعالجة الأخطاء بالعفو عنها، من شيم الكرام، الذين أثنى الله تعالى عليهم، فقال سبحانه: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ}(آل عمران:134)، وأثنى الله تعالى على الذين يدفعون الشر بالخير، فقال تعالى:{وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ}(القصص: 54).

ولما عصى آدم، فإن الله قبل اعتذاره، فقال تعالى:{فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ* فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}(البقرة:36 - 37)، بل إن الله سبحانه وتعالى جعل العفو أقرب للتقوى، فقال تعالى:{ وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}(البقرة:237)، وضرب الرسول ﷺ أعظم الأمثلة في قبول اعتذار المخطئ، فحين تم له فتح مكة وجاءه أعداء الأمس من أهلها، وقد وقعوا في قبضته، سألهم: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ مَا تَرَوْنَ أَنّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ. قَالَ: فَإِنّي أَقُولُ لَكُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ لِإِخْوَتِهِ، لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطّلَقَاءُ)[2]

---

1. مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث أبي أيوب الأنصاري، رضي الله تعالى عنه، وقال الألباني: له شواهد تدل على أن له أصلاً.
2. مختصر السيرة، 1/ 203.

أما بالنسبة إلى اعتذار المخادعين الذين يبغون بالاعتذار امتطاء الحيل بتجاوز محنة الخطأ، وما يترتب عليه من نتائج، فتلك اعتذارات مرفوضة، ومردودة على أصحابها، وتقتضي أن تواجه بصرامة وحزم مناسبين، فالرسول ﷺ حين أصدر عفوه عن أبي عزة الجمحي، ثم عاد للخيانة، كان رده عليه مناسباً، (قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، فِي جِهَةِ ذَلِكَ قَبْلَ رُجُوعِهِ إلَى الْمَدِينَةِ، مُعَاوِيَةَ بْنَ الْمُغِيرَةِ بْنَ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمَيّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ، وَهُوَ جَدّ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، أَبُو أُمّهِ عَائِشَةَ بِنْتِ مُعَاوِيَةَ، وَأَبَا عَزّةَ الْجُمَحِيّ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ، أَسَرَهُ بِبَدْرِ ثُمّ مَنّ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَقِلْنِي، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: وَاَللهِ لَا تَمْسَحْ عَارِضَيْك بِمَكّةَ بَعْدَهَا، وَتَقُولُ: خَدَعْت مُحَمّدًا مَرّتَيْنِ، اضْرِبْ عُنُقَهُ يَا زُبَيْرُ. فَضَرَبَ عُنُقَهُ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَبَلَغَنِي عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيّبِ، أَنّهُ قَالَ: قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ، صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ: إنّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرّتَيْنِ، اضْرِبْ عُنُقَهُ يَا عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ)(*)

والمؤمن يعبر عن تواضعه، واستعداده الدائم للاعتذار عن أخطائه، ففي خاتمة أكبر سور القرآن الكريم، يقول تعالى: { لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}(البقرة:286)

وعند محاسبة المخطئ، أو النظر في اعتذاره، يحسن التمييز بين المخطئ بعفوية، وبين المستعد للخطأ فكراً، ووجداناً، وتخطيطاً، وعملاً، وقولاً.

جعلنا الله تعالى من الذين يحرصون على تجنب الوقوع في الخطأ والزلل، وإذا أخطأنا سارعنا للاعتذار والتوبة والاستغفار.

---

* سيرة ابن هشام، 2/ 104.

وجهة نظر دينية في جرائم الشرف

تتساءل جهات عديدة بين الحين والآخر عن موقف الدين من القتل، الذي يتم تحت ستار أو خلفية ما يسمى بالدفاع عن شرف العائلة، وعند محاولة الإجابة على هذا التساؤل يجدر التنبيه إلى أن الإسلام الذي وضع عقوبات محددة للجرائم والجنايات والمخالفات الشرعية، لم يميز عند تطبيقها بين جنس الناس ونوعهم ولونهم، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، (أَنَّ أُسَامَةَ كَلَّمَ النَّبِيَّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِي امْرَأَةٍ، فَقَالَ: إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُقِيمُونَ الْحَدَّ عَلَى الْوَضِيعِ، وَيَتْرُكُونَ الشَّرِيفَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ فَعَلَتْ ذَلِكَ لَقَطَعْتُ يَدَهَا).(*)

- وفي الوقت الذي يرفض فيه الدين قتل الأبرياء، فإنه لا يكيل بمكيالين، فهو يستفظع قتل الرجال وقتل النساء على حد سواء، ما دام الموجب للقتل باطلاً.

- وبناء عليه؛ فإن القتل على الوجه الممارس في بعض المجتمعات العربية تحت ذريعة الدفاع عن الشرف، أمر يرفضه الدين الإسلامي رفضاً قاطعاً، لا لبس فيه، ويعتبره جريمة نكراء؛ لما فيه من التعدي على حكم الله، وشروطه، وهديه، وإن التستر تحت عباءة الدين للقيام بانتهاك حرمات الخلق، وحقوقهم، أمر يمقته الإسلام.

- وبالنسبة إلى القانون المخفف لعقوبة القاتل في مثل هذه الجنايات، فهو يساير ظروفاً اجتماعية معينة، لا تمت بصلة للدين، الذي قرر أحكاماً واضحة في العقوبات وغيرها، لا تميز بين ذكر أو أنثى، فالكل أمامها سواء، ومن شواهد ذلك أن القرآن الكريم -عند بيان عقوبة الزنى- نص على ذكر طرفي الجناية، وهما يمثلان نوعي البشر، فقال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ...}(النور: 2)

* صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع.

بل في حالات معينة يقام الحد على الذكر دون الأنثى، مثل حالة الاغتصاب، فأحكام الشريعة الإسلامية توجب درء الحد عن المغتصبة، وتقيمه على مغتصبها.

ويجدر التحذير في هذا السياق من تسويغ القتل على خلفية الشرف نتيجة فهم خاص لبعض النصوص الشرعية، إذ يجب أن يبنى الفهم على أساس من الاعتبارات الصحيحة في المسائل الواردة.

* وبشكل عام فإن الإسلام إلى جانب إقراره لمبدأ المحافظة على الأخلاق والأعراض، والعمل على صونها، فإنه يقرر مبدأ احترام حياة الإنسان، ومنع إزهاق الأرواح بغير حق، فقال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلاَدَكُم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}(الأنعام: 151)

ومن الجدير بالملاحظة والانتباه والتدبر أن الله قرن في هذه الآية الكريمة بين النهي عن اقتراف الفواحش الظاهرة والخفية، وبين النهي عن الاعتداء على النفس البريئة بالقتل، مما يوجب المحافظة على الأخلاق والقيم التي تحول دون التلبس بالفواحش والخطايا، هذا من جانب، مع لزوم الامتناع المطلق عن ارتكاب جرائم القتل ضد النفس البريئة، بغض النظر عن نوعها الاجتماعي، أو لونها، أو دينها، من جانب آخر. فالله لم يميز في تحريم ارتكاب جناية القتل بين ذكر وأنثى، وتأكد هذا في عدد من الآيات القرآنية الأخرى، فقال سبحانه: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}(المائدة: 32)

وقوله (نفساً) لفظ مطلق، يشمل كل من يصح أن يطلق عليه هذا اللفظ، سواء أكان صاحب النفس ذكراً أم أنثى.

ويحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من التعدي على حياة الأبرياء حتى لو لم يكونوا

مسلمين، فيقول صلى الله عليه وسلم: (مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا)(*).

- ولا يسمح الشرع الإسلامي بحال من الأحوال لأخص الأقارب بالتعدي على بعضهم بعضاً، وفي القرآن الكريم خص الله الاعتداء على حياة الإناث من قبل أوليائهن بشجب مميز، فقال تعالى: {وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ}(التكوير: 8 - 9)، وإذا كان الوأد عادة جاهلية، فإن كثيراً من صنوف القتل الأخرى تأتي من منطلق جاهلي، لا يمت إلى الإسلام بصلة، لا من قريب ولا من بعيد، وبالتالي؛ فإن من التجني على الإسلام أن يزج به مع الطرف المتهم بتحمل المسؤولية عن انحرافات تقع هنا أو هناك، لمجرد أن فاعلها ينتسب إلى الإسلام بالاسم، أو غير ذلك، إذ العبرة بالمضامين، والعمل بروح الإسلام، وأحكامه، لا بالأسماء والمسميات.

* وفي ضوء معايير الإسلام ومبادئه، فإن التهاون في التعدي على أرواح الأبرياء، أو الذين تحوم حولهم شبهات إدانة معينة، يعدُّ نوعاً من الإثم، وتقرر مبادئ الإسلام أن الإنسان بريء حتى تثبت إدانته، وثبوت الإدانة يكون بطرق رئيسة محددة، منها: الإقرار، والشهود، والبينات.

- وبعض الجرائم لا تستوجب القتل حتى وإن ثبتت، فليس كل انحراف أو ذنب عقوبته القتل، فكيف بالقتل على أسباب تافهة ؟! بل إن الإسلام يحث على التوقف عن تنفيذ الحدود عند توافر مبررات الدفع، ومن الضوابط الشرعية التي يؤخذ بها في الإسلام: (**درء الحدود بالشبهات**)، والشبهة تعني الالتباس الذي ينتفي مع وجوده الجزم القاطع بوقوع الجرم، ولئنّ يخطئ ولي الأمر أو الإمام أو القاضي في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة.

يقول الشيخ ابن باز، رحمه الله: إن الواجب على ولاة الأمور من العلماء والأمراء أن يدرؤوا الحدود بالشبهة التي توجب الشك في ثبوت الحد، فإذا لم يثبت عند الحاكم الحد ثبوتاً

* صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم.

واضحاً لا شبهة فيه، فإنه لا يقيمه، ويكتفي بما يردع عن الجريمة من أنواع التعزير، ولا يقام الحد الواجب، كالرجم في حق الزاني المحصن، وكالجلد مائة جلدة، في حق الزاني البكر، إلا بعد ثبوت جرم الزنى ثبوتاً لا شبهة فيه، ولا شك فيه، بشهادة أربعة شهود عدول، فيما يتعلق بحد الزنى، فالواجب على ولاة الأمر أن يعتنوا بذلك، وأن يدرؤوا الحد بالشبهة التي توجب الريبة والشك في الثبوت(*).

إن الشروط التي شرعها الإسلام لإقامة الحدود وتنفيذ العقوبات، تُظهر بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام يهدف إلى أن تكون الحدود والعقوبات رادعة، لا أن تكون سيفاً مسلطاً على رقاب الأبرياء، وهو يوقف تنفيذها حين لا تكتمل شروط الإدانة والتنفيذ، وهي شروط محددة وواضحة، فلإثبات جريمة الزنى مثلاً لا بد من توافر شروط خاصة في عدد الشهود، ووصف الجناية، حتى تقبل الشهادة على ذلك، في إشارة واضحة إلى منع التعجل في الاتهام، ومنع الاندفاع المتسرع في تنفيذ العقوبة، قبل توافر شروطها المقررة شرعاً، فكيف بمن يتجاوزون هذه الشروط والأحكام، بحجة الدفاع عن شرف، قد يكون أدنى بكثير من مستوى الشرف الذي ينتهك جراء الاعتداء على نفس بريئة لمجرد شبهة أو إشاعة أو موقف مزاجي للقاتل، أو من يحرض على القتل ويجر إليه ؟؟ !!

* ويكون إثبات الإدانة أمام القضاء، ولا يجوز أخذ القانون باليد، فكيف يكون الإنسان قاضياً، ومشرعاً، ومنفذاً في آن واحد؟! أي يمثل سلطات الحكم الثلاث كلها في شخصه، وقد لا يكون مؤهلاً لأي منها، فهذا أمر غير منطقي، ولا يقبل بحال من الأحوال.

* ويؤكد دواعي التثبت وضرورة الرجوع إلى القضاء، بالإضافة إلى ما جاء في الدين وأحكامه ونصوصه الواضحة، وقوع حالات عديدة تزهق فيها أرواح النساء خاصة، جراء شبهات، أو انجرار وراء عصبيات، أو حمية، أو غضب، أو تهور، أو مصالح دنية، وأهواء، وانحراف من جهة القاتل، فتلك تصرفات لا يقرها الإسلام بحال من الأحوال، ويعتبرها من معين الجاهلية تستقي...

---

* موقع ابن باز، مقتبس من مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، المجلد الخامس والعشرون.

وباختصار، فإن الإسلام:

1. يرفض التعدي على حياة الناس ذكوراً أو إناثاً.

2. يرفض القتل بالشبهات والأهواء والمزاجية.

3. يرفض المعاقبة على الجناية قبل ثبوت الإدانة، أو بقدر يزيد عن الحد المقرر شرعاً.

4. يرفض أخذ القانون باليد، ويقرر أن الجهة المخولة بفحص الإدانة وإصدار القرار بشأنها هي السلطة القضائية.

5. يحث على التحلي بالقيم والأخلاق، وحفظ الأعراض، والبعد عن الشبهات، ودواعي الفساد والانحراف.

6. يطلب تضافر الجهود المجتمعية على مختلف الأصعدة للوقاية من الوقوع في حبال هذه الجرائم، ومما يساعد في تحقيق هذه الغاية:

أ- احترام القيم المجتمعية النبيلة، وبخاصة التي جاءت بها الأديان السماوية من ناحية حفظ الأعراض، ومنع التبرج والخلوة غير الشرعية، وتجنب الشبهات.

ب- ضبط الأعصاب، والبعد عن المزاجية والأهواء عند أخذ القرارات الصعبة أو تنفيذها.

ج- استحضار تقوى الله وخشيته قبل الإقدام على إزهاق الأرواح، أو التعدي على النفس البريئة، (فَأَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ بِالدِّمَاءِ)، كما جاء في الحديث الصحيح.(*)

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة.

وجهة نظر في ....فهم الآخر

كثيراً ما يتردد في أوساطنا المعاصرة شعار فهم الآخر، أو تقبل الآخر، ويوجه مضمون هذا الشعار أحياناً لتأنيب أو توجيه بعض الأشخاص والأطراف المتهمين بالانغلاق على أنفسهم وأفكارهم، أو الرافضين للآخرين وأفكارهم.

إن فهم الآخر لا يعني بالضرورة أن ينسلخ الفاهم من معتقداته الشخصية، أو مواقفه، وأفكاره، وإنما يتطلب استيعاب أمرٍ واقعٍ، مفاده أن الناس يمكن أن تتعدد وجهات نظرهم، وتختلف أفكارهم، وبما أن هؤلاء المختلفين يعيشون في محيط واحد، وعالم واحد، فاختلافهم في المواقف والأفكار أمر وارد، فالله سبحانه لم يخلق جميع الناس على **هيئة عقلية** وجسمية واحدة، وإنما فيهم الذكر والأنثى، والعالم والجاهل، والجميل والقبيح، والقوي والضعيف...إلخ، مما يعني توافر إمكانية الاختلاف بين الناس، وبالتالي ضرورة تقبل بعضهم بعضاً في إطار إنسانيتهم، والقواسم المشتركة بينهم.

لقد تطرق الإسلام إلى قضية فهم الآخر من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، إضافة إلى الممارسات الفعلية الصادرة عمن يعتد برأيهم من زعماء المسلمين وعلمائهم وأشخاصهم، يقول تعالى: {وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}(العنكبوت: 46).

فهذا توجيه واضح الدلالة إلى فهم الآخر، كيف لا؟ والآية الكريمة تأمر صراحة ودون لبس أو غموض بأن يختار المسلم أسلوب الملاطفة وحسن التعبير والاحترام عند مجادلة أهل الكتاب، ومن المؤكد أن التوجيه القرآني المتضمن الحث على المجادلة بالتي هي أحسن لم يغفل حقيقة الاختلاف الثابت بين المسلم وغيره من أهل الكتاب، سواء في بعض العقائد أم القيم، أم العبادات، أم الأحكام والشرائع، أم المواقف ... إلخ، ورغم هذا التباين؛ فإن الآية ترشد إلى أسلوب الملاطفة في النقاش عند إثارة مثل هذه القضايا الخلافية، والمجادلة

تكون عادة في مواطن الاختلاف، أما اللقاء البعيد عن الاختلاف، والمحفوف بالمجاملة الحسنة، فلا تلزمه المجادلة، وبالتالي؛ يكون أولى بالملاطفة الحسنة.

ومن جانب آخر؛ فإن الملاطفة في الحوار تعبر عن أدب المسلم، وتبرز سماحة الإسلام.

ويشار هنا إلى سلامة السبيل الذي يهتم فيه الناس بالبحث عن نقاط الالتقاء والاتفاق أكثر من اهتمامهم بالعزف على أوتار الاختلاف والتغاير والشقاق.

لكن فهم الآخر ليس أمراً انتقائياً، يطلب في مواقف ويتجاهل في أخرى، ينتقد به قوم، ويعفى من ضوابطه آخرون، فمثلما يُطلب الفهم من طرفٍ لآخر، فإنه يطلب كذلك من الآخرين تجاه هذا الطرف، وإن لم تتم هذه التبادلية والمماثلة في التعامل، فإن تهمة الكيل بمكيالين تكون لاصقة بالانتقائيين، ولازمة لهم.

فمثلما يطلب من المسلم أن يفهم غير المسلم في إطار ضوابط الشرع، فإن فهم الآخر مطلوب بين المسلمين أنفسهم، على اختلاف اجتهاداتهم، وتنظيماتهم، وتصوراتهم، ومذاهبهم.

وكذلك؛ فإن غير المسلم مطالب بفهم المسلم، يتقبله بإسلامه الذي يدين به، دون أن يشترط عليه الأخذ بإسلام مبتدع، على موال فلان، أو طريقة علان.

نعم؛ إن فهم الآخر شعار جميل، وسيكون أجمل لو اتسم بالشمول، لأنه سيلطف الأجواء بين الناس، ويفتح الآفاق للحوار الموضوعي الهادئ بينهم، في جو من الاحترام وحفظ الحقوق، مما يساعد في تخفيف الأحقاد، وإطفاء فتيل النزاع على أكثر من مستوى وصعيد.

الفصل السابع
مقالات ذات صلة بقيم مجتمعية

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
.33	الوحدة والمصالحة وإنهاء الانقسام سبيل الخلاص من مسلسل النكبات والنكسات	225
.34	صبر المبتلى وثقته بفرج الله ونصره	232
.35	صناعة الأحداث وطريقة قراءتها	238
.36	الثقة بين الراعي والرعية	245
.37	على أي شيء نتناحر؟!	249
.38	التنازع في ضوء التعددية والبون الشاسع بين واقع الأمة ومبادئها	252
.39	طاحونة الإرهاب	258

الوحدة والمصالحة وإنهاء الانقسام
سبيل الخلاص من مسلسل النكبات والنكسات

إن من أكبر نعم الله على المسلمين أن وحد صفهم خلف إسلامهم، وجمع قلوبهم على حب ربهم ورسولهم ودينهم، فانطلقوا بذلك هداة للعالمين، يبشرون بالخير، وينذرون من الشر، وكانوا بوحدتهم قوة، دان لها جبابرة الخلق، بعد أن كانوا يعيشون على هامش التاريخ، ويذّكرهم الله ورسولُه أن تآلف قلوبهم ما كان أن يكون لولا أن تفضل الله عليهم به، فما كانت الأثمان الباهظة تنفع، وما كان العناء الكبير يجدي، لولا العناية الربانية، والتوفيق الإلهي، فالله يخاطب رسوله، صلى الله عليه وسلم، بقوله: {وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ*وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}(الأنفال: 62 - 63).

فيا رب ألّف بين قلوب أبناء أمتنا وشعبنا، كما ألفت بين الأولين منا، واصرف -اللهم- الشحناء عنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، يا كريم يا الله.

فما كان للنكبة، ومن ورائها النكسة، أن تحدثا، أو أن تستمر آثارهما، لولا حالة التشرذم التي اكتوينا -عرباً ومسلمين- بنار لهيبها، حيث هان الهوان علينا، وأصبح معظمنا كلٌّ يغني على ليلاه، فاستفرد عدونا في الساحة، وسلب من أرضنا أقدسها، واغتصب حريتنا، ونالت رماحه المسمومة منا، حتى أضحينا نعد السنين تلو السنين من عمر النكبة وأختها النكسة، ولا يلوح في الأفق أمل إلا بالله وعونه للمخلصين الصابرين القابضين على الجمر، الذين لم ولن يستسلموا للهوان، غير آبهين بمن فقدوا السيطرة على مقود توجيه المركب نحو

الخلاص، باستسهال النزاع الداخلي، والانشغال بالشكليات والهوامش، عوضاً عن تكريس الجهد نحو القضية الأم، وما يلزمها من تبعات ومسؤوليات.

نعم؛ إن الله يمقت الفرقة، وينهى عنها، ويذّكر المسلمين بنعمة تأليف قلوبهم، حتى أصبحوا بها إخوة، متحابين في الله، وعلى منهج الله، وذاك سبيل النجاة من النار، بعد أن كانوا بخصامهم وعدائهم لبعضهم بعضاً، وتنكبهم لدين الله، معرضين للويلات التي نهايتها التلظي بنار جهنم، فيقول الله تعالى: {وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}(آل عمران: 103).

وفي مقابل مقت الله للفرقة، فإنه سبحانه يحب الوحدة، فيقول تعالى مصرحاً بهذا الحب: {إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ}(الصف: 4).

وعلى النهج نفسه يرد قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جميعاً، ولا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ؛ قِيلَ وقال، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ).(*)

أعاذنا الله من النار، ومن أسباب استحقاقها، ومن سلوك المهرولين إليها.

شعارات براقة!

الوحدة والمصالحة وإنهاء الانقسام؛ شعارات ومصطلحات براقة، لا ينتقص من أهميتها وضرورتها عاقل معتبر الرأي منا، ولا يملك أحد التغاضي عن سلبيات مبايناتها، فحالة الفرقة والخصومة والانقسام يرفضها الوليد فينا قبل الكبير، إلا من يقبل لنفسه أن يتنكب درب دينه، أو من يتنكر لدماء الشهداء، وتضحيات الأسرى، أو من ضل طريق الحق، فأضحى فئوياً أو أنانياً لا يأبه بمصير أمته، ولا يعي حقيقة ما يحاك له ولها من كيد ومكر، فمن أبسط المسلمات أن العدو يستفيد من تشرذم خصمه، وانقسام صفه، والله تعالى في كتابه

* صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

العزيز توعد باللفظ الصريح والمضمون الواضح، المتفرقين والمختلفين، فيقول تعالى: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}

(آل عمران: 105).

فالله يحب وحدة الصف، وبمقتضى مفهوم مخالفة هذا الحب، فإنه سبحانه يكره الفرقة والتشرذم، ويؤكد هذا المعنى في أكثر من نص شرعي، فالله أمر رسوله، صلى الله عليه وسلم، وصحابته المؤمنين بمقاطعة مسجد الضرار، لأنه كان سيفرق جمعهم، فقال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ}(التوبة: 107 - 108).

ومسجد الضرار أنشأه المنافقون بمنطقة قُباء، وطلبوا من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يصلي لهم فيه تبركاً في ظاهر الأمر، لكن الله كشف عن حقيقتهم، حيث أرادوا ببنائه أن يتفرق المؤمنون عن مسجد قُباء الذي كانوا يجتمعون به.

فعن أبي هريرة، رضي الله تعالى عنه، قال: (أتى أصحاب مسجد الضرار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله؛ إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة، والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتينا، فتصلي لنا فيه، فقال صلى الله تعالى عليه وسلم: إني على جناح سفر، وحال شغل -أو كما قال عليه الصلاة والسلام، ولو قدمنا -إن شاء الله تعالى- لآتيناكم، فصلينا لكم فيه، فلما رجع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من سفره، أتاه الوحي بحقيقة خبر هذا المسجد الظالم أهله، فأمر بعض أصحابه بالانطلاق إليه، ليحرقوه، ويهدموه، ففعلوا)..(*)

فأي وضوح، وأي صراحة أكثر من النهي الرباني القاطع عن الإقامة في مسجد هدفه

* تفسير روح المعاني، 11/ 18، مسجد الضرار.

الضرار؟ ومنهجه نشر الكفر بدل التوحيد، ومن أبرز خصائصه أنه وضع للتفريق بين المؤمنين، بخلاف مساجد التقوى؛ التي تشيّد لجمع المسلمين في صلاة الجمعة والجماعة وغيرهما، وهو كذلك بؤرة فساد تجمع المنافقين الذين تجندوا لمحاربة الله ورسوله، متظاهرين بالحسنى، ومتسترين خلف ظواهر الصلاح، التي منها بناء المساجد ورعايتها، وهم يقصدون عكس ما يظهرون، ولما كان الوضع كذلك؛ أوحى الله إلى نبيه قرآناً يتلى عبر طول الزمان، ومختلف البقاع، تضمن نهياً قاطعاً عن الاعتراف بشرعية مسجد هذا حاله ونعته، حتى تفوت الفرصة على من يريد بالإسلام والمسلمين الضرر؛ بالكفر والفرقة ومؤازرة عدوهم، وهذا النهي لا يقتصر على ذاك المسجد، بل يشمل كل ما كان على شاكلته، فنهي الله عن الإقامة في مسجد الضرار مستمر حيث وجد الضرار، فالله تعالى يقول: {لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً}، و(أبداً) تعني الاستمرارية والتواصل.

وهكذا يتضح أن الله اتخذ هذا الموقف الحاسم مع مسجد أنشئ على خلاف الهدى، رغم حساسية الموقف والقضية، إذ الأصل أن يُدعى المسلمون للمسجد، ليجدوا خير دينهم ودنياهم فيه، وقد أثنى الله على من يعمرون المساجد، فقال تعالى: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُوْلَـئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ}(التوبة: 18)

فإذا جاءت مقاطعة مسجد الفرقة والضرار بأمر رباني، فكيف بما عداه من الأمور التي يفرق وجودها، أو الحرص عليها، صف المؤمنين؟ هل يعقل أن يقبل شيء منها ثمناً للتفريط بوحدة كلمة المؤمنين وصفهم؟! والعدو من حولهم يتربص بهم الدوائر، ويحصد ثمار فرقتهم لصالح بقاء وجوده، سيفاً مسلطاً على رقابهم.

والأمور مهما بلغت قيمتها، فلن تبلغ قداسة المساجد ومكانتها عند الله وعباده الصادقين، فالوزارات السيادية، والحكومات الشكلية، إذا تستر وراءها شبح فرقة الصف،

والانشغال بالنزاع الداخلي، تصبح ضراراً لا يقل خطرها عن مسجد الضرار، فالفكرة واحدة، حيث تلتقي هذه الأمور مع مسجد الضرار في قاسم مشترك؛ يتمثل في الضِرَار وَالتَفْرِيق بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ، وتقديم الخدمة السائغة المجانية لمن يحَارَب الله وَرَسُولَهُ، والله تعالى يقول: {إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا}(آل عمران: 120)، ومن الحسنة التي تزعج عدونا أُلفتنا ووحدتنا ومشاريع وفاقنا، ومن السيئة التي تسره وتخدمه الفرقة والاختلاف والتشرذم، فعن قتادة: الحسنة هي الألفة والجماعة، والسيئة: الفرقة والاختلاف.[1]

وقد حذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين من المخاصمة والقتال والنزاع، فعن جَرِيرٍ أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال له في حَجَّةِ الْوَدَاعِ: (اسْتَنْصِتْ الناس، فقال: لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ).[2]

والله تعالى بيّن للمؤمنين أثر النزاع في إذهاب القوة، واستجلاب الفشل، فقال تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال: 46).

وجدير بالمؤمن أن يضم صوته إلى الذين يستهجنون غض الطرف عن هذا التحذير الرباني، بغض النظر عن الأعذار التي يمكن أن تقدم لتبرير التنكب عنه، فالشعب سئم الانقسام، وبات معظمه يتخوف من عواقبه المدمرة، فهي تتفاقم وتزداد، وبخاصة في ظل التطورات الإقليمية والعالمية، التي تدق ناقوس الخطر الداهم، الذي لن يميز بين فئات منا، سوى مرحلياً، وإلا فالكل مستهدف، وسيقول آخرنا ما قاله ذاك الثور، الذي صارت حكايته مثلاً، حين قال: (أكلت يوم أكل الثور الأبيض).

فلندقق النظر أكثر، ونضع الأمور في نصابها الصحيح، بدلاً من ضيق الأفق، وعمى العيون الذي جعل كثيراً منا محدودي الرؤية، محجوبي التمعن والتفكير.

1. عبد الرحمن الجوزي، زاد المسير، 1/ 448.
2. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الإنصات للعلماء.

أهمية السعي لإصلاح ذات البين:

إن من واجب المسلمين نحو بعضهم بعضاً أن يسعوا جهدهم نحو إصلاح ذات بينهم، وأن يعملوا على حل الوئام بينهم محل الخصام، ولا يصح لهم أن يقفوا مع السلبيين الذين يشاهدون الخلافات التي تقع بين طوائفهم وفئاتهم وحتى أفرادهم، دون أن يحركوا ساكناً باتجاه إطفاء لهيبها، فالله تعالى أمر المؤمنين بهذا الواجب، فقال سبحانه: {وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}

(الحجرات: 9)

فلا يصح لفئات المسلمين وذوي النفوذ أن يبخلوا في تقديم الجهود التي تتطلبها عملية الإصلاح المنشود بين إخوانهم، فالنزاع والاختلاف يدمران المشارك فيهما والمشاهد لهما، ولا يختلف اثنان، في أهمية الوحدة وخطورة الانقسام، فبالوحدة تتحصل القوة، وبالتنازع والانقسام يحصل الوهن، وتذهب الريح، فالانقسام فاقم ضعفنا، وجعلنا لقماً سائغةً للآكلين، وأتاح المجال رحباً للمتربصين، الذين ما كان لهم أن يخلدوا إلى هذه الراحة والدعة لولا تفيؤهم ظلال فرقتنا وانقسامنا إلى معسكرات شتى.

ولا بد من بذل السعي تلو السعي للقضاء على التفرق والتشرذم، ولا بد من نشر الوعي بأهمية الوحدة والمصالحة بين المسلمين.

وحتى لا نجانب الحقيقة، ونكون أكثر واقعية، ومنسجمين مع الموضوعية، وحتى نصدق مع أنفسنا وربنا وشعبنا، لا بد من أن نطرح المطالبة بالوحدة والمصالحة، بالتوازي مع المطالبة بالصدق والإخلاص والإنصاف فيهما، والحرص على ثوابتنا ومبادئنا، مع المطالبة بالبحث الجاد عن أسباب الخلاف والشقاق، ووضع الحلول المنصفة والجذرية والشجاعة لهما.

وشعارات الوحدة والمصالحة وإنهاء الانقسام تبقى وهماً في الخيال، وأماني في الأحلام، إذا

لم تجد من أصحاب النفوذ والقرار من يحملها بصدق، حتى إن تطلبت تضحيات، أو تقديم تنازلات شخصية أو فئوية، لصالح المصالح العليا للدين، والأمة، والشعب، والقضية العادلة.

وعلى كل غيور فرد كان أم فصيل أن يرفع صوته عالياً، مطالباً بالوحدة والمصالحة وإنهاء الانقسام، وعلى كل من له دور في إحداث الانقسام والفرقة، أن يتقي الله في دينه وشعبه، وأن يتقيه في دماء الشهداء الزكية، التي روي بها ثرى هذا الوطن، وأن يتقيه في آهات الأسرى، الذين يقبعون خلف القضبان، وقد قدموا حريتهم وحقهم في العيش الحر في سبيل دحر المحتل عن وطنهم، وانتزاع حقوق شعبهم المغتصبة، واسترداد قدسهم ومقدساتهم، والله تعالى يقول: {وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}(التوبة: 105)

ومن يعمل للإصلاح، فلن يذهب عمله أدراج الرياح، بخلاف من يمتطي مراكب الإفساد والنزاع والشقاق، وإن تظاهر بالصلاح، فشتان بين الزبد وما ينفع الناس؛ {...كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ}(الرعد: 17)

فهل يعود الأشقاء المتنازعون إلى صوابهم، إدراكاً منهم لخطورة الشقاق الذي يؤذيهم وقضيتهم، ويتيح المجال رحباً لمن يتربص بهم الدوائر أن يحقق مراده، وأن يواصل مشواره في إحداث النكبات فيهم والنكسات، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً؟! عسى الله أن يهديهم ليعودوا إلى رشدهم، فيختاروا طريق الوحدة، ومنهج الإصلاح، سبيلاً للنجاة والنجاح.

سائلين الله العلي القدير أن يؤلف بين قلوبنا، وأن يجمعنا على الخير والهدى، وأن يهيأ لنا سبيل الخلاص من ويلات الفرقة والاختلاف والشقاق والنزاع.

صبر المبتلى وثقته بفرج الله ونصره

كثيرة هي المحن التي نواجهها في حياتنا العامة والخاصة، ففقيرنا يشكو ضيق ذات اليد، ومديننا يؤرقه الدين، وسقيمنا يعاني الوجع، ومنا اليتيم، والثكلى، والأرملة، والمسكين، والعقيم، وكل ذلك وغيره ابتلاءات تجري وفق سنة الله في خلقه، مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}(البقرة: 155).

وحاشا لله أن يبتلي خلقه لمجرد تعريضهم للمعاناة، وإنما وراء الابتلاء هدف عظيم، فبه يمحص الله الصادقين والصابرين من غيرهم، يقول تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ }(العنكبوت: 3)، ويقول سبحانه: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ}(العنكبوت: 11).

فلو ترك الناس دون ابتلاء لخفيت عليهم حقائق أنفسهم، ولزعم كلهم الصلاح والشجاعة والصدق والصبر، والله مطلع على ما تكن النفوس، وما تعلن، كيف لا؟ وهو سبحانه { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}(غافر: 19).

لكن الله تعالى يريد أن يظهر للناس حقائقهم، بالتمحيص والابتلاء، يقول تعالى: {مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ...}(آل عمران:179).

ومن أشد أنواع الابتلاء العام الذي تتعرض له أمة الإسلام في زماننا هذا تكالب الأمم عليها من كل حدب وصوب، فحالها لا يسر صديقاً، ولا يحزن عدّواً، فهي مثخنة بالجراح، مقطعة الأوصال، حتى أضحت كالتي قيل فيها:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

وفي غمرة الجراح، ترد النفحات الربانية التي تبشر المؤمنين بقدوم الفرج، والنصر القريب، فيقول تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ }(البقرة:214).

فهي البشرى التي ننتظر أن تكون ومضة النور في نهاية النفق المظلم، إنها النصر القادم من العزيز المقتدر، الذي وعدنا إياه، فقال سبحانه: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّن اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ } (الصف:13)، ولن يخلف الله وعده، {وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ }(الروم:6)، {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ...} (آل عمران:152).

إننا ننظر إلى اليوم الذي تلهج فيه ألسنتنا بشكر الله وحمده على ما صدقنا من وعده بنصر دينه، ورفع راية حقه، على سنة سلفنا الأخيار، الذين قال الله تعالى فيهم: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}(الزمر:74).

فجراح الغدر لن تنسينا حقنا بالنصر المظفر بإذن الله وعونه، فهو وعد قطعه الله على نفسه، فقال: {فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} (إبراهيم:47) وقال جلّ شأنه:{وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}(الروم:47).

وقال سبحانه: {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ } (يونس:103)

فإن صدقنا الله فسوف يصدقنا، وستكون العاقبة لنا، وستمضي مرحلة الألم من عمرنا، وستضمد جراحنا المثخنة، والله يطمئننا بذلك فيقول تعالى: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ }(آل عمران:140).

ولما اشتد الكرب بالمسلمين والرسول، صلى الله عليه وسلم، بين ظهرانيهم، أتوه شاكين، فماذا كان جوابه لهم؟ يقول الصحابي الجليل خَبَّاب بْن الْأَرَتِّ: (شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللهَ، أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ). (*)

نعم إنها الثقة المطلقة بنصر الله القادم لا محالة، لكن الله لا يعجل باستعجال الخلق، فكل شيء يكون وفق مشيئته سبحانه، فقد ابتلي الأولون ونشروا بالمناشير، وابتلي الرسول، صلى الله عليه وسلم، وصحبه، لغاية أرادها الله، فقال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ }(آل عمران:166)

فنحن المثخنين بالجراح نصبوا لليوم الذي يمكن الله فيه لنا ولديننا في الأرض، لنملأها عدلاً وصلاحاً وأماناً بإذن الله، وما ذلك على الله بعزيز ولا بعيد، فهو سبحانه القائل: {وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً...}(النور:55)

فالابتلاء أياً كان شكله ولونه، هو مدرسة ينجح فيها المؤمنون، ويخفق فيها المنافقون، وقد كشف الله سبحانه عن غاية الامتحان به في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ...} (المائدة:94)

* صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام.

ومن مقومات النجاح في مدرسة الابتلاء وامتحانات المحن، الاستقامة والصبر، مصداقاً لقوله تعالى: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} (آل عمران:186)، وقال سبحانه: {وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}(آل عمران:120)

فالصبر مفتاح الفرج، وهو بإذن الله قريب قريب، وإن استبطأه بعض الناس وظنوا أنه بعيد صعب المنال، فقد أكد الله وعده للمؤمنين بالعون والمدد جزاء الصبر والتقوى، فقال سبحانه: {بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ }(آل عمران:125)، والصبر جميل، يقول تعالى: {فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً}(المعارج:5).

فالصبر يجلب النصر، والكرب يلحقه الفرج، والعسر يمحوه اليسر، والله أمرنا بالمرابطة ومغالبة عدونا بالصبر والمصابرة، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}(آل عمران:200).

والاستعانة بالصبر ليست ضرباً من الوهم والخيال، ولا شكلاً من الخداع والإيهام، بل هي دعوة الأنبياء والرسل، الذين كشفت عنهم الحجب، انظروا وصية موسى، عليه السلام، لقومه: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }(الأعراف:128).

والله أمر بالاستعانة بالصبر في مواضع أخرى كثيرة من آيات القرآن الكريم، منها قوله تعالى: {وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ } (البقرة:45)

وخاطب الله المؤمنين بهذا الطلب، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(البقرة:153).

ومما لا شك فيه أن ما نتعرض له من محن وابتلاءات يقع في دائرة المكاره، التي يلزمها الصبر، لكن محصلتها الفوز بالجنة، عَنْ أَنَسٍ بن مالك قال، قال رَسُولَ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ)(*)

ويذكر سبحانه جملة من الأمور التي يرتب عليها الفوز بالعقبى، ومنها الصبر، فيقول تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ}(الرعد:22).

وإن فات الصابر جولة، فلن يفوته ثواب الله، وحسن جزائه، فالله تعالى يقول: {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}(هود:115).

وربطت آيات أخرى التقوى بالصبر، باعتبارهما عاملين رئيسين للفوز بحسن الجزاء، يقول تعالى: {إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ }(يوسف:90).

وقد وعد الله الصابرين بحسن الجزاء، فقال تعالى: {وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ}(النحل:96). فالمؤمن الحق يوقن بأن الله بقدرته وعظمته معين للصابرين، الذين آمنوا به وبكتابه والتزموا طاعته، وكانوا يداً واحدة في حمل حقهم ونصرة دينهم، فيقول تعالى في محكم التنزيل: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ }(الأنفال:46).

والشدائد في نظر المؤمن عابرة، مهما بلغ مداها وحجمها، واشتد عودها، إذ العبرة بالعاقبة، وليس بالمراحل الوقتية، والعاقبة للمتقين الصابرين بقرار من رب العالمين، يقول تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}(هود:49)، ويهنيء الله الصابرين بالعقبى يوم الفوز، فيقول سبحانه: {سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}(الرعد: 24).

ورتب سبحانه على الصبر جزاءً حسناً، يُتَوِّجُهُ الفوز بالجنة ونعيمها، فقال تعالى: {إِنِّي

* صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب منه.

جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}(المؤمنون:111)، وقال سبحانه: {أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَاماً}(الفرقان:75).

ويضاعف الله الأجر والمثوبة للصابرين، قال تعالى: {أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}(القصص:54)، {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً}(الإنسان:12).

وهو وعد حق، لا يأتيه الباطل، وإن زاغ عنه غير الموقنين، الذين حذر الله من الانجرار وراء زيغهم، فقال تعالى: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ}(الروم:60). {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ}(غافر:55)، وقال جل شأنه: {فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ}(غافر:77)

ولا يتأتى نيل جزاء الصبر إلا لمن كان موقناً بحتمية تحقق ما وعد الله، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ} (السجدة:24).

فهل يُعذر مسلم بالشك في قطعية النصر القادم للإسلام والمسلمين وحتميته بعد تدبر ما ذكر مما تيسر من آيات الذكر الحكيم، التي تؤكد هذه الحقيقة بكل عزم ويقين؟

فالصبر لله مطلوب، فهو سبحانه القائل: {وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ} (المدثر:7).

صناعة الأحداث وطريقة قراءتها

يختلف الناس في تحليل كثير من الأحداث التي تقع هنا وهناك في أنحاء العالم الرحب، فيرى بعضهم أنها موجهة ومدبرة، ويراها آخرون بصورتها الظاهرة، فينسبون الفعل للفاعل، حسب ورود خبره من مصادره، أو من الأبواق التي تصدت للإعلان عنه. ويعمل أنصار كل من الآخذين بالظاهر والمؤامرة على الانتصار لمواقفهم، فيسوق كل فريق الأدلة والبراهين التي يراها داعمة لوجهته، ويشن النقد اللاذع لمخالفيه.

ولسنا هنا في مقام التأييد أو المعارضة لأي من الفريقين، وإنما نريد أن ندعو للتروي في قراءة الأحداث، وتحليلها؛ حتى لا نكون جزءاً من وقود المعركة الطاحنة التي تحاك ضد وجودنا، وضد قيمنا ومبادئنا وديننا وأرضنا ومقدساتنا.

نقول هذا في ضوء الحملة الشرسة التي تقوم على وصم المسلمين ودينهم بالإرهاب، مع التذكير بأن الحملات المعادية للإسلام والمسلمين لم تقف عند حد، وإنما هي موروث تاريخي، حملته الأجيال المعادية عبر الزمان، وفي طول المكان، غير أن تلك الحملات كانت لها مضامين وأصباغ متنوعة، حسب الظروف الزمانية والمكانية، وأحدث الحملات المعاصرة ضد الإسلام هي التي تقوم على اتهام المسلمين ودينهم بالإرهاب، حتى أضحى الناس يتفننون في لصق هذه التهمة بالمسلمين أينما وجدوا، بل إن بعضهم ذهب أبعد من هذا، فحاول النيل من القرآن الكريم، ومن الرسول محمد، صلى الله عليه وسلم، فأسند إليهما المسؤولية عن تصدير الإرهاب.

لم تكن هذه الحملة لتأخذ ما أخذت من أبعاد وآثار لولا أحداث وقعت هنا وهناك، سواء على أرض المسلمين وفي بلادهم، أم تلك التي تقع في أرجاء المعمورة، بين الحين والآخر،

وتنسب لجماعات إسلامية. مع التنويه إلى تجنب الدخول في هذا المقام في مسميات وتفاصيل تلك الأحداث، فهي كثيرة ومترامية الأطراف، تاركين المجال للقارئ، ليذكر الأحداث التي وقعت من هذا القبيل، ومتابعة ما يحدث منها حاضراً ومستقبلاً، فهي متلاحقة وجمة، ويبدو أنها في تزايد وتضخم، كيف لا؟! وهي تخدم أغراض المتربصين وتحقق أهدافهم، وتنجز كثيراً من طموحاتهم وآمالهم. سواء كانت صناعتها محلية، أم كانت بفعل مؤامرات هدفت لجعل الضحايا وقوداً في معارك طحنهم.

البحث عن خلفية الأحداث:

إن من مجانبة الصواب والحقيقة، أن تؤخذ الأحداث على عواهنها، دون تشخيص أسبابها، وفاعليها، والمخططين لها، وتعقب نتائجها، والمستفيدين منها، ونود هنا أن يأخذ القارئ بعض الأمور والقضايا في الاعتبار عند قراءة الأحداث المعاصرة، مستعيناً على ذلك بالإجابة عن التساؤلات الآتية:

* هل استند أعداء الأنبياء والرسل إلى الموضوعية والحقيقة في مواقفهم من الأديان السماوية، أم ناصبوها العداء لمجرد أنها جاءت على غير مزاجهم وأهوائهم؟

* هل تطور الناس في هذا الزمان ونضجت أفكارهم ومواقفهم إلى مستوى فهم الرأي الآخر، والاعتراف بحقوق الآخرين في السيطرة على أملاكهم ومقدراتهم والحفاظ على مقدساتهم، واحترام حريتهم وحياتهم؟

* وهل ترفع الناس من أن يهبطوا إلى مستوى الانتهاك والابتزاز والإجرام في شتى بقاع الدنيا؟

* هل يكف الناس في عالمنا المعاصر عن الكيد والمكر لتحقيق منافع خاصة أو عامة؟

* هل يسود عالمنا اليوم السلام والأمان، ولا يعكر صفوه سوى العنف والإرهاب المصبوغ بلون واحد، أم أن إبراز لون دون آخر يتم بفعل فاعل؟

* هل تحتكم دولنا المعاصرة إلى قواعد العدل والإنصاف، في علاقاتها الخارجية وحكمها

الداخلي، فلا جور ولا إجحاف، حتى يكون الإرهاب فيها أو ضدها أمراً ناشزاً، وعملاً تخريبياً لحالة الاستقرار المجتمعي والأمن العالمي؟

* هل بات العالم نظيفاً من استعمار أصحاب النفوذ وأطماعهم؟

وطرح هذه التساؤلات لا يعني الركون إلى التخمين، وبناء المواقف على الظنون والأوهام، وإنما المراد منه التنويه إلى ضرورة التريث في المواقف، حتى لا نجر إلى حتفنا من حيث نظن أننا أدركنا الحقيقة، أو تعاطفنا مع أحداث، أو أشخاص، أو جماعات، ظاهرهم معنا، وباطنهم ضدنا، فنكون كمن تجرع السم القاتل في ملعقة من العسل.

فمن حقنا أخذ الحذر من بعض الناس غامضي التوجه والسيرة، وإن تكلموا بألسنتنا وتسموا بأسمائنا، ومن واجبنا أن لا نسارع في التحمس لأحداث لم نطلع على أبعادها، ولم نحط بكنهها، وبخاصة تلك التي تؤدي إلى إحداث الإرباك، وزرع الفوضى، واختلال الأمن في صفوف المسلمين.

التمسك بالثوابت والمبادئ:

ينبغي العناية بفحص خلفيات الأحداث، فإنه يتحتم على المسلم أينما وجد أن يبقى مؤمناً بمبادئه وقيمه التي جاء بها دينه الحنيف، شاء من شاء، أو أبى من أبى، مع أخذ الحذر من الانجرار وراء أحابيل الظلام، التي تصب في رصيد الطعن بالإسلام ورموزه، وتستهدف انتهاك حرمات المسلمين ومقدساتهم.

إن المتابع للأحداث وأخبارها، يلحظ أن كثيراً منها يأتي في سياق جر المسلمين إلى وصمة الإرهاب، فلا يكاد يفلت حدث فيه قتل في شتى بقاع الأرض من نسبته للمسلمين، سواء أكانوا عرباً أم عجماً. رغم أن كثيراً من الأعمال التي توصف بالإرهابية، يستحيل بأي حال من الأحوال أن تكون مقبولة وفق معايير الشريعة الإسلامية وقيمها ومبادئها، سواء من ناحية ظروفها، أم ضحاياها، أم أسبابها، أم طريقة تنفيذها. فتحت أي معيار لن يقبل

القتل الذي يستهدف إشعال نار الفتنة بين المسلمين، أو الذي يوجه ضد الأبرياء من الناس وبخاصة الأطفال منهم والنساء، لأنه القتل الأعمى الذي نرجح أنه دبر بتخطيط من لا يرجو خيراً للإسلام والمسلمين، وإن تم أحياناً بأيدي مسلمة، فهي أيدي غبية أو مغرضة، استغلت أبشع استغلال، فكانت وقوداً في حرب المسلمين، واستهداف دينهم.

إننا نرجو أن لا نصنف مع أنصار نظرية المؤامرة، فيما نذهب إليه، فلسنا من دعاة تعميم هذا التوجه أو إطلاقه على كل حدث، ولكن كثيراً من الأحداث تترك مجالاً رحباً لإسنادها لجهات دبرتها، بل من الغباء استبعاد احتمالات المؤامرة عند تحليل الأحداث، وبخاصة الغريبة والغامضة.

تفسير الأحداث بمنطقية وموضوعية:

وحتى لا نكون سرابيين، ولا أغبياء، يجدر بنا أن نفسر الأحداث بمنطقية وموضوعية، فإن كان السبب فينا، فحري بنا التحلي بقدر من الشجاعة والاعتراف بالحقيقة، وإن كانت مرة وصعبة، وإن كان السبب يعود لمكر المتآمرين أو كيد المتربصين، فعلينا أخذ الحيطة والحذر؛ حتى لا تنطلي علينا الحيل.

وفي ديننا الحنيف ما يوجه للأخذ بهذا النهج في كلا سبيليه، فقد نبهنا الله تعالى إلى ضرورة مراجعة النفس عندما تحل بنا الحوادث والمصائب، فقال الله تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (آل عمران:165)

ومن الشواهد القرآنية على الدعوة للاعتراف بالمسؤولية الذاتية عن وقوع الخطوب والأحداث، ما نزل تعقيباً على مجريات غزوة حنين، فقال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ} (التوبة:25) ومعلوم ما جرى يوم حنين، إذ بلغ جيش المسلمين ما

يقارب اثني عشر ألفاً، فقال بعضهم لن نهزم اليوم من قلة، فنصبت لهم الكمائن، وانهزم بعضهم، وثبتت القلة بقيادة الرسول، صلى الله عليه وسلم، ولقننا الله وإياهم درساً مفاده أن النصر يتحقق بالإيمان أولاً، لا بالكثرة وغيرها من مظاهر القوة، فكان المطلوب هنا مراجعة النفس للبحث عن الأسباب، لتصويب المسار، وأخذ العبر والعظات.

الحيطة والحذر:

أما بالنسبة إلى الحذر من كيد المتآمرين، فقد أمر الله بأخذ الحذر أكثر من مرة في سياق بيان كيفية صلاة الخوف ومبررها، مع الإشارة إلى تطلع أعداء المسلمين وآمالهم لكسر شوكتهم، وتفريق صفهم، وتربصهم بهم، وتحينهم للفرص للانقضاض عليهم، قال تعالى: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُواْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً} (النساء:102)

وقد حذرنا الله من محاولات فتنتنا عن ديننا الحنيف، فقال تعالى: {وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ} (المائدة:49)، {وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ} (آل عمران:69)، {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} (البقرة:109)

فهذه الآيات الكريمة تشير بوضوح إلى أفعال الكيد والتآمر التي انبرى لها أعداء الإسلام، ضد الإسلام وأهله، فهو مكر الليل والنهار، الذي يستهدف ردنا على أعقابنا، وفتنتنا عن ديننا.

والكيد لا يعرف حدوداً، ولا يختص بأمور دون سواها، فهو يقع بين الأفراد والجماعات،

كما يقع بين الدول والأمم، والشواهد القرآنية التي توضح صور الحدث الذي يقع بفعل الكيد التآمري كثيرة، منها ما ذكره القرآن الكريم في قصة يوسف، عليه السلام، فغلّقت امرأة العزيز الأبواب، وطاردته في ردهات القصر، ولما انكشف الأمر قلبت الحقيقة، فاتهمته بالتحرش بها، لولا أن هيأ الله له من يحلل الحدث، ويفحص البينات والأدلة، حتى انجلت الحقيقة، وفضح التآمر، وثبت الكيد، فقال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ* وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ* وَاسُتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ* وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ* فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ} (يوسف: 23 – 28)

وبعد أن سمعت بحديث النساء عن فعلتها، خططت للمكر بهن، فجمعتهن، ووضعت في يد كل واحدة منهن سكيناً، وأخرجت يوسف إليهن، قاصدة أن تحصل ردة فعل فظيعة من الانبهار به، عليه السلام، فردت على مكرهن بالكيد لهن، فهو تآمر في مقابلة تآمر، قال تعالى: {وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ* فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ} (يوسف:30 – 31)

فعلى كل صعيد يمكن أن تصنع الأحداث بفعل الكيد والتآمر، ويقع ذلك للأفراد والأسر والمجتمعات والشعوب والدول والأمم، فتجاهل هذا البعد أو استبعاده يعتبر خطأً فادحاً، يعرقل الوصول إلى الحقيقة، ويحول دون التشخيص السليم للوقائع والأحداث، مما يجعل الأمور مضطربة في بحر التيه، ودياجير الظلام.

وأخذ هذا البعد بالحسبان عند تحليل الأحداث، لا يعني الاتكال أو الاتكاء على نظرية التآمر في كل الوقائع والأحداث، وإنما يعني ضرورة فحص الحدث بروية قبل الانجرار العاطفي وراء ظاهر معسول، أو أسباب معلنة، فلا بد من التمحيص لمعرفة الحقيقة، وتقرير المواقف بناء عليها.

فالمطلوب أخذ العبر والاستفادة من دروس الحدث، سواء أكان سبب الحدث ذاتياً أم تآمرياً، وسبيلنا لذلك هو التصويب والحذر، تصويب الأخطاء الذاتية، واليقظة والحذر من كيد المتآمرين، ويتطلب هذا الرجوع بالخبر لأهل الدراية بالأحداث وتحليلها، وقد أرشدنا الله تعالى إلى ذلك، فقال تعالى: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} (النساء:83)

فتشخيص الحدث والبحث عن أسبابه الحقيقية، ضرورة شرعية ومنطقية، ليكون مقدمة وسبيلاً لعلاج الجراح، والنهوض من جديد، فالأيام دول، والجراح لا تدوم، والله تعالى يقول: {إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ} (آل عمران:140)
لكن الأمر بحاجة إلى وعي، وتفاؤل، وإرادة صلبة، وعزائم صادقة.

فالنظرة السوداوية لواقعنا إن لم تخترقها ومضات الأمل، فستكون سهماً يضرب في عمق جراحنا ليزيدها إثخاناً، ويؤدي إلى استفحال الداء، ويؤخر شفاءنا مما نحن فيه، فالأمل مطلوب، والتفاؤل منشود، جنباً إلى جنب مع الوعي، والهمم العاملة، والنوايا المخلصة، والأهداف النبيلة، والسبل النظيفة، المستنيرة بهدي الله ورسوله الكريم، صلى الله عليه وسلم. عسى الله أن يمدنا بعونه وتأييده، وأن يهدينا سواء السبيل، وأن يلهمنا السداد والتوفيق.

الثقة بين الراعي والرعية في ضوء قيم الإسلام والواقع الرشيد

دعا الإسلام المسلمين إلى تنظيم شؤون حياتهم وفق أحكامه وقيمه، على درب عبادتهم المطلقة لله، ورضاهم بحكمه في منشطهم ومكرههم، وفي عسرهم ويسرهم، وقد حذرهم سبحانه وتعالى من رفض العمل بحكمه، فقال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً}(النساء: 65)، فلا مناص للمؤمن من التقيد التام بحكم الله في كل شأنه، حتى في خصوصيات حياته، لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً}.(الأحزاب: 36)

وينضوي تحت لواء تنظيم حياة المسلمين وفق شرع الله وحكمه، أن يؤدي المسؤول حق الله في نصح رعيته، وحكمهم بالنزاهة والإنصاف، من منطلق حقهم عليه، وواجبه تجاههم، والرسول، صلى الله عليه وسلم، ينبه إلى هذا الواجب، فعن عبد اللهِ بن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّهُ سمع رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (كُلُّكُمْ رَاعٍ ومسؤول عن رَعِيَّتِهِ؛ فَالإِمَامُ رَاعٍ، وهو مسؤول عن رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ، وهو مسؤول عن رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ، وَهِيَ مسؤولة عن رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ، وهو مسؤول عن رَعِيَّتِهِ، قال: فَسَمِعْتُ هَؤُلاءِ من رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وَأَحْسِبُ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: وَالرَّجُلُ فِي مَالِ أبيه رَاعٍ، وهو مسؤول عن رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسؤول عن رَعِيَّتِهِ).(*)

ويحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسؤول من ممارسة أي شكل من أشكال الغش

* صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب العبد راع في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه.

لرعيته، على أي صعيد، فيقول: (ما من عَبْدٍ يَسْتَرْعِيهِ الله رَعِيَّةً، يَمُوتُ يوم يَمُوتُ، وهو غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ، إلا حَرَّمَ الله عليه الْجَنَّةَ).[1]

وعلى صعيد الرعية، فإن من أهم واجباتها نحو المسؤول عنها أن تذعن له بالطاعة، ما دام يسوسها بغير معصية لخالقها، وقد أمر الله بطاعة أولياء الأمور في سياق الأمر بطاعته سبحانه وطاعة رسوله، صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً}.(النساء: 59)

كما أن من واجبات الرعية نحو المسؤول عنها، أن تقدم له النصح المخلص والصادق، فعن تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، رضي الله عنه، أَنَّ النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قال: لِلهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ ولائمة الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ).[2]

فإذا ما تحقق من المسؤول والرعية حسن التوجه للأخذ بحكم الله والعمل بموجبه، وانطلق المسؤول مما أنيط به من واجب النصح والرعاية والإنصاف لرعيته، وانطلقت الرعية من استشعار وجوب نصح المسؤول وطاعته في غير معصية الله، فإن الطرفين سيلتقيان على صعيد تقاسم الحقوق، والسعي إلى تحقيق المصالح العليا، لدينهم وأمتهم وأشخاصهم وذراريهم، وحينذاك يمكن للثقة أن توجد بينهما وتتعزز، وسينطق لسان حال المسؤول ومقاله مردداً: (روحي فداك رعيتي)، وستنطلق حناجر أفراد الرعية وأعمالهم معبرة عن استعدادها الصادق لفداء راعيها بالمهج والأرواح، ليس على طريقة أهل الرياء والنفاق، وإنما على نهج الذين صدقوا الله في إيمانهم وأقوالهم وأعمالهم، ممن قال الله فيهم: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً}.(الأحزاب: 23)

فالإسلام بأحكامه وقيمه يزرع الثقة بين الراعي والرعية، ويعزز بقاءها، لتثمر خيراً

1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.
2. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

يعمهما، فيعيش الراعي بين رعيته آمناً إلا من غادر حاقد خائن، ومن خير الشواهد على تمتع الراعي بالأمن بين رعيته في ظل الواقع الرشيد للوجود الإسلامي، ما استنتجه الفارسي الذي شاهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نائماً، فيروى أن رسولاً لكسرى جاء إلى المدينة لمقابلة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، فسأل عن قصره المنيف، أو حصنه المنيع، فدلّوه على بيته، فرأى ما هو أدنى من بيوت الفقراء، ووجده نائماً في ملابس بسيطة تحت ظل شجرة قريبة، فقال مقولته الشهيرة: (حكمت، فعدلت، فأمنت، فنمت يا عمر).

وفي هذه القصة قال الشاعر حافظ ابراهيم:

وَراعَ[1] صاحِبَ كِسْرى أنْ رَأى(عُمَراً) ... بَيْنَ الرَّعِيَّةِ عُطْلاً[2] وهوَ راعِيها
وعَهدُهُ بِمُلوكِ الفُرسِ أنَّ لها ... سُوراً مِن الجُنْدِ والأحراسِ يَحْمِيها
رآهُ مُستَغْرِقاً في نَومِهِ فَرأى ... فيه الجَلالَةَ في أَسْمَى مَعانِيها
فوقَ الثَّرى تَحت ظِلِّ الدَّوْحِ[3] مُشْتَمِلاً ... بِبُرْدَةٍ[4] كادَ طُولُ العَهْدِ يُبلِيها
فهانَ في عَيْنِهِ ما كانَ يُكبِرُهُ ... مِنَ الأكاسِرِ والدُّنيا بأيْدِيها
وقال قولةَ حَقٍّ أصبحت مَثَلاً ... وأصبحَ الجيلُ بعدَ الجيلِ يَرويها
أَمِنتَ لمّا أَقَمْتَ العَدْلَ بَيْنَهُمُ ... فَنِمْتَ نَوْمَ قَرِيرِ العَيْنِ هانِيها[5]

وفي ظل ثمار الخير اليافع الذي تثمره الثقة التي يزرعها الإسلام بين الراعي والرعية، فإن الرعية تقف خلف راعيها في الشدائد والمحن، وتنافح عنه بأموالها وأبدانها، كما نافح الصحابة الكرام عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، بصفته نبيهم وقائدهم وراعيهم، ومن شواهد هذه المنافحة النابعة من الحب والثقة، ما حصل من سعد بن أبي وقاص، وفق الخبر

1. راع: أذهل.
2. عطلاً: في حالة بسيطة كعامة الناس.
3. الدوح: الشجرة الكبيرة. .
4. بردة: مرتدياً عباءته.
5. ديوان حافظ، ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين وآخرون، ط. دار العودة للصحافة والطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1/ 90.

الذي ترويه عَائِشَةَ، حيث قالت، رضي الله عنها: (سَهِرَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، مَقْدَمَهُ الْمَدِينَةَ لَيْلَةً، فقال: لَيْتَ رَجُلاً صَالِحاً من أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ، قالت: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ، سَمِعْنَا خَشْخَشَةَ سِلاحٍ، فقال: من هذا؟ قال: سَعْدُ بن أبي وَقَّاصٍ، فقال له رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: ما جاء بِكَ؟ قال: وَقَعَ في نَفْسِي خَوْفٌ على رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ، فَدَعَا له رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ نَامَ).[1]

فالثقة التي يريدها الإسلام أن تكون بين الراعي والرعية هي الثقة المثمرة، التي تنبع من معين الحب والصدق والإيمان، حيث الحقوق واضحة، وكذلك الواجبات، لكل من الراعي والرعية تجاه بعضهما، فلا مسوغ للكره ولا الغدر، ولا البطش ولا القهر، ما دامت الثقة في عافية، وفي منأى عن الأزمات التي تولد الضغائن والأحقاد، التي تنشأ من كبت الحريات، وقهر الرعية، أو طمعها وحسدها لموقع المسؤول ومكانته، وهو يقوم بما أنيط به من تكليف، بعيداً عن الزهو بشرف، الله سائله عنه، والله أعلم بخطورة عواقبه، ففي الحديث الصحيح عن أبي هُرَيْرَةَ عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ على الإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يوم الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتْ الْفَاطِمَةُ).[2]

هدانا الله للعمل بكتابه وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، في علاقاتنا، رعية ومسؤولين، لنكون كما أراد الله لنا، رحماء بيننا، كالجسد الواحد، ووفق ما قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (تَرَى الْمُؤْمِنِينَ في تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى له سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى).[3]

1. صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، رضي الله عنهم، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه.
2. صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب ما يكره من الحرص على الإمارة.
3. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم.

على أي شيء نتناحر؟؟!

غريب أمرنا عجيب، أرضنا محتلة، ومقدساتنا مهددة، ونحن في المجمل أسرى حتى النخاع، وإخوتنا وأبناؤنا وأبطالنا رهن في يد السّجان الغاصب، واقتصادنا مكبل، وحريتنا مفقودة، وكرامتنا منتهكة، ومستقبلنا يلفه الغموض... إلخ.

ومع كل ذلك نتناحر ... ونتناحر ... ونتناحر ... على أي شيء؟! لا ندري، هل نتناحر على السيادة المنقوصة؟! أم على نصيب من كعكة (الرضوخ)؟! لا ندري.

إن حالنا في الوضع الطبيعي يمكن أن يدرج في نطاق الابتلاء الذي قال الله تعالى فيه: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ} (البقرة:155).

فلو واجهنا الابتلاء بالصبر والجلد والعمل الدؤوب على تغيير ما بنا من سوء، وإصلاح ما بنا من خلل، لصدق فينا قول الله تعالى: {وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}(البقرة:155) وقوله سبحانه{الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ} (البقرة:156). فابتلاؤنا بذلك يكون ضارة نافعة بإذن الله.

لكن وجه العجب والغرابة يكمن في طريقة تعاطينا مع الظروف المحيطة بنا، فحين نتجاهل الحقيقة المرة، ونتخيل أننا أصبحنا نملك الأمر وزمامه، ونتناحر على فتات هزيل، والقتل والدمار متربصان بنا وبديارنا، فهنا نكون قد جلبنا لأنفسنا ووطننا ودينا الويلات، فإن مبادرتنا إلى المصاعب التي تعترض حياتنا والشدائد التي نعانيها لنحملها بأيدينا، ونسعى نحوها بأرجلنا؛ فتلك خدمة نقدمها لأعدائنا المتربصين بنا على طبق من ذهب، وبساط من حرير.

فحين نختار التناحر والخصومة والشقاق والنزاع سبيلاً؛ فإننا نركس أنفسنا في مخازي الردى، والله حذرنا من سلوك هذا الدرب فقال تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ}(الأنفال:46)، فهو درب الفشل والخسران، وهو درب الفتنة التي يبغيها الأعداء لنا.

وفي ظل اختيار التناحر درباً رغم كل المحاذير المحيطة به، يحتار المرء في الحكم على عقولنا، أهي واعية بما يدور، أم غافلة عما حولها؟! فإن كانت غافلة فتلك مصيبة، وإن كانت واعية فالمصيبة أعظم.

ونخشى أن نصبح مثلاً يضرب في الغفلة والتيه، والانشغال بالترهات أمام الخطب العظيم، كتلك القرية التي كانت محاصرة تواجه مصيرها المحتوم، وأهلها مختلفون هل الدجاجة من البيضة؟! أم البيضة من الدجاجة؟! فذهب جدلها مضرباً للأمثال.

فإذا كانت نتيجة التناحر الفشل، وإذا كان التناحر يحقق لأعدائنا أهدافهم، أو ييسر تحقيقها، وإذا كان ما نتناحر عليه سراب بقيعة، وأوهام في المخيلات، فالتناحر إذن جريمة نكراء، نقترفها بحق أنفسنا وديننا ووطننا وشعبنا وتاريخنا، وبحق شهدائنا وأسرانا والمرابطين فينا.

فاتقوا الله فينا أيها المتنفذون، يا من تملكون زمام وأد الفتنة، على رسلكم أوئدوها، إنها ملعونة، وملعون من يوقد نارها، أو يساهم بذلك، ولو بكلمة أو رصاصة أو موقف....إلخ.

لقد خسرت قضية شعبنا الكثير جراء التناحر على مختلف الأصعدة؛ المحلي منها والإقليمي والعالمي، وعلى المستويات النفسية والعسكرية والاقتصادية والسياسة والدينية، فهل لنا أن نفيق قبل أن تسبقنا عجلة الزمن، ونخسر ما بقي من قضيتنا وشعبنا ونفوسنا ومقدساتنا وأرضنا ووجودنا؟؟!

فأملنا بالله كبير أن ييسر لنا سبيل الإفاقة، ويزيح عن عقولنا الغفلة، ويصرف عن أبصارنا الغشاوة، وأن يطهر قلوبنا من علل الهوى الذي يقود لانتصار كل ذي رأي لرأيه، والله نسأل أن يأخذ بأيدينا لما يحب ويرضى، فنكون مع الحق، نسير حيث سار، ونجانب الباطل وأهله بغض النظر عن أسمائه ومسمياته.

وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، فلنتوجه إلى الله بقلوب خاشعة وجلة، نعاهده أن نكون أوفياء لمبادئنا وقضايانا المشروعة، ودماء شهدائنا، وأنات جرحانا، ولأسرانا البواسل، نعاهده أن نكون أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين، كما أراد الله سبحانه لنا، ونعوذ بالله من أن تستحوذ علينا الأهواء، ومن أن يزين الشيطان لنا سوء العمل فنراه حسناً.

اللهم لا تردَّنا على أعقابنا خاسرين، واجعلنا من ورثة جنة النعيم، واحشرنا اللهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

التنازع في ضوء التعددية والبون الشاسع بين واقع الأمة ومبادئها

ضرب من الوهم والخيال، تصور اتفاق الناس في المواقف والآراء جميعها، فمن الطبيعي والمنطقي أن تختلف وجهات النظر، بناء على تعدد القناعات والمصالح والاجتهادات، وهذا التباين مشاهد في المجتمعات الكبيرة والصغيرة، على مختلف مشاربها وأزمانها وأماكنها، غير أن طريقة تعاطي الناس مع هذه الظاهرة تتباين بينهم، فبعضهم يتعامل معها بواقعية، فيفهم الآخر، ويتوقع وجود المخالف، ويحاوره بالحجة والبرهان، ويستخدم في التعامل معه أساليب حضارية، ترتكز على المجادلة بالتي هي أحسن، ويتوقع احتمالات الصواب والخطأ في المواقف الاجتهادية، دون إدعاء احتكار الحقيقة، وهؤلاء عمادهم القانون، ومنهجهم النظام والانضباط، وقيمهم المثل العليا.

وفي المقابل، هناك صنف آخر من الناس منهجهم التعصب الأعمى، والكراهية البغيضة، فيزعمون امتلاك الحقيقة دون سواهم، ويدعون أنهم على الصواب المطلق دون غيرهم، ترى عقولهم صخوراً عاتية، يستخدمون الضرب والشتم والقتل وسائل وأساليب للوصول إلى غاياتهم، ويستحوذون بالقوة والبطش على ما يمكنهم الوصول إليه من المنافع المادية والمعنوية، وما حديثهم عن المثل سوى للتضليل والخداع، بدليل أنهم ما يلبثون أن يلقوا بها جانباً، في الوقت الذي تتاح لهم فيه صولة هنا، أو جولة هناك.

وعند المراجعة المبصرة لمبادئ الإسلام، ونصوصه، وأحكامه، وقيمه، والنظر الثاقب في أحوال العرب والمسلمين، يظهر البون الشاسع بين واقع المسلمين، وبين مبادئ دينهم، فالصنف الأول يستند للأدلة والأسس المتضمنة في مبادئ الإسلام، وأحكامه، وقيمه، ونصوصه، بينما واقع المسلمين ينشّد بقوة لمواقف الصنف الثاني وسلوكه، مما يشير إلى حالة من الانفصام بين كثير من أحوال المسلمين وبين إسلامهم. والشواهد على هذا التشخيص لا تعد ولا تحصى، والاستشهاد بشيء منها في بعض المقامات أو المناسبات، يكون على سبيل المثال لا الحصر.

وقضية التشاحن بين المسلمين تشهد لحالة الإنفصام تلك، فقد حذر القرآن الكريم المسلمين من خطورة التنازع وعواقبه، فقال تعالى: {وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال: 46)، غير أن المسلمين –إلا من رحم الله– يصبون جام أحقادهم، ويسلطون أسلحتهم اللسانية والسنانية نحو بعضهم بعضاً، غير آبهين بالمخرجات والنتائج، ففي أشد ظروفهم محنة، وهم محاصرون من كل حدب، والأخطار الجسام تحدق بهم من كل جانب، ترى خلافهم حامي الوطيس، أيجتمعون لبحث الدمار الداهم ؟؟ أم لا يجتمعون ؟! وإن اتفقوا على الاجتماع، اختلفوا حول زمانه، ومكانه، وجدول أعماله، وفي أثناء ذلك يصول الغزاة ويجولون في ربوع الأوطان على مهل وتريث، حتى يقضوا نهمهم من شجره وحجره وبشره، دون أن يجدوا من ينهرهم أو يزجرهم، سوى صيحات، وبالونات، تطلق في أطراف الوطن مترامي الأطراف، لا تلبث أن تخفت، وتخبو، مع انتهاء الغزاة من تحقيق أهدافهم، وتحصيل مكاسبهم من جسد الأمة، وممتلكاتها، ومقدساتها.

أفلا يمثل ذلك صورة حية وواضحة للفشل الذي ذكره الله في معرض بيان مستحقات التنازع والاختلاف، التي كان من أبرزها كذلك ذهاب الريح، بمعنى فقدان القوة والمنعة، التي أشار إليها الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله: (يُوشِكُ [1] الْأُمَمُ [2] أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ [3] كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ [4] إِلَى قَصْعَتِهَا [5]، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ [6] قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ [7]، وَلَيَنْزَعَنَّ [8] اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ [9] مِنْكُمْ،

1. أيْ يَقْرَب.
2. فِرَق الكُفْر وَأُمَم الضَّلاَلَة.
3. بِأَنْ يَدْعُو بَعْضهمْ بَعْضًا لِمُقَاتَلَتِكُمْ، وَكَسْر شَوْكَتكُمْ، وَسَلْب مَا مَلَكْتُمُوهُ مِنْ الدِّيَار وَالْأَمْوَال.
4. جَمْع آكِل، وَالْمَعْنَى كَمَا يَدْعُو أَكَلَة الطَّعَام بَعْضهمْ بَعْضًا.
5. الضَّمِير لِلْأَكَلَة، أَيْ الَّتِي يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا بِلَا مَانِع وَلَا مُنَازِع.
6. فهل ذَلِكَ التَّدَاعِي لِأَجْلِ قِلَّة نَحْنُ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ.
7. مَا يَحْمِلهُ السَّيْل مِنْ زَبَد وَوَسَخ، شَبَّهَهُمْ بِهِ لِقِلَّةِ شَجَاعَتهمْ، وَدَنَاءَة قَدْرهمْ.
8. أيْ لَيُخْرِجَنَّ.
9. أَيْ الْخَوْف وَالرُّعْب.

وَلَيَقْذِفَنَّ[1] اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ[2]، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَا الْوَهْنُ؟[3] قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ[4])[5]

ومن دلالات الوهن تكالب الأمم على فريستها المتمثلة بأمة الإسلام، وذهاب هيبة الأمة، وما الوهن إلا وصف لبعض أحوال أمة الإسلام في هذا الزمان، الذي تسوده حالة الخصام والشقاق، التي ينتجها التنافس على الدنيا بمناصبها ومراكزها وادياتها والظهور فيها، مما أفضى إلى التنازع الذي أوصل بدوره للفشل الذي حذر الله من أسبابه وعواقبه.

والإسلام الحنيف لا يفترض اجتماع آراء المسلمين حول كل الأمور، ففي مربع الاجتهاد ومستجدات الأمور يمكن تعدد الآراء، ولكن بشرط أن لا يفسد ذلك الود بينهم، وأن لا يحرف بوصلتهم عن وجهتها الشرعية، غير أن المسلمين في كثير من الأحيان يتجاهلون التوجيهات القرآنية ذات الصلة بهذا الشأن، فيرجعون فيما يتنازعون فيه إلى المزاجيات، والأهواء، والانتماءات الفصائلية والحزبية، ويتبادلون أوصاف التخوين والتكفير والسباب والشتائم، انتصاراً لمذاهبهم وآرائهم، وتعصباً لانتماءاتهم، ويمارسون القمع والقهر والكبت للحريات الفكرية والتعبيرية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ومن ملك زمام أمر استحوذ على خيراته، وجعله حكراً عليه وصواحبه. وعن ملاحقة المخالفين حدث ولا حرج، فلو استطاع أسودهم أن يمنع الماء والهواء عن أبيضهم لفعل دون وجل، ولا يقل عن ذلك تربص أسودهم بأبيضهم، وتبلغ الملاحقات ذروتها حين ينزل الأذى البدني بالمخالف، بل تصل الأمور إلى التصفية الجسدية، بأقسى الأساليب وأشنع الوسائل والأدوات، ويعبر هذا المنحى المنحرف عن قلب واضح لظهر المجن، لكثير من التوجيهات القرآنية، الخاصة بالحث على العدل والإنصاف والقسط والموضوعية، سواء مع المخالف أم الموافق من الخصوم

1. وَلَيَرْمِيَنَّ الله.
2. أَيْ الضَّعْف، وَكَأَنَّهُ أَرَادَ بِالْوَهْنِ مَا يُوجِبهُ، وَلِذَلِكَ فَسَّرَهُ بِحُبِّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهَة الْمَوْت.
3. أَيْ مَا يُوجِبهُ وَمَا سَبَبه، وهو سُؤَال عَنْ نَوْع الْوَهْن، أَوْ كَأَنَّهُ أَرَادَ مِنْ أَيّ وَجْه يَكُون ذَلِكَ الْوَهْن.
4. وَهُمَا مُتَلَازِمَانِ فَكَأَنَّهُمَا شَيْء وَاحِد، يَدْعُوهُمْ إِلَى إِعْطَاء الدَّنِيَّة فِي الدِّين مِنْ الْعَدُوّ الْمُبِين.
5. سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، وصححه الألباني.

والأطراف، وشواهد هذه التوجيهات كثيرة، منها قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المائدة: 8)

وكثير من المسلمين المغلوبين على أمرهم يحلمون أن يستيقظوا يوماً ليجدوا أنفسهم في مجتمع يحترم كرامة الإنسان وحريته، ويعترف بحقه في الحياة والعيش الكريم، وإبداء الرأي دون وجل ولا خوف، في إطار المحافظة على الثوابت والأصول الشرعية، ومراعاة منظومة القيم والمثل العليا التي جاء بها إسلامهم الحنيف، الذي أمر بالشورى دون أن يكمم الأفواه، أو يلاحق المخالفين الذين وجدوا لأنفسهم مكاناً في حضرة النبي الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، ألم تتعدد آراء الصحابة حول مسائل عديدة؟! كما حصل حين بحثت قضية أسرى بدر، أو عند مناقشة أمر الخروج لملاقاة العدو في غزوة أحد، أو البقاء في المدينة، وكان صلى الله عليه وسلم، يسمع الآراء، ويثني عليها، ويرجح بعضها أحياناً، ولم يكن مقبولاً من أحد أن يتعصب لرأيه واجتهاده، حتى لو كان أبا بكر الصديق أو عمر بن الخطاب، وهما غنيان عن التعريف بمنزلتهما ومكانتهما عند الرسول، صلى الله عليه وسلم، وبقية المسلمين، فكم مرة تلو أخرى حدثت الاختلافات في آراء الصحابة، ولم تَنْفُذ الخلافات إلى الساحات الدموية إلا حين حدث انحراف بالبوصلة عن مسارها الشرعي الذي رضيه النبي، صلى الله عليه وسلم، لأمته، بتوجيه من ربه جل شأنه.

وفي هذا الزمان الذي نرجو الله أن يشهد الصحوة الإسلامية، لا الغفلة عن مبادئ الإسلام وأحكامه وقيمه، يؤمل أن يبادر من بيدهم زمام الأمور للأخذ بالمنهج الذي يحلم به عامة المسلمين وخاصتهم، في يقظتهم ومنامهم، الذي ينطلق من تقوى الله فيهم، ويتضمن معايير للتعامل القويم على مستوى الفرد والجماعة، والعلاقة مع الأصدقاء والأعداء، وهو منهج أصيل متجذر في مبادئ الإسلام وشريعته وقيمه، وممكن الممارسة والتطبيق، وما

يشاهد من ممارسات أخلاقية، وتقيد الراعي والرعية لديهم بمعايير وضوابط أمر ظاهر في واقع كثير من الدول والمجتمعات الأجنبية، ويشير ذلك إلى أن العمل بما جاء في الإسلام من مبادئ وشريعة وقيم، يمكن أن يجد طريقه للتطبيق لو وجدت النوايا الصادقة والعزم الأكيد على فعل ذلك، فما هي بمثاليات خيالية، وإنما المشكلة في عقلية الجانب البشري، وإرادته، وممارسته على أرض الواقع.

فلا يملك أحد أن يذم واقعاً يحتكم فيه الناس إلى لغة الحوار والمحاججة العقلية، والخضوع لرأي الناخب في اختيار الممثلين والرؤساء وأعضاء المجالس، ففي مثل ذاك الواقع يدافع الناس عن وجهات نظرهم وآرائهم، وينافحون عن قناعاتهم بوسائل مشروعة وقنوات حضارية، وفي نهاية المطاف يحتكم الجميع فيها لصندوق الاقتراع، وفور إعلان نتائج الانتخاب، يعترف المهزوم للفائز بانتصاره، ويسارع لتقديم التهاني له، ويمد يده للتعاون البناء معه فيما يحقق المصالح العليا لمجتمعه، ودولته، وشعبه، وقيمه، ويدعو مؤيديه لفعل ذلك. وأمام هذه المشاهد يتساءل المرء عن سبب حرمان المجتمعات العربية من أن تجري فيها الأمور على هذا الغرار، ووفق هذا الشكل، وقد تشمل الإجابة عن هذا التساؤل أبعاداً مختلفة، فقد يكون من أسباب ذلك طريقة التنشئة ومناهج التربية، وقد يكون منها القهر والاستحواذ والتعصب الأعمى، وقد تساهم أبعاد وأسباب أخرى في إفراز هذا الحرمان، مع التأكيد على براءة مبادئ الإسلام وشريعته من وزر ذلك، فالإسلام جعل الأمر شورى بين المسلمين، وطلب منهم مبايعة من اختاروه أميراً، ووجههم للتصرف بحزم مع من يحاول شق الصف.

وفي الوقت نفسه حث عليه الصلاة والسلام على التحلي بالصبر عند مشاهدة أخطاء الأمراء، فقال: (مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً).(*)

* صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي، صلى الله عليه وسلم: (سترون بعدي أموراً تنكرونها).

وحذر الإسلام من مسببات الفرقة والنزاع، فقال صلى الله عليه وسلم: (مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ[1]، يَغْضَبُ لِلْعُصْبَةِ، أَوْ يَدْعُو إِلَى عُصْبَةٍ، أَوْ يَنْصُرُ عُصْبَةً[2]، فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، لَا يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا[3]، وَلَا يَفِي لِذِي عَهْدٍ عهده، فَلَيْسَ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُ)[4]

وحرص الإسلام على تأكيد حرمة الدماء وقدسية الأرواح، حتى لا تستباح دون حق، في ظل الفلتان الأمني الذي تعيشه بعض المجتمعات المسلمة، فقَالَ رَسُولُ اللهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِ، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ)[5]

فهذا ما تيسر ذكره بشأن حالة النزاع بين المسلمين، كشاهد على البون الشاسع بين واقع المسلمين وبين إسلامهم، عساه يقود إلى وضع اليد على الجراح النازفة من جسد الأمة، وأملاً بأن يفيد في تضميد الجراح، أو على الأقل في وقف النزف، والاهتداء لعلاج حال أمة الإسلام، التي تعاني الأمرين من وجود هذا البون بين واقعها ومبادئها.

---

1. هِيَ الْأَمْر الْأَعْمَى لَا يَسْتَبِين وَجْهه، كَتَقَاتُلِ الْقَوْم لِلْعَصَبِيَّة .(صحيح مسلم بشرح النووي: 6/ 322).
2. يُقَاتِل لِشَهْوَةِ نَفْسه وَغَضَبه لَهَا ، وفي رواية: يَغْضَب لِلْعَصَبَةِ، وَيُقَاتِل لِلْعَصَبَةِ، وَمَعْنَاهُ: إِنَّمَا يُقَاتِل عَصَبِيَّة لِقَوْمِهِ وَهَوَاهُ. (صحيح مسلم بشرح النووي: 6/ 322)
3. لا يَكْتَرِث بِمَا يَفْعَلهُ فِيهَا، وَلَا يَخَاف وَبَاله وَعُقُوبَته (المصدر السابق).
4. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن.
5. صحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم.

طاحونة الإرهاب

تطالعنا وسائل الإعلام صباح مساء بأخبار من هنا وهناك عن أحداث تقع باسم الدين، أو تنسب إليه دون تمحيص، ونقصد بذلك أحداث القتل والتفجير والترويع التي تقع في أنحاء مختلفة من بقاع الأرض، مما صار يدرج تحت مسمى الإرهاب، ونود هنا أن نناقش هذه القضية، ومسماها، من بعض الجوانب والأبعاد ذات الصلة بالمسمى والاستخدام والآثار، وذلك على النحو الآتي:

مسمى الإرهاب:

الإرهاب مأخوذ من الرهب، وهو الخوف، ففي لسان العرب: رَهِبَ، بالكسر، يَرْهَبُ رَهْبَةً ورُهْباً، بالضم، ورَهَباً، بالتحريك، أَي خافَ.(*)

ومسمى الإرهاب قد يستخدم لمعان نبيلة، أو معان رذيلة، فإذا استخدم للتعبير عن الخوف من الله فيندرج في سياق الفضيلة، وإذا استخدم لإثارة فزع الآمنين، ودب الذعر في أوساطهم دون حق، فهو المذموم عند الله وفي رسالاته.

موضة تلبيس المسلمين ثوب الإرهاب:

بات واضحاً في أيامنا هذه أن مسمى الإرهاب صار يطلق على الأعمال التي تمس أمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم ومقدساتهم، وانتشر هذا المسمى بشكل واسع وكبير بعد أحداث 11 أيلول عام 2001م.

ومن الغريب العجيب المسارعة إلى نسبة معظم أحداث الترويع التي تقع في بقاع الدنيا إلى المسلمين، وأحياناً إلى الإسلام، وهو منها براء براءة الذئب من دم يوسف، عليه

* ابن منظور، لسان العرب، 6/ 240.

السلام، فهي نسبة ظالمة، بغض النظر عن مطلقيها، الذين يطلقونها على هذا النحو لتحقيق أهداف، الله أعلم بحقيقتها، وأبسط قواعد المنطق والإنصاف تدعو إلى التحقق والتثبت من المزاعم والادعاءات، بغض النظر عن الجهة التي تطلقها، حتى إن صدرت عن المسلمين أنفسهم، فالمسلمون بشر، يتوقع أن يكون فيهم مختلف أطياف البشر وصفاتهم، فمنهم الواعي والجاهل، والصادق والكاذب، والحكيم والمتهور...إلخ.

وهم يتأثرون بالبيئة المحيطة بهم، ويؤثرون بها، وحالهم يختلف حين يعيشون الظلم والقهر، عن حالهم حين يعمهم العدل، وتفسح لهم الحريات.

والأحداث الموسومة بالإرهاب جديرة بالفحص المخبري، للتوصل إلى فاعليها والمخططين لها، غير أن هذا الفحص يغيب عنها لأسباب مختلفة، فأحياناً يتسرع بعض الناس في إلقاء التهم جزافاً لهول الحدث، أو لانطباعات سابقة تعشش في أذهانهم وعقولهم ونفوسهم، ويغيب التمحيص أحياناً أخرى إذا كانت هناك جهة منفذة دبرت الأمر بليل، وحبكت حلقات المسلسل، فتقع الحوادث، ويترك الحكم عليها لاجتهادات الناس، أو تنسب إلى الجهات التي يريدها أصحاب المسلسل، وفي بعض الأحيان يعلن الفاعل عن نفسه جهاراً نهاراً، وهنا أيضاً يلزم الفحص والتمحيص فيما يخص هوية الفاعل وشخصيته وانتمائه والبيئة المحيطة به.

فالأحداث التي تتسم بالإرهاب تتعدد صورها وتختلف مواقعها، لكنها أصبحت تمس المسلمين وإسلامهم في فكرهم ومعتقداتهم واقتصادهم وسياستهم واجتماعياتهم وباقي نواحي حياتهم الخاصة والعامة، وذلك في مختلف أنحاء الدنيا، على تفاوت في النسبة والحجم والآثار.

المستفيد من أعمال الإرهاب والمتضرر منها:

من المعايير التي لا بد من اللجوء إليها في عملية تمحيص حوادث الإرهاب، هو وضعها

في ميزان الفائدة والضرر، إذ إن هذا المعيار يوجه البوصلة في كثير من الأحيان نحو صانع الحدث، وإن كان يختبئ وراء ستار، فكثيراً من الحوادث التي تنسب إلى فاعلين مسلمين تصب في مصالح أعداء الإسلام، فبعضها لم يبعد عن أن يكون مسوغاً، أو دافعاً، لضرب مصالح المسلمين، وشن حملات العداء عليهم، وتضييق الخناق حول رقابهم.

ومن التوجيهات القرآنية التي تدعو إلى تمحيص الأمور والأحداث، ما ورد في قوله تعالى: {وَإِذَا جَاءهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً} (النساء: 83)

فحص مدى تقيد الأعمال بالحكم الشرعي:

من المعايير التي لا بد من اللجوء إليها في عملية تمحيص حوادث الإرهاب، ضرورة فحص مدى تقيد الأعمال بالحكم الشرعي.

فكثيراً من الحوادث التي تنسب إلى فاعلين مسلمين تتناقض مع شريعة الإسلام، ولا يتصور عاقل أن تصدر عن مسلم يخاف الله، ويعمل وفق شريعته، فقتل الأبرياء جريمة ينكرها الإسلام، سواء كان هؤلاء الأبرياء مسلمين أم غير مسلمين، ومع ذلك فإن جرائم ترتكب ضد أطفال ومسالمين، وتنسب لفاعل مسلم، فرداً أو جماعة، والإسلام منه براء، لأن دستور الإسلام يحظر قتل الأبرياء، فيقول تعالى: {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}

(المائدة: 32)

والله وجه المسلمين للتمييز بين صنوف غير المسلمين، فمن هؤلاء المسالم للمسلمين، ومنهم المعادي الظالم، فيقول تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ

يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}(الممتحنة:8 – 9)

ويقول سبحانه وتعالى: {لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ}(آل عمران:113)

فكيف بعد ذلك يشرع مسلم لنفسه أن يستبيح دماء أناس دون حق، ومن غير ذنب اقترفوه، أما علم أولئك المستبيحين أن الله تعالى حرم أخذ الإنسان بجريرة غيره، فقال تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ...} (فاطر: 18)

وإذا كان لصانعي حوادث الإرهاب غايات نبيلة، فلا بد لهم أن يبحثوا عن وسائل شرعية للوصول إليها، إذ إن الإسلام يرفض مبدأ ميكافيلي المتمثل في تبرير الوسيلة بالغاية، ويقرر الإسلام أن الغايات الطاهرة النبيلة لا بد من السعي لتحقيقها بوسائل مشروعة، ولنا في رسولنا محمد، صلى الله عليه وسلم، وصحابته البررة، رضي الله عنهم، خير قدوة، حيث صانوا حياة الآمنين وأرواحهم، ومنعوا الاعتداء على البيع والصوامع، وجعلوا هداية الناس إلى الخير هدفهم، ولم ينتصروا لظلم أو ظالم، وإنما قالوا عن دعوتهم ودربهم وغايتهم: جئنا نخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.(*)

طاحونة الإرهاب:

الإرهاب بالمفهوم السائد في الأوساط المعاصرة لا يعرف ديناً، وليس له انتماء محدد، فهو ينتشر في ربوع الدنيا بأحجام وألوان ومستويات مختلفة، ويجمع أشكاله قاسم مشترك يتمثل في كونه طاحونة تأكل الأخضر واليابس، وتطيح بصروح الأمن والسلام المجتمعي حيثما

* الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل: 3/ 129.

حلت أحداثه، ووقعت منكراته، ومن الظلم العظيم والإجحاف المستبين أن يلحق وصف الإرهاب بالإسلام والمسلمين، دون تمحيص أو تثبت، لغاية في نفوس جهات متربصة أو أطراف منتفعة من آثار تلك الحوادث، وجراء استغلال نسبة فعلها إلى المسلمين.

ويبدو أن بعض المسلمين أفراداً وجهات ينساقون مع التيار الجارف دون بصر ولا بصيرة، فيقومون بدور أسنان الطاحونة التي تستهدف طحنهم ودينهم ومصالحهم ووجودهم، فيقومون بأعمال تلحق الضرر بسمعة دينهم، وتشوه حقيقته، أو يدعون القيام بأعمال من هذا القبيل من باب الزعم الباطل، متجاهلين الحكمة والدراية وحسن التدبير، ومستدبرين الفطنة والحس السليم، فيقعون ويوقعون أمتهم في متاهات ومستنقعات الوحل الضار، أو المدمر لكيانهم، ويفسحون المجال رحباً للمتربصين بهم الدوائر، وهذا التربص قديم جديد، حيث وجد والقرآن ينزل على قلب الرسول الأمين محمد بن عبد الله، صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: {وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}(التوبة: 98)

والتربص يتجدد اليوم بأشكال أخرى، ومن جهات عدة، ويظهر واضحاً جلياً في استغلال أحداث الإرهاب أو صنعها لرمي الإسلام والمسلمين بها، حتى يطحنا بنارها، والله تعالى يقول: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}(يوسف: 108)

تباين مكاييل الحكم على الأعمال الإرهابية

وحيث إن الإرهاب الظالم تنكره الأديان السماوية، وترفضه القيم النبيلة، ويتضرر منه الأبرياء، فمن المفترض أن يرفض بكل أشكاله وصوره، بغض النظر عن فاعليه، غير أن المشاهد في عالمنا المعاصر أن الإرهاب يرفض إذا مارسه بعض الناس دون سواهم، فإجراءات الوقاية من الإرهاب بالاحتياطات الأمنية في المطارات والمعابر، وفي المحطات

والملاعب، والأسواق والمتاجر، وفي الأماكن كلها، تجري على قدم وساق، خوفاً من صنف معين من الناس، أما الإرهاب الذي تقوم به دول، أو جهات منظمة ورسمية، فينتهك حرمات الدول وقوانينها وأراضيها، ويتجاوز معايير القيم، ويقع برعاية حكومات ودول، فإن العيون تغمض عنه، وأحياناً تيسر له الإمكانات، وتفتح له الآفاق، ولا يجد في النهاية سوى استنكار على استحياء من بعض الناس، وسكوت من بعض آخر، ومدح وثناء من آخرين على القوة والقدرة التي تمكنت من خلالها الجهات الفاعلة للإرهاب من تنفيذ مآربها، والناس نيام أو قيام، وهذا التعدد في المكاييل، بالإضافة إلى أنه إجحاف وظلم، فإنه يساعد في تهيئة الأجواء لوقوع المزيد من الإرهاب، كونه سماداً لتربة خصبة تنبت زرع الانتقام، ودافعاً بارزاً لردة الفعل على الشعور بالقهر والظلم، ولا أحد يضمن شكل ردة الفعل، ولا حجم الانتقام وزمان وقوعه ومكانه، فإذا أراد العالم أن يشن حرباً على الإرهاب؛ فعليه أن يشيع في الأرض العدل والسلام، وأن يرد الحقوق إلى أصحابها، وأن يحترم كرامة الإنسان، وأن يصون حقه في الحرية والحياة، بغض النظر عن لونه، وجنسه، ودينه، ولغته، ومستوى ثروته.

الفصل الثامن
اقتصاد

الرقم	عنوان المقال	الصفحة
.40	كان الله في عون الفقراء	265
.41	تجويع للتركيع وأنى ذلك	277
.42	المطلوب الأهم في مواجهة أزمة المال العالمية	283
.43	شفافية مكافحة الفساد الإداري والمالي	294

كان الله في عون الفقراء

تتصاعد بين الحين والآخر وتيرة الاحتجاج في كثير من البلاد على غلاء الأسعار، حيث بات كثير من أرباب الأسر عاجزين عن توفير متطلباتها المختلفة، بسبب تدني الأجور مقابل غلاء طال معظم مستلزمات الصرف والإنفاق، وحيال هذه المعضلة تتباين وجهات النظر، وتتعدد مقترحات الحلول، غير أن المواطن الفقير، فيما يعانيه بسبب قلة ذات اليد، وتعدد متطلبات الحياة، يجد نفسه أمام خيارات صعبة، منها الإيجابي المقبول، ومنها السلبي المرفوض دينياً، ومن خلال استقراء الأحداث وتقويمها في ضوء توجيهات الشريعة الإسلامية، نود أن نقف عند بعض خيارات مواجهة الفقر المدقع، والغلاء المسعور.

طرق أبواب العمل المثمر:

من الخيارات الإيجابية المقبولة دينياً في مواجهة الغلاء والفقر، البحث الجاد والعملي عن أسباب المشكلة، وطرح الحلول المناسبة لها، فإذا تعلقت المشكلة بنكوص عن العمل، وإيثار الاسترخاء والكسل، والإحجام عن المثابرة والجد، فإن الله تعالى حث في قرآنه الكريم على العمل وطرق أبواب الاستثمار، فيقول تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}(الملك: 15)، فالأرض بمكوناتها وعالمها الواسع، تمثل كنزاً للأرزاق، بناء على ما أودع الله فيها من خيرات، لا يصل الإنسان إلى بعضها إلا بالسعي والبحث، وإلا فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، فحري بالقوي الذي يطلب العون والمساعدة، أن يُوجَّه إلى العمل، وأن يُساعد على توفير آلته ووسائله، وبخاصة من قبل الدولة التي ترعاه، لأن مسؤوليتها تشمل توفير فرص العمل، وتخفيض مستوى البطالة وحجمها.

فلا قبول لقاعد عن عمل يجلب له ولعياله الرزق والعيش الكريم، بغض النظر عن لون العمل وشكله، بشرط أن ينسجم مع مبادئ الشرع وأحكامه وقيمه النبيلة، وأدلة الحث على العمل كثيرة، منها قوله تعالى: {فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}. (الجمعة: 10)

فالله منع التجارة ساعة صلاة الجمعة، ثم أكد على إباحة الانتشار في الأرض بعدها؛ طلباً للأرزاق التي أنعم الله بها على الخلق، ونشرها في أنحاء الأرض، والرسول، صلى الله عليه وسلم، حث على ابتغاء الرزق بالوسائل المتاحة لطالبه، مرشداً إلى ضرورة إيثار ذلك على درب التسول، وبالإضافة إلى الحديث الذي سيق آنفاً، جاءت روايات أخرى صحيحة تؤكد هذا المنحى، منها ما جاء عن الزُّبَيْرِ بن الْعَوَّامِ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (لأَنْ يَأْخُذَ أحدكم أَحْبُلاً، فَيَأْخُذَ حُزْمَةً من حَطَبٍ فَيَبِيعَ، فَيَكُفَّ الله بِهِ وَجْهَهُ، خَيْرٌ من أَنْ يَسْأَلَ الناس أُعْطِيَ أَمْ مُنِعَ).[1]

ومن منطلق تشجيع العمل اليدوي المنتج، دعا الرسول، صلى الله عليه وسلم، لامتثال منهج نبي الله داود، عليه السلام، فعن المِقْدَامِ، رضي الله عنه، عن رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا من أَنْ يَأْكُلَ من عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللهِ دَاوُدَ، عليه السَّلام، كان يَأْكُلُ من عَمَلِ يَدِهِ).[2]

والرزق الذي يحث الرسول، صلى الله عليه وسلم، على طلبه ليس شرطاً أن يتولد عنه غنى فاحش، وإنما المطلوب منه في الحد الأدنى أن يلبي الاحتياجات الأساسية، ويحقق الكفاف، فعن عبد اللهِ بن عَمْرِو بن الْعَاصِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، قال: (قد أَفْلَحَ من أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ الله بِمَا آتَاهُ).[3]

1. صحيح البخاري، كتاب المساقاة، باب بيع الحطب والكلأ.
2. صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده.
3. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة.

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يدعو ربه أن يجعل رزق آله قوتاً، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، قال:(قال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: اللهم اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا).[1]

أي اكفهم من القوت بما لا يرهقهم إلى ذل المسألة، ولا يكون فيه فضول يبعث على الترفه والتبسط في الدنيا، وفيه حجة لمن فضل الكفاف؛ لأنه إنما يدعو لنفسه وآله بأفضل الأحوال.[2]

واجب المجتمع والدولة نحو توفير فرص العمل ومعالجة مشكلة البطالة:

حين يتم الأخذ بمنهج الإسلام الحنيف وأحكامه في الشأنين الاقتصادي والاجتماعي، تنحصر ظاهرة الفقر المدقع في أضيق نطاق، وتتقلص فجوات الفروق بين فئات الناس وطبقاتهم لتصبح مقبولة منطقياً وواقعياً، وذلك حين يكون الغنى، ولكن لا يكون الحرمان الناتج من فراغ ذات اليد، فإذا وجد الفقراء حاجاتهم، وعاشوا حياتهم بكرامة دون عوز ولا فاقة، فليبارك الله للأغنياء ثراءهم، وليزيدهم الله غنى فوق غناهم، فالكل لديه الكفاف على أبسط تقدير، ومن ثم لا ضير من الغنى والثراء ما دام الفقر غائباً أو مغيباً، من هنا تتجه الأنظار محدقة نحو واجب الدولة ومؤسساتها والمجتمع ومنظماته والقادرين فيه، نحو المساعدة الحثيثة والجادة في العمل للقضاء على ظاهرة البطالة والعوز والفقر في المجتمع.

فإذا كان على المواطن أن يتأهل لسوق العمل، وأن ينخرط فيه، ليكون عضواً منتجاً لذاته وأسرته ومجتمعه ووطنه، فإن الدولة ومؤسساتها الرسمية، والمجتمع بمنظماته وأصحاب اليد الطولى فيه، يقع عليهم واجب توفير فرص العمل والاستثمار، لإحداث انتعاش في سوق العمل، ونماء في الاقتصاد الوطني، وقد نبه إسلامنا العظيم إلى هذه الغاية بأساليب ومناسبات عدة، فالإسلام يضع المسؤولين أمام واجبهم، فلا مجال لإغماض الطرف عن القيام

1. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة.
2. فتح الباري، 11/ 275.

بواجب المسؤولية المنوطة بالمسؤول، تجاه من استرعاه الله رعايتهم، فكلكم راع ومسؤول عن رعيته، كما جاء في الحديث الصحيح عن ابن عُمَرَ، رضي الله عنهما، أَنَّه سمع رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: (كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ؛ الإِمَامُ رَاعٍ ومسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وهو مسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، ومسؤولةٌ عن رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، ومسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، قال: وَحَسِبْتُ أَنْ قد قال: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أبيه، ومسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ ومسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ).[1]

منع كنز المال:

وعلى صعيد المشكلات الاقتصادية؛ نجد أن الإسلام منع كنز المال؛ لأن المال ما وجد للكنز، وإنما وجد للتداول بما فيه خير، فقال تعالى: {... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}. (التوبة: 34)

ونبه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، أولياء اليتامى إلى أهمية استثمار أموالهم؛ حتى لا تأكلها الصدقة، فروي عنه أنه قال: (ابتغوا في أموال اليتامى لا تأكلها الصدقة).[2]

حرب على الربا ومشروعية البيع:

ومنع الإسلام الاعتماد على زيادة الثروة عن طريق الربا، فشن الله حرباً ضروساً على الربا والمتعاملين به، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ* يَمْحَقُ اللهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ

1. صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الجمعة في القرى والمدن.
2. سنن البيهقي الكبرى، 4 /107، (وفيه أن هذا إسناد صحيح، وله شواهد عن عمر، رضي الله عنه).

وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ* وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ}.

(البقرة: 275 – 280)

والمتابع للأزمات الاقتصادية العالمية يجد الربا من أظهر أسبابها، حيث إن كثيراً من المشكلات الاقتصادية تعود إلى عجز المقترضين عن الوفاء بتسديد قروضهم التي تعهدوا بسدادها للمقرضين مقابل زيادة في قيمة القروض، مما أدى في كثير من الأحيان إلى عجز عن السداد، فاسترجعت الجهات المقرضة المرهونات، ونتج عن ذلك تكدس في العقارات وغيرها، مقابل ضعف في طلب شرائها، فصارت مشكلة ما يسمى الرهن العقاري.

ولو أن الناس تعاونوا على الخير، فأعان قويهم ضعيفهم، وقلص أصحاب الأموال والمشاريع من طمعهم وجشعهم، لأمكن أن يربح صاحب المال الربح المعقول، وأن يطيق المعوز الشراء، ويقدم عليه، فلا يحدث الكساد، وبخاصة إذا ما حظي العامل بأجور مجزية، ولم ينحصر الهم بمضاعفة أموال الأثرياء، مقابل إعطاء الفقراء أبخس الأجور، وتكليفهم العمل بأقسى الشروط، وأصعب الظروف.

والإسلام حرم الاحتكار، لما ينتج عنه من اضطراب في ميزان العدالة الاقتصادية، فالمحتكر يبحث عن ثراء فاحش بأقصر الطرق بغض النظر عن معاناة الآخرين، وبقية الناس يخضعون مضطرين إلى أن يدفعوا أثماناً باهظة لسلع تشترى في الظروف العادية بأدنى من ذلك بكثير، غير أن حاجتهم إليها تدفعهم إلى أن يتخموا جيوب المحتكرين من التجار وأرصدتهم، مقابل التمكن من الحصول على سلع يصعب عليهم الاستغناء عن شرائها،

ولبشاعة الاحتكار بما يمثله من جشع لحاجات الناس واستغلال لها، فقد ألبس الرسول، صلى الله عليه وسلم، المحتكر ثوب الخطيئة والإثم، فقال: (لا يَحْتَكِرُ إلا خَاطِئٌ)[1].

ولتحقيق طموح المسلمين بالعيش في ظلال حياة يسودها التعاون على الخير، والنقاء من الاستغلال والجشع، وتوافر فرص العمل والاستثمار المشروع، لا بد من جهات رسمية تتبنى سياسة اقتصادية متوازنة، لا تنقطع صلتها عن المناهج العقائدية والتشريعية والسياسات الاجتماعية والتربوية والثقافية، وتتبناها وسائل الإعلام التي تروج للخير، وتزينه للناس على حقيقته، وتنفرهم من الشر، وتظهره لهم على بشاعته.

الانتحار وسيلة هربٍ مرفوضة:

يلجأ بعض أفراد الناس إلى الانتحار للتعبير عن استيائهم مما يعانون بسبب بؤس الحال، وقلة ذات اليد، وغير ذلك من المشكلات الاقتصادية وغيرها، سواء عن طريق إشعال النار بالبدن، أم عن طريق القفز من أماكن شاهقة، أو غير ذلك من الأساليب والوسائل، وبعضهم يقتل بعض أفراد أسرته قبل أن يقدم على قتل نفسه، والانتحار -بغض النظر عن شكله ووسائله وأسبابه- مرفوض دينياً رفضاً قاطعاً لا لبس فيه، فهو جريمة نكراء يقوم بها المنتحر بالاعتداء على حق الله تعالى في وهب الحياة، وتقرير ساعة الموت، وقد بين الرسول، صلى الله عليه وسلم، بشاعة المآل الذي ينتهي إليه المنتحر في الآخرة، فهو باختصار يخلد في جهنم على الصورة التي مات عليها في الدنيا، فعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (من تَرَدَّى من جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ في نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فيه خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَجَأُ بها في بَطْنِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فيها أَبَدًا)[2].

1. صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار في الأقوات.
2. صحيح البخاري، كتاب الطب، باب شرب السم والدواء به وبما يخاف منه والخبيث.

وفي هذا الزمان قد تروق لأناس الإشادة بالانتحار، واعتبار المنتحر بطلاً وتحررياً، وذلك حين يكون تقويم عمل المنتحر وفق معايير عاطفية غير منضبطة بحكم الله وهديه، بل إن بعض الناس قد يتجرأ على الله –والعياذ بالله– فيصف المنتحر بالشهيد، حاشا لله، فالشهيد لا يهرب إلى الموت من الدنيا، وإنما يعيش حياته عزيزاً كريماً، فإذا ما لقيه الموت من عدو كان أبياً، لا يهاب المنون، لكنه يعرف حدوده مع ربه، فلا ينازع الله حقه في تقرير الحياة والموت، ومن الحوادث التي يحسن الاستشهاد بها في مقام التنفير من اللجوء إلى الانتحار مهما بلغت الصعاب والشدائد، ما روي عن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ، رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، الْتَقَى هو وَالْمُشْرِكُونَ فَاقْتَتَلُوا، فلما مَالَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى عَسْكَرِهِ، وَمَالَ الآخَرُونَ إلى عَسْكَرِهِمْ، وفي أَصْحَابِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، رَجُلٌ لا يَدَعُ لهم شَاذَّةً ولا فَاذَّةً إلا اتَّبَعَهَا يَضْرِبُهَا بِسَيْفِهِ، فقال: ما أَجْزَأَ مِنَّا الْيَوْمَ أَحَدٌ كما أَجْزَأَ فُلانٌ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أَمَا إنه من أَهْلِ النَّارِ، فقال رَجُلٌ من الْقَوْمِ: أنا صَاحِبُهُ، قال: فَخَرَجَ معه كُلَّمَا وَقَفَ وَقَفَ معه، وإذا أَسْرَعَ أَسْرَعَ معه، قال: فَجُرِحَ الرَّجُلُ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ بِالْأَرْضِ، وَذُبَابَهُ بين ثَدْيَيْهِ، ثُمَّ تَحَامَلَ على سَيْفِهِ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، فقال: أَشْهَدُ أَنَّكَ رسول اللهِ، قال: وما ذَاكَ؟ قال: الرَّجُلُ الذي ذَكَرْتَ آنِفًا أَنَّهُ من أَهْلِ النَّارِ، فَأَعْظَمَ الناس ذلك، فقلت: أنا لَكُمْ بِهِ، فَخَرَجْتُ في طَلَبِهِ، ثُمَّ جُرِحَ جُرْحًا شَدِيدًا، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَوَضَعَ نَصْلَ سَيْفِهِ في الأرض، وَذُبَابَهُ بين ثَدْيَيْهِ ثُمَّ تَحَامَلَ عليه، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، عِنْدَ ذلك: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وهو من أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وهو من أَهْلِ الْجَنَّةِ).(*)

* صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يقول فلان شهيد.

فالرجل المذكور في الحديث، رغم استبساله في قتال أعداء المسلمين، إلا أنه لما استعجل الموت بعد أن جرح في المعركة، فطعن نفسه ليخلص من ألم الجرح، مات على غير ملة الإسلام، فلا مجال أمام المسلم أن يختار الهروب بالانتحار على مواجهة صعاب الحياة ومشكلاتها.

الابتلاء بالفقر والفاقة:

لا يغيب عن خلد المسلم واعتقاده أنه قد يتعرض لابتلاء الفاقة والجوع، غير أنه يواجه ذلك بالجلد والصبر والسعي الدؤوب للتغيير نحو الأفضل دون أن يجزع، والله تعالى يقول: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ}.(البقرة: 155)

وعاش الرسول، صلى الله عليه وسلم، قسوة الجوع والفقر، وواجه ذلك بالصبر والسعي، فعن عروة أن خالته عَائِشَةَ: (قالت له: ابن أُخْتِي، إن كنا لَنَنْظُرُ إلى الْهِلالِ ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَيْنِ، وما أُوقِدَتْ في أَبْيَاتِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، نَارٌ، فقلت: ما كان يُعِيشُكُمْ؟ قالت: الأَسْوَدَانِ؛ التَّمْرُ، وَالْمَاءُ، إلا أَنَّهُ قد كان لِرَسُولِ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، جِيرَانٌ من الأَنْصَارِ كان لهم مَنَائِحُ[1]، وَكَانُوا يَمْنَحُونَ رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، من أَبْيَاتِهِمْ فَيَسْقِينَاهُ).[2]

ومن الشواهد على ما كان يعانيه الرسول، صلى الله عليه وسلم، وآله وأصحابه من مرارة الفقر، ما جاء في رواية عن أَنَس بن مَالِكٍ، رضي الله عنه، يقول: (قال أبو طَلْحَةَ لأُمِّ سُلَيْمٍ: لقد سمعت صَوْتَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، ضَعِيفًا أَعْرِفُ فيه الْجُوعَ، فَهَلْ عِنْدَكِ من شَيْءٍ؟)[3]

1. معنى المنائح من الإبل التي يبقى لبنها بعدما تذهب ألبان الإبل، وقد سمت مانحاً ومناحاً ومنيحاً، لسان العرب: 14/ 132.
2. صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي، صلى الله عليه وسلم، وأصحابه وتخليهم من الدنيا.
3. صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا حلف أن لا يأتدم فأكل تمراً بخبز وما يكون من الأدم.

وفي رواية أخرى عنه: (أَنَّ أَبَا طَلْحَةَ رَأَى رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، طَاوِيًا فَأَتَى أُمَّ سُلَيْمٍ، فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلا نَحْوُ مُدٍّ مِنْ دَقِيقِ شَعِيرٍ، قَالَ: فَاعْجِنِيهِ وَأَصْلِحِيهِ، عَسَى أَنْ نَدْعُوَ النَّبِيَّ، صلى الله عليه وسلم، فَيَأْكُلَ عِنْدَنَا، قَالَ: فَعَجَنَتْهُ وَخَبَزَتْهُ، فَجَاءَ قُرْصًا، فَقَالَ: ادْعُ لِيَ النَّبِيَّ، صلى الله عليه وسلم، قَالَ: فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ، صلى الله عليه وسلم، وَمَعَهُ نَاسٌ، قَالَ مُبَارَكُ بْنُ فَضَالَةَ: أَحْسِبُهُ بِضْعَةً وَثَمَانِينَ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَبُو طَلْحَةَ يَدْعُوكَ، فَقَالَ لأَصْحَابِهِ: أَجِيبُوا أَبَا طَلْحَةَ، فَجِئْتُ مُسْرِعًا حَتَّى أَخْبَرْتُهُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ وَأَصْحَابُهُ، قَالَ بَكْرٌ: فَقَفَدَنِي قَفْدًا، وَقَالَ ثَابِتٌ: قَالَ أَبُو طَلْحَةَ: رَسُولُ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، أَعْلَمُ بِمَا فِي بَيْتِي مِنِّي، وَقَالا جَمِيعًا عَنْ أَنَسٍ، فَاسْتَقْبَلَهُ أَبُو طَلْحَةَ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عِنْدَنَا شَيْءٌ إِلا قُرْصٌ رَأَيْتُكَ طَاوِيًا، فَأَمَرْتُ أُمَّ سُلَيْمٍ، فَجَعَلَتْ ذَلِكَ).(*)

والصبر المطلوب هنا لا يراد به الخنوع والاستسلام للعجز، وإنما صبر الذين يصبون إلى أن يوفقهم الله إلى نيل خيراته وأمنه، فالله بيده أمر الإطعام والجوع والأمن والخوف، وكل شيء، وفي سورة قريش يقول تعالى: {الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ}.(قريش: 4)

ومن المفيد التنبيه هنا إلى أن الابتلاء بالجوع يكون أحياناً شكلاً من أشكال العقاب، كما جاء في قصة القرية التي كفرت بأنعم الله بعد أن كانت تنعم بالخيرات، فقال الله تعالى فيها: {وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ}.(النحل: 112)

وبما أن الجوع يكون أحياناً عقاباً على الذنوب والانحراف، كما يكون الخلاص منه نعمة من الله وفضل، فينبغي أن يوضع في الاعتبار الصحيح، فيشكر الله على النجاة منه، وفحص الأسباب التي تفضي إليه، والعمل على تلافيه.

* صحيح ابن حبان، 12 /93، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

رفض أساليب تخريب الممتلكات العامة والخاصة:

يقر العقلاء بحق الناس في التعبير عن آرائهم وانتقاداتهم لما يعتقدون خطأه من المناهج التي يساسون بها، وبخاصة حين يعانون من مصاعب جراءها، وإذا كان من الغريب أن ينكر على الناس ممارسة هذا الحق المشروع، فإن من الأغرب أن يمارس هذا الحق بطرق غوغائية، أو بأساليب مدمرة؛ لأنه ليس من المعقول أو المنطق المطالبة بتصحيح الأخطاء من خلال ولوج معترك الخطايا، وبصراحة أكثر، فإن المطالبة بتصحيح سياسة اقتصادية ينبغي أن تتم بأساليب حضارية مؤثرة، بعيداً عن التخريب ودمار الممتلكات، فلا ضرر ولا ضرار، والمفسدون في الأرض يبغضهم الله، وهم الخاسرون، مصداقاً لقوله سبحانه: {الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}. (البقرة: 27)

والمفسدون في الأرض لهم اللعنة وسوء الدار، فيقول تعالى: {وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ}. (الرعد: 25)

والذين يعيثون في البلاد الفساد بحجة الإصلاح والاحتجاج، ينطبق عليهم قول الله تعالى: {الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ}. (الشعراء: 152)

وينهى الله بشكل قاطع عن الإفساد في الأرض، فيقول تعالى: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ}. (الأعراف: 56)

فليكن سعينا للإصلاح والخير بوسائل مشروعة وخيِّرة، إذ إن الإسلام لا يقر مبدأ الميكافيلية القاضي بأن الغاية تبرر الوسيلة، فالأهداف السامية ينبغي السعي لتحقيقها من خلال السلوك المشروع من الوسائل والأساليب، بعيداً عن صور الفساد والإفساد، حتى نكون مع المصلحين الذين لا يعيثون في الأرض الفساد.

الفقراء أكثر أهل الجنة:

وفي ختام هذه الوقفة عند بعض خيارات مواجهة الفقر المدقع والغلاء المسعور نود التأكيد في هذا السياق على أن الفقر ليس عيباً ولا عاراً، بل إن النبي، صلى الله عليه وسلم، يطمئن الفقراء إلى مقامهم عند الله، فهم أكثر أهل الجنة، كما جاء في الحديث الصحيح عن عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، قال: (اطَّلَعْتُ فِي الْجَنَّةِ، فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ ...).(*)

وينبغي التنبيه بهذا الصدد إلى أن ذكر مقام الفقراء هذا لا يعني بحال من الأحوال الدعوة إلى الاستكانة للفقر، والاستسلام للنوائب، والخضوع للحرمان، وإنما ينبغي الانتباه مع طلب السعي لقهر الفقر إلى ما يطمئن الفقراء إلى درجتهم عند الله، وإلى أن الإسلام يريد للفقراء أن يجاوزوا حال الفقر بكرامة، دون أن يخضعوا لمهانة أو احتقار، فيوجههم الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى سؤال حاجاتهم من الله مالك الملك، الرزاق، ذي القوة المتين، فعن أبي ذَرٍّ، رضي الله عنه، عن النبي، صلى الله عليه وسلم، فِيمَا رَوَى عن اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قال: (...يا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا من هَدَيْتُهُ، فاستهدوني أَهْدِكُمْ، يا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا من أَطْعَمْتُهُ، فاستطعموني أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ عَارٍ إلا من كَسَوْتُهُ، فاستكسوني أَكْسُكُمْ، يا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وأنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعاً، فاستغفروني أَغْفِرْ لَكُمْ، يا عِبَادِي؛ إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، ما زَادَ ذلك في مُلْكِي شيئاً، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا على أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ما نَقَصَ ذلك من مُلْكِي شيئاً، يا عِبَادِي؛ لو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ

* صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب فضل الفقر.

وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، ما نَقَصَ ذلك مِمَّا عِنْدِي إلا كما يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يا عِبَادِي؛ إنما هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غير ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ)، قال سَعِيدٌ: كان أبو إِدْرِيسَ الْخَوْلانِيُّ إذا حَدَّثَ بهذا الحديث جَثَا على رُكْبَتَيْهِ.(*)

فطوبى لكم معشر الفقراء، إذا هديتم إلى نور هذا الدين، واتبعتم الصراط المستقيم، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون، بإذن الله ورعايته وتوفيقه، وكان الله في عونكم وعون عيالكم، عسى أن يجد ليل فقركم صبحاً أبلجاً، تجدون معه سعة في عيش كريم، يسد حاجاتكم، ويستر أحوالكم، وما عند الله واسع ووفير، وإن غداً لناظره قريب، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

تجويع للتركيع .... وأنّى ذلك

الناس بطبيعتهم يحبون المال حباً جماً، وقد أشار الله تعالى إلى هذه الخصيصة بقوله جل شأنه: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً}(الفجر: 20)، والمال من أبرز مقاطع زينة الحياة الدنيا، مصداقاً لقوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ} (آل عمران: 14)، ولا يقتصر الأمر بالإنسان على مجرد الحب الشديد للمال، والتمتع به كجزء من زينة الحياة الدنيا، بل يتعداه إلى الحاجة الملحة إليه؛ لقضاء الحاجات، وتسيير شؤون الحياة الفردية والجماعية، فهو عصب مهم لها، ومن أجل نيله يبذل الناس الجهود المضنية، ويكدون ويتعبون، وأحياناً بسببه يقتل بعضهم بعضاً، وتدور معارك طاحنة، تذهب فيها المهج والأرواح جراء الصراع عليه، بغض النظر عن صورته وشكله ومقداره.

حق الإنسان في نيل المال:

تدل مبادئ الإسلام وأحكامه وقيمه على حق الإنسان في الحصول على المال الذي يسد من خلاله الرمق، ويحقق العيش الكريم، سواء تم الحصول عليه بالعمل والجد، وهو السبيل الأمثل، أم كان ذلك من خلال توفيره للمحتاج إليه من سبل شرعية أخرى في حال العجز عن تملكه ذاتياً، والإسلام حثَّ على العمل، وشجع على احتراف المهن المباحة التي ترفد أصحابها بالمال، وفرض زكاة معلومة للفقراء والمساكين، وحث على صدقات غير محددة، يتطوع فيها أهل المال على المحتاجين إليه، وما أكثر النصوص الشرعية من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تحث على الإنفاق بأنواعه المختلفة، وتبين فضله، وتشيد بمنازل أهله! فالله تعالى يقول: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ}(آل عمران: 92)، وعن أبي هُرَيْرَةَ، رضي الله عنه، أَنَّ النبي، صلى الله

عليه وسلم، قال: (ما من يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فيه إلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ، فيقول أَحَدُهُمَا: اللهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهم أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا).[1]

ويُمني الإسلام الناس أن يرنوا للوصول إلى حال الاستغناء عن الحاجة إلى أخذ الصدقات، فيقول رَسُول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: (تَصَدَّقُوا، فَيُوشِكُ الرَّجُلُ يَمْشِي بِصَدَقَتِهِ فيقول الذي أُعْطِيَهَا: لو جِئْتَنَا بها بِالأَمْسِ قَبِلْتُهَا، فَأَمَّا الآنَ فلا حَاجَةَ لي بها، فلا يَجِدُ من يَقْبَلُهَا)[2]، ولا يعقل تحقق هذه الغاية دون حصول الناس على حاجتهم من المال.

وتظهر عناية الإسلام واهتمامه في حصول المحتاجين على المال، أنه جعل الزكاة أحد أركانه الرئيسة، وبين الله تعالى أن الإنفاق على أصحاب الحاجة حق، وليس تفضلاً من المنفقين، فيقول تعالى: {وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}(الذاريات: 19)، وفي بيان أن الزكاة حق لمستحقيها من السائلين والمحرومين، يقول تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ* لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ}(المعارج: 24 - 25)، وفي فرض الحق من زكاة الزروع والثمار، يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}(الأنعام: 141)، وفي الحق بالوصية، يقول تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ}.(البقرة: 180)

والدولة في الإسلام تتكفل بتأمين حاجات رعاياها بغض النظر عن عقائدهم، وألوانهم وأنسابهم، فما داموا يعيشون في كنفها، فالواجب يقتضي أن يبعدوا عن شبح الفاقة، ومعاناة الفقر، والإسلام بمبادئه، وأحكامه، وقيمه، يخلق بين الناس شعوراً وقناعة بحق الإنسان في نيل المال الذي يحتاجه، ويحثهم على التعاون فيما بينهم، في سبيل حصول كل إنسان على هذا الحق اللازم للحياة وللوجود على هذه الدنيا.

---

1. صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: {فأما من أعطى واتقى* وصدق بالحسنى* فسنيسره لليسرى* وأما من بخل واستغنى* وكذب بالحسنى* فسنيسره للعسرى} (الليل: 5 - 10)،(اللهم أعط منفق مال خلفا)

2. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها.

تعمُّد حرمان الناس من المال:

في مقابل القيم النبيلة التي تراعي المحافظة على كرامة الإنسان، وتحقيق العيش الكريم له، فإن أصنافاً من الخلق تتفنن في البحث عن قنوات جلب المعاناة للناس، بغض النظر عن الأسباب والدواعي لذلك، فالحرمان الاقتصادي مورس قديماً ومازال يمارس بصور متعددة، وأحوال كثيرة، وهو يندرج في كثير من الأحيان تحت مفهوم الحرب الاقتصادية، التي تخاض لتحقيق غايات معينة، لمن يشنها على الواقعين تحت ضغطها وحرابها، وهذا الشكل من الحرمان العقابي مارسه عرب الجاهلية ضد الرسول، صلى الله عليه وسلم، وجماعة المسلمين في أوائل فترة الدعوة الإسلامية، فاتفقوا على بنود خاصة بالمقاطعة التي هدفت إلى تركيع المسلمين تحت ضغط الحرمان، والحاجة لمتطلبات العيش، وعلى صعيد آخر؛ تحدث القرآن الكريم عن خطة المنافقين لحرف المسلمين عن دينهم من خلال ممارسة الضغط الاقتصادي عليهم، فقال تعالى: {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ}.(المنافقون:7)

وعلى الدرب نفسه، ولغايات مشبوهة ومشابهة، يأتي الضغط الاقتصادي على شعبنا الفلسطيني، من خلال الحصار الاقتصادي، وممارسة مختلف ألوان القرصنة والسلب لحقوقه في الأموال، والأراضي، والبضائع، وعرقلة التبادل التجاري، وإهلاك الزرع، وقلع الشجر، والتحكم بالضرائب والجمارك، والاعتداء على الحق بحرية حركة المرور على المعابر، ومنع الاستيراد والتصدير إلا من خلال فوهة ضيقة، وخلق حالة من الاضطراب الدائم الذي يعرقل الشروع بالاستثمار من قبل أصحاب الأموال المحلية والوافدة، ولم تعد هذه الحرب بحاجة إلى اجتهاد في حقيقة وجودها، فأصحابها أعلنوا صراحة عنها، وعن أهدافها، التي تصب في خدمة حال التركيع الذي يريدونه لهذا الشعب الأبيّ.

نموت واقفين ولن نركع:

الشعب الفلسطيني الصابر المرابط، يعبر حاله ومقاله عن أنه لن يركع إلا لله الذي

خلقه، فهو الشعب الذي قدم قوافل الشهداء تتراً، ولم يركع، بل صبر وما زال يحتسب أجر المصاب الجلل، وهو على يقين أن النقص في الأنفس والأموال لن يقوده إلا إلى مزيد من التمسك بمبادئه وثوابته، مبتغياً من وراء ذلك أجر الله ومثوبته، مستهدياً بنور قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ* وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ* وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ* أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}.

(البقرة: 153 - 157)

وعن أُمِّ سَلَمَةَ أنها قالت: (سمعت رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم، يقول: ما من مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فيقول: ما أَمَرَهُ الله، إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إليه رَاجِعُونَ، اللهم أْجُرْنِي في مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لي خَيْرًا منها، إلا أَخْلَفَ الله له خَيْرًا منها).[1]

والسلف الصالح ابتلوا بالجوع وغيره من المصاعب والمشاق فصبروا، ووقف إيمانهم سداً منيعاً أمام أساليب التركيع، فعن أَنَس، رضي الله عنه، قال: (خَرَجَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، إلى الخَنْدَقِ، فإذا الْمُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ يَحْفِرُونَ في غَدَاةٍ بَارِدَةٍ، فلم يَكُنْ لهم عَبِيدٌ يَعْمَلُونَ ذلك لهم، فلمّا رَأَى ما بِهِمْ من النَّصَبِ وَالْجُوعِ، قال: اللهم إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخرة، فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ والمهاجرة، فَقَالُوا مُجِيبِينَ له: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا، على الجِهَادِ ما بَقِينَا أَبَدَا).[2]

فأحمق أو مجنون من يظن أن المؤمنين المرابطين على أرض فلسطين الطاهرة، سيركعون منهزمين أمام ضغوط تمارس من هذا الطرف أو ذاك، أو في هذا الظرف وغيره، وإنما سيكون

1. صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة.
2. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب.

عمادهم دائماً الصبر والمصابرة، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وهم على أمل كبير بالفرج القريب، متطلعين إلى وعد الله جل شأنه، وهو لا يخلف الميعاد، إذ يقول جل ذكره: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ}(البقرة: 214)، وقال جل شأنه: {وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ}.(الصف: 13)

وحث الله تعالى أولياءه المؤمنين على الانصياع لمبادئه وأحكامه، غير آبهين بحرمان اقتصادي، أو عقاب يأتي من هنا أو هناك، فالله هو الرزاق ذو القوة المتين، وهو سبحانه يتكفل برزقهم، وإغنائهم بسد حاجاتهم، وبهذا الصدد يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}.(التوبة: 28)

وفي الحديث القدسي الذي يرويه الرسول، صلى الله عليه وسلم، عن ربه سبحانه وتعالى، يقول: (يا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا من أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يا عِبَادِي؛ كُلُّكُمْ عَارٍ إلا من كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ ...)(*) وما دام المؤمن على يقين بأن الله هو الذي يطعم ويسقي، فلن يطلب طعامه ممن يبغي له الهوان، ويحاول استذلاله بممارسة ألوان المقاطعة، والحرمان القسري والقاسي من أبسط الحقوق، ومتطلبات الحياة.

ومن أقوال العرب وأمثالهم التي تعاضد رفض الركوع خنوعاً لحرب تدك بالسلاح القاتل، أو بغيره من وسائل الفتك، وأساليبه الأخرى، كممارسة الضغط الاقتصادي، وفرض الحرمان والجوع على الناس، أو بعضهم بهدف تركيعهم، يستذكر الشعب الفلسطيني المثل القائل: (تَمُوتُ الْحُرَّةُ جُوعًا، ولا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا). وبناء على سيرة هذا الشعب المغوار الصابر،

* صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

وما عهد عنه في الماضي والحاضر؛ فإن الأمل معقود على أن قناته لن تلين، وهامته لن تطأطيء، وعزيمته لن يقهرها تجويع من ظالم، ولا بطش جبار، ما دام مستعيناً بالواحد القهار، الذي وعد بكشف الغمة عن المبتلين في سبيله، ونصر المنافحين عن حرماته ومقدساته، طال الزمن بهم أم قصر، فهم على أمل بالنصر القريب، وإن رآه الظالمون بعيداً، فهو قريب قريب، رغم أنف الكارهين.

داعين الله تعالى أن يفرج الكرب عن شعبنا، وأن يقينا وإياه شر فتن الجوع والفقر والحرمان، وأن يُباعد بيننا وبين خطايانا، على غرار دعاء رسولنا الأكرم، صلى الله عليه وسلم، إذ كان يدعو فيقول: (اللهم إني أَعُوذُ بِكَ من الكَسَلِ، وَالهَرَمِ، وَالْمَأْثَمِ، وَالمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ، وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْغِنَى، وَأَعُوذُ بِك من فِتْنَةِ الْفَقْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ من فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، اللهم اغْسِلْ عَنِّي خَطَايَايَ بِمَاءِ الثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّ قَلْبِي من الْخَطَايَا كما نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ من الدَّنَسِ، وَبَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كما بَاعَدْتَ بين الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ).(*)

سائلين الله تعالى كذلك أن يرفع مقته وغضبه عنا، وأن يُعجل لنا ولدينا بفرج من عنده قريب، وأن يُثبّت قلوبنا على حبه، وأن يهدي أنفسنا إلى الانصياع لطاعته، والحرص على اتباع رسوله، صلى الله عليه وسلم، في المنشط والمكره، والعسر واليسر، آمين آمين يا رب العالمين.

* صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم.

المطلوب الأهم في مواجهة أزمة المال العالمية

يواجه العالمان الإسلامي والعربي، دولاً وشعوباً، مؤسسات وأفراداً، مصاعب مالية واجتماعية ناجمة عن آثار أزمة الاقتصاد العالمية، فقد هبطت أسعار نفطهم بنسبة تجاوزت 50 %، مما يعني تدنياً في مستوى إيراداتهم من عوائد النفط، وهو مصدر رئيس لثراء معظم دولهم الغنية، ويبدو أن المصاعب لن تقف عند أسعار النفط، بل تجاوز مداها جراء انهيار أسعار الأسهم في المصارف العالمية، التي أفلس بعضها، وانخفضت أسعار العملات الأجنبية المعتمدة لدينا، مما يؤثر سلباً على اقتصادنا المرتبط جذرياً بالاقتصاد الرأسمالي الغربي ومصارفه وأسواقه وعملاته.

وأمام هذه المواجهة يُطرح التساؤل عن الموقف الإسلامي والعربي حيالها، فهل يا ترى هُدينا لاستنباط الدروس والعبر، أو ما زلنا نتابع السير في النفق المظلم؟

لقد سبق للنظام الشيوعي أن انهار في عقر داره، وانتهت جولته بالضربة القاضية، فذهب إلى غير رجعة، وها هو النظام الرأسمالي الذي حاول الاستفراد بالساحة العالمية يتهاوى إثر نقيضه الاشتراكي، وسيبقى نظامنا الإسلامي بصفته الربانية الأبقى والأجدى بحل المشكلات، كيف لا؟! وهو مستقى من هدي رب العالمين، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهو سبحانه أعلم بحاله، مصداقاً لقوله جل شأنه: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}(الملك:14)، فشرع له ما يصلح شأنه كله، بما تضمنه قرآنه الكريم، قال تعالى: { إِنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ} (الإسراء:9)، وأمر الله باتباع أحكام القرآن وهديه، محذراً من الزيغ عنها لغيرها، فقال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (الجاثية:18)،

وقال سبحانه: {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ} (الأعراف:145)، فمن تركوا أحسن المواعظ والأنظمة والقيم، فقد تنكبوا الدرب، وساروا لديار الفاسقين بأرجلهم، التي حل بقديمها وحديثها ما يدعو للعظة والاعتبار، وصولاً للأخذ بصراط الله المستقيم دون سواه، عملاً بقوله تعالى: {وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (الأنعام:153).

والأنظمة الاشتراكية والرأسمالية وغيرها من الأنظمة الوضعية، هي من السبل التي فرقتنا حيناً من الزمن، عندما بهرنا بريق الدعاية الخادعة لها، فحاول بعضنا الاستعاضة بها عن صراط الله المستقيم، وكانت النتيجة الحتمية التي قصمت ظهور تلك الأنظمة، وكتب الله لنا أن نرى موت بعضها، ونعايش سكرات بعضها الآخر، فهذه روسيا موطن الاشتراكية، وحضنها الأصيل، تنفض اشتراكيتها عن كاهليها، بصورة انقلابية عجيبة، وها هي محاضن الرأسمالية تعاني برأسماليتها سكرات الموت، التي أصيبت بها في الأزمة المالية العاصفة، فبدت كزلزال مدمر، يهدد وجود الأنظمة والدول والشعوب. ومن أبرز مسببات هذه الأزمة أن النظام المالي الرأسمالي العالمي فتح الآفاق للكسب الذي يهدف إلى جمع المزيد دون ضوابط، وورط شرائح كثيرة من الناس في عمليات إنفاق واسعة، تجاوزت قدراتهم الواقعية، دون تقدير العواقب، وكان من نتائج هذين العاملين وقوع الكارثة المالية التي شرعت بأكل الأخضر واليابس، ويبدو أنها لن تبقي ولا تذر، وستطال الشرق والغرب، دولاً وشعوباً ومؤسسات وأفراداً.

وحتى يكون الكلام أكثر وضوحاً، لا بد من وضع النقاط على الحروف، فالنظام المالي العالمي يعتمد الربا الذي يسمى في اصطلاحاتهم بـ(الفائدة)، التي أصبحت تؤثر على أسعار الأسهم والعملات وانتعاش الاقتصاد أو ركوده، حتى إن حكومات بعض الدول تتدخل بين الحين والآخر في خفض سعر الربا (الفائدة)، أو رفعه لتوجيه حركة الاقتصاد نحو مستويات

معينة، أو حالات مستهدفة. وأصبح الربا يدخل في جل المعاملات المالية، بل إن بعض أصحاب الأموال اختاروا الركون إلى العوائد الربوية التي يكتسبونها، مقابل أموالهم المدخرة في المصارف والبنوك، مما أثر سلباً على الحياة الاقتصادية في كثير من الدول، فأصيبت بالركود، لتعطل الاستثمار في المشاريع الاقتصادية، وبخاصة عند التخوف من الخوض في التنمية خلال الأحوال المضطربة سياسياً واقتصادياً، فرأى هؤلاء أن الربا أضمن، فاختاروه سبيلاً للثراء، دون غيره من سبل الإنتاج.

وعلى أكتاف المدخرين تقوم أعمال البنوك والمصارف، فهي تعمل على تحصيل الربح الذي تدفع منه التزاماتها للمدخرين، ويقوم صلب عملها على إقراض المال المدخر لديها للمحتاجين إليه، مقابل عوائد ربوية تفوق ما تدفعه للمدخرين، وحاصل الفرق بين ما تقبضه وتدفعه يكون ربحها، الذي يتفاوت مستواه حسب شهرة البنك ونشاطه، وحجم أعماله ورأسماله. ويسلك البنك ما يتيسر له من الأساليب والوسائل، التي تشجع على التعامل معه، سواء بالادخار أم بالقروض.

وفي مقابل تعطل أموال المدخرين عن الاستثمار المباشر، فإن المقترضين الذين تغريهم دعاية البنوك، وشروط الدفع الميسر، يجدون أنفسهم في ورطات، لها أول وليس لها آخر، في كثير من الأحيان، فالبنوك تشجع الاستهانة بالاستدانة والاقتراض، ومن عبارات دعايتها: أفرش بيتك بكذا، تملك بيت العمر بأقساط شهرية تمتد لسنوات، احصل على سيارة العمر بدفعة أولى قيمتها كذا، والباقي موزعة على أربعة وعشرين شهراً أو أقل أو أكثر، احصل على بطاقة فيزا كارد واشتر ما شئت، دون أن تدفع أي نقود لصاحب المتجر، أو أخرج في رحلة ترفيهية أنت وأسرتك بكذا، وفي إطار كذا وكذا....

وما الذي حصل أو يمكن أن يحصل للأوضاع المالية والاقتصادية تبعاً لهذا التعامل؟

كان يمكن الاقتصار على تخيل ما سيحدث جراء هذا النهج الاقتصادي الربوي، لكن ما حدث

مؤخراً من انهيار مصارف كبيرة في عدد من أغنى دول العالم تعدى حالة التخيل، وأصبح بمثابة شاهد حيّ وملموس على الآثار السلبية للتعامل بالربا، فالمتورطون بالقروض والاستدانة واجهوا مصاعب حالت دون تمكنهم من الوفاء بالتزاماتهم المالية التي تعهدوا بها للبنوك المقرضة، فتنازلوا عن مشترياتهم من عقارات وسيارات وغيرها مما اقترضوا لأجله، وصارت تلك المشتريات مرهونة بشرط السداد، فلما أصابهم العجز سلموا الرهن للمرتهن، فأصبح لدى البنوك مقتنيات عقارية، وممتلكات معرضة للخسارة؛ لهبوط أسعارها في الجو السائد، الذي يحيط به الركود من كل جانب، وتتفاقم فيه مشكلة قلة السيولة المالية التي تصبو إليها البنوك والمصارف.

فالمقترضون التزموا بتعهدات مالية فاقت قدراتهم، ولما واجهوا ساعة الحقيقة، عجزوا عن الوفاء، فلم يسددوا الدفعات المستحقة عليهم، فوقع الاضطراب، ودبت الفوضى، واضطر المقترضون للتنازل عن موجوداتهم ومشترياتهم الثابتة والمتنقلة، وفي المقابل جرت الرياح بما لا تشتهي سفن المقرضين، فلم يتمكنوا من استرجاع رؤوس أموالهم وعوائدها الربوية، ودبت النار في هشيم الاقتصاد، فانهارت بعض البنوك الكبرى، ووصل الطوفان إلى مؤسسات الدول، وأضحى يهدد كيانها ووجودها، وأنظمتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

وبالعودة إلى الموقف الإسلامي من هذه المشكلة، نجد حرباً معلنة من رب العالمين ورسوله الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، على الربا والمتعاملين به، وهي حرب صريحة، جاءت بصورة قل نظيرها في القرآن الكريم، فوردت بكلام فصيح، وبلسان عربي مبين، لا يلزمه تفسير ولا تأويل، فبعد النهي القطعي والمباشر عن الربا، جاء الإعلان عن هذه الحرب، فقال تعالى في محكم التنزيل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ} (البقرة: 278 - 279).

وقد جاءت معظم الآيات التي تحدثت عن الربا متوالية في سورة البقرة، فنفى الله شبه الربا بالبيع، وبين سبحانه صورة مزرية لآكل الربا، فهو لا يقوم إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، فقال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (البقرة:275)

فالله سبحانه يصور حال المتعاملين بالربا، وهم يتخبطون في أزمتهم، وقلقهم واضطراب أوضاعهم، ويشبههم بالمتخبطين الذين أصابهم مس من الشيطان، ومن خلال الصور التي تنقلها وسائل الإعلام لسلوك المتعاملين في أسواق المال والبورصات العالمية، وبخاصة عند اضطراب وتيرة الأسعار، يمكن لأي متابع أن يشاهد صوراً جلية لحالات التخبط التي تنتاب هؤلاء المتعاملين، وهم يتابعون شاشات عرض الأسعار، فلا يدرون هل يبيعون الأسهم أم يدخرونها؟ وهل يبيعون الدولار أم يشترونه؟ هل يبيعون العقارات أم يبقونها؟ وهل يسحبون الودائع أم ينقلونها لمصارف أخرى؟ وإلى أي مصارف؟ تخبط واسع النطاق، تصوره الآية الكريمة التي شبهته بالمتخبط من مسّ الشيطان.

وتوعد سبحانه الربا بالمحق والإهلاك، فقال تعالى: { يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ} (البقرة:276)، فالأرقام المرتفعة لرؤوس الأموال، والأرصدة المتخمة، والتضخم الفائق، يصبح بين عشية وضحاها كأن لم يكن، أثراً بعد عين، وتصبح أرقامه الضخمة هزيلة لا تستجلب عين طامع.

فالاقتصاد العالمي يواجه أزمة خانقة وعامة، سببها الرئيس خلل في ضوابط القيم والكسب والإنفاق، فالقيم التي سماتها الأنانية والجشع والتطلع للدنيا دون الآخرة، هي قيم منحرفة عن الصراط السوي، والكسب الذي يكون عماده الربا، وتبييض الأموال المسلوبة، يكون مدمراً،

والإنفاق غير المنضبط بمعايير وسع المنفق وقدرته، والحلال والحرام، يكون مهلكاً، ووبالُ هذا كله وصل إلى عالمنا العربي والإسلامي، فاكتوى بناره، لارتكازه على الربا في الادخار والبيع والشراء والإقراض، وما إلى ذلك من التعاملات الاقتصادية، فلا يكاد ينجو أحد من أخذ حظه من الربا، سواء سعى لذلك برغبته، أم طاله نصيبه من ذلك مجبراً، تحت مسميات منمقة، في ظلال أساليب دعائية مغرية ومغوية، فأصبح من لديه مال يسعى لجمع المزيد، بأبسط السبل وأسرعها، وبأقل الجهود، وأضمن النتائج، أما الفقير فوجد في الربا سبيلاً يبدو محسناً للمعيشة، ومسهلاً للحصول على تلبية الاحتياجات وتوفير الكماليات، وهو سبيل قد يخدع بعضهم بظاهره الذي يبدو مسهلاً وميسراً، لكن باطنه فيه العذاب والمحق ونهايته الهلاك والدمار، فالذين زين لهم اقتراض أموال تغطي حاجاتهم وكمالياتهم، تعاملوا بالربا في معاملاتهم الاقتصادية، وغاب عن بال الفقير والغني المستزيد أن الربا ظاهره رحمة وسعة، وأوسطه عذاب واضطراب، وعاقبته هلاك ودمار في الدارين، وكان يمكن للدول والمؤسسات العربية والإسلامية التعلق بحبل النجاة الذي يتدلى لها من فيض الشرع الحنيف، الذي منع الربا، وحرم الاقتراض إلا بعزم السداد، وغرس في أفرادها قيم القناعة والتعاون، وحذرهم من الجشع والشح، كما حذر من أن يمد الفرد رجليه إلا على قدر فراشه، بخلاف منهج النظام الربوي الذي يشجع التوسع في الاستدانة، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ، فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا، فَقَالَ: هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، فَصَلَّى عَلَيْهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ صَلِّ عَلَيْهَا، قَالَ: هَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قِيلَ: نَعَمْ، قَالَ: فَهَلْ تَرَكَ شَيْئًا، قَالُوا: ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ أُتِيَ بِالثَّالِثَةِ، فَقَالُوا: صَلِّ عَلَيْهَا، قَالَ: هَلْ تَرَكَ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَهَلْ عَلَيْهِ دَيْنٌ؟ قَالُوا: ثَلَاثَةُ دَنَانِيرَ، قَالَ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: صَلِّ عَلَيْهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَعَلَيَّ دَيْنُهُ، فَصَلَّى عَلَيْهِ).(*)

* صحيح البخاري، كتاب الحوالات، باب إن أحال دين الميت على رجل جاز.

فأمر الدَّين عظيم، والوفاء بسداده واجب، والمقترض الذي يعزم السداد، يجد من الله عوناً، قال، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَخذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ).(*)

وعلى الرغم من أن الأزمة المالية العالمية لا يقتصر مداها على الأبعاد التي تطرقنا إليها آنفاً، والتي تتلخص بقضية الربا، والتوسع في الاقتراض الربوي، فإن هذين البعدين يؤثران لا محالة في هذه الأزمة، وجوداً وحجماً وانتشاراً، فهل من معتبر؟ هل من ناظر فيما آل إليه الربا من كوارث؟! هل من معتبر فيما حصل لدول الأرض شرقها وغربها؟ والأقوام الذين خلوا وإخوانهم المعاصرين، الذين واجهوا ساعة الحقيقة، حين شن الله عليهم طرفاً من حربه التي **أعلنها** على المرابين، والتي أشار الله تعالى إلى بعضها بقوله جل شأنه: {قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ* هَـذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ} (آل عمران: 137 - 138)

والشاعر يعظ قائلاً :

تَرُوْمُ الخُلْدَ في دارِ المَنايا فَكَمْ قَدْ رَامَ مِثْلُكَ ما تَرُومُ
تَنامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنْكَ المَنايا تنبّـــه للمنيـــــة يا نؤوم

فهل آن الأوان للعرب والمسلمين الذين خدعتهم حضارة الشرق والغرب، فأخذوا بأنظمتها وأفكارها وقيمها من دون شرع الله ودينه القويم؟! هل آن لهم أن يفيقوا من غفلتهم؟! فينفضوا عن أنفسهم الغبار المهلك، ويعودوا لدينهم، عقيدة وشريعة وقيماً وفكراً، فدينهم يهدي للتي هي أقوم، وفيه تبيان لكل شيء، وفيه صلاحهم وخيرهم في دنياهم وآخرتهم، كما يعتقد المتقون منهم، مصداقاً لقوله تعالى: {وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ} (النحل:30).

* صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب من أخذ أموال الناس يريد أداءها أو إتلافها.

كيف لا يكون ديننا كذلك؟! وهو صبغة الله التي قال فيها من أدرك حقيقتها: {صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدونَ} (البقرة:138).

وبعد الذي أصابنا من المهلكات، هل يا ترى نفكر جدياً بأن نكون ممن استجابوا لله والرسول بعد أن أصابتهم الجراح؟ وأثنى الله عليهم بقوله سبحانه: {الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ} (آل عمران:172).

فنسأله أن يوفقنا لنكون منهم، وممن استجابوا للمسارعة للمغفرة والجنة، تلبية **لنداء** الله سبحانه: {وَسَارِعُواْ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}(البقرة: 133).

مَنْ يتق الله يُحمد في عواقبه *** ويكفه شرَّ مَنْ عزوا ومَنْ هـــابوا

مَنْ استجار بغير الله في فزع *** فإن ناصره عجـــــــز وخـــذلانُ

فالزم يديك بحبل الله معتصما *** فإنه الركنُ إن خانتك أركـــــــانُ

ومن متطلبات المغفرة والجنة الإقلاع عن الربا وغيره من المعاصي، فالله تعالى يقول:

{وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} (آل عمران: 135 - 136).

فالمطلوب في مواجهة الأزمة المالية العالمية العاصفة المسارعة في الإقلاع الفوري عن الربا أخذاً وإعطاء، استجابة لأمر الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}(البقرة:278).

وندعو أهلنا ممن يصرون على تنكب الدرب في شتى بقاع الأرض، بمثل ما دعا خيار الناس أهليهم، فقال الواحد منهم: {وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ} (غافر:41)

غير أن بعض الذين ما زالوا في التيه والغي، يأملون بأن تنفرج الأزمة الخانقة، ويعودوا

للأخذ بالأنظمة السياسية والفكرية والاقتصادية التي جاءت بالأزمة، والله ينكر على من يختار هذا المنحى، فيقول سبحانه: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (المائدة:50) ويقول سبحانه: {أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}(الصافات:125)

فالمطلوب الأهم عربياً وإسلامياً في مواجهة هذه الأزمة المالية العالمية الخانقة البحث عن طوق النجاة، قبل البحث عن أدوات الخروج الترقيعي من هذه الأزمة الكارثية، فقبل البحث عن وسائل العلاج التصبيري ومشاريعه واستراتيجياته، علينا أن نعيد النظر في حساباتنا الفكرية والعقائدية والتشريعية، لنميز الغث من السمين، **ونختار النافع** منها، عوضاً عن الزبد، ليتحقق لنا وعد الله، الذي ذكره في قوله سبحانه: { ... كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ} (الرعد:17).

فما ينفع الناس هو ما اختاره الله لهم منهجاً وتشريعاً، والزبد هو ما خدعهم بريقه من المناهج الأرضية، التي أحلت لهم ما حرم الله، وقد أنكر الله استبدال زبد الكفر بشرع **الله** ودينه، فقال سبحانه: { أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ}(المائدة: 50).

ونحن على يقين أن الله خلقنا، ولم يتركنا سدى، فنسأله سبحانه أن يهدينا صراطه المستقيم، لنكون ممن قال فيهم: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ}(الزمر:18)

شفافية مكافحة الفساد الإداري والمالي

مكافحة الفساد الإداري والمالي عملية متشعبة الأبعاد، تجري باتجاه تعزيز القيم الجميلة، وترسيخ الأخلاق النبيلة، التي يصبو إليها أصحاب الألباب، على اختلاف عصورهم ولغاتهم وأماكن تواجدهم، فالفساد عث ينخر قلب المجتمعات المصابة به، ويوهن قوة أفرادها، ويولد الأحقاد بينهم، ويساهم إلى حد كبير في نشر الظلم، واستفحال بشاعته في أوساطهم، لذلك كانت مكافحته مطلباً يتغنى به طالبو الشعبية، الطامحون إلى نيل رضا الناس وثقتهم، إلى جانب من يبتغون رضوان الله من المؤمنين برقابة الله الدائمة على أعمالهم وأقوالهم، انطلاقاً من عقيدتهم بأنهم ما يلفظون من قول إلا لديهم رقيب عتيد، وأنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

وحيث إن رافعي شعار مكافحة الفساد متنوعون على هذا النحو، وأوسع منه، فكان لا بد من مساندة هذا الشعار الفذ بضوابط تسير به في اتجاه الفعل الإيجابي، عوضاً عن حصره في خانات التغني الأجوف، والزيف الأخرق، ومن تلك الضوابط أن تؤدى عملية المكافحة هذه بشفافية؛ أي على وجه تتحقق فيه النزاهة والعدل والإنصاف، دون محاباة لطويل، ولا إجحاف بقصير. فالمطلوب إذن ليس مكافحة الفساد فحسب، بل أداء هذا الدور المهم والحيوي بشفافية، انطلاقاً من هدي خاتم النبيين، محمد بن عبد الله، عليه من الله أفضل الصلاة وأتم التسليم، الذي أرسى مبدأ الشفافية المطلقة في مكافحة الفساد، ومناهضة وجوده، ومن ذلك الهدي؛ ما جاء في سياق رده صلى الله عليه وسلم الحاسم على قُرَيْش، حين أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ التي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: (وَمَنْ يُكَلِّمُ فيها رَسُولَ اللهِ، صلى الله عليه وسلم؟ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عليه إلا أُسَامَةُ بن زَيْدٍ، حِبُّ رسول اللهِ، صلى الله

عليه وسلم، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: أَتَشْفَعُ في حَدٍّ من حُدُودِ اللهِ؟! ثُمَّ قام فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قال: إنما أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وإذا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عليه الْحَدَّ، وأيم اللهِ لو أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا).(*)

فالعدالة في اجتثاث الفساد، والمحاسبة عليه ينبغي أن لا تُخرم بوساطة الأشراف، ولا بشفاعة أصحاب النفوذ، لأن هذا الخرم -إن وقع- فهو الهلاك بعينه، فَرَبُّ الشريف والضعيف واحد، وجميعهم من آدم، وآدم من تراب، وهو وإياهم عائدون إلى التراب، طالت بهم الأعمار أم قصرت.

والرسول، صلى الله عليه وسلم، لم يقبل من الولاة والأمراء؛ أي من كبار الموظفين والمسؤولين، أن يستأثروا بالعطايا والهبات، التي تأتيهم جراء استثمار مناصبهم العليا، وصرامته مع أحد عماله كانت شاهداً على اهتمامه بمراعاة الشفافية في مساءلة أصحاب النفوذ ومحاسبتهم، من خلال تشكيكه في شرعية تضخم الكم المالي لديهم، خلال قيامهم بما أنيط بهم من واجبات وظيفية، فعن أبي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، قال: (اسْتَعْمَلَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، رَجُلاً من الأَزْدِ على صَدَقَاتِ بَنِي سُلَيْمٍ؛ يُدْعَى بن الأُتْبِيَّةِ، فلما جاء حَاسَبَهُ، قال: هذا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: فَهَلَّا جَلَسْتَ في بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حتى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إن كُنْتَ صَادِقًا، ثُمَّ خَطَبَنَا، فَحَمِدَ اللهَ، وَأَثْنَى عليه، ثُمَّ قال: أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ على الْعَمَلِ مِمَّا وَلَّانِي اللهُ، فَيَأْتِي فيقول: هذا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لي، أَفَلا جَلَسَ في بَيْتِ أبيه وَأُمِّهِ حتى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إن كان صَادِقًا، والله لا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ منها شيئاً بِغَيْرِ حَقِّهِ إلا لَقِيَ اللهَ تَعَالَى يَحْمِلُهُ يوم الْقِيَامَةِ، فَلأَعْرِفَنَّ أَحَدًا

* صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب منه..

مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُ بَعِيرًا له رُغَاءٌ[1]، أو بَقَرَةً لها خُوَارٌ[2]، أو شَاةً تَيْعَرُ[3]، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حتى رؤي بَيَاضُ إِبْطَيْهِ، ثُمَّ قال: اللهم هل بَلَّغْتُ بَصُرَ عَيْنِي، وَسَمِعَ أُذُنِي)[4]

مرتكزات مبدأ شفافية مكافحة الفساد:

يرتكز مبدأ شفافية مكافحة الفساد في الإسلام إلى رصيد هائل من النصوص الشرعية، من الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة القولية والعملية، إضافة إلى تراث يعبق بمواقف الصالحين من سلف هذه الأمة وأقوالهم، قادة وعلماء ودعاة، ممن أُشرِبت قلوبهم حب دينهم، ووعته عقولهم، فعملوا في مختلف مواقعهم على اتباع هدي ربهم، واقتفاء سنة نبيهم، صلى الله عليه وسلم، فحاربوا الفساد أنى وجد، وكافحوه بالوقاية قبل وقوعه، وإن وقع كانوا له خير مجتث، فالله تعالى يشن حرباً ضروساً على الفساد، وينبه سبحانه إلى المتمسحين بمظاهر اللياقة الزائفة في القول، والمنطق، والشكل، ليمرروا على الناس أحابيل الفساد، فيقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ* وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}. (البقرة: 204 - 206)

ويعلن رب العالمين عن موقفه من حب المفسدين، في معرض نهيه عن الفساد في الأرض، فيقول تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}. (القصص:77)

والرسول، صلى الله عليه وسلم، يحذر من تسول له نفسه السرقة من المال العام، وخيانة

1. رُغَاءٌ: صوت الإبل.
2. خُوَارٌ: صوت البقرة.
3. تَيْعَرُ: تصيح وتصوت صوتاً شديداً.
4. صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب تحريم هدايا العمال.

الأمانة، فعن عبد اللهِ بن عَمْرٍو، قال: (كان على ثَقَلِ النبي[1]، صلى الله عليه وسلم، رَجُلٌ يُقَالُ له كِرْكِرَةُ فَمَاتَ، فقال رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم: هو في النَّارِ، فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إليه، فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قد غَلَّهَا).[2]

وعن خَوْلَةَ الأَنْصَارِيَّةِ، رضي الله عنها، قالت: (سمعت النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: إِنَّ رِجَالاً يَتَخَوَّضُونَ[3] في مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ، فَلَهُمْ النَّارُ يوم الْقِيَامَةِ).[4]

منهج الخلفاء الراشدين في اجتثاث الفساد:

إن الصحابة -وبخاصة الخلفاء الراشدين منهم- سلكوا درب الشفافية في اقتلاع جذور الفساد، فضربوا أمثالاً سطرها التاريخ على صفحات من نور، حين حملوا معاول هدم الفساد، أمام الأمراء وذراريهم، بالتوازي التام مع حملها أمام عامة الناس، فهذا خليفة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، يقف في المسلمين خطيباً، ملقياً على مسامعهم خطاب تولي إمارته عليهم، فحدد معالم سياسته، ونهجه القويم في مكافحة الفساد واجتثاثه من جذوره، فقال:(أَيُّهَا النَّاسُ؛ فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي؛ وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي؛ الصَّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ، إنْ شَاءَ اللهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي، حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ، إنْ شَاءَ اللهُ، لا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ إلا ضَرَبَهُمْ اللهُ بِالذُّلِّ، وَلا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إلا عَمَّهُمْ اللهُ بِالْبَلاءِ؛ أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ).[5]

1. ثقل النبي: أي على رحله، ومتاعه المحمول على الدابة، فكان ذلك الرجل يحمل أمتعة رسول الله، وينقلها من منزل إلى منزل.(مرقاة المفاتيح، 7/ 518).
2. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب القليل من الغلول.
3. يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللهِ بِغَيْرِ حَقٍّ: أي يتصرفون في مال المسلمين بالباطل، وهو أعم من أن يكون بالقسمة وبغيرها، ويمكن أن تؤخذ من قوله يتخوضون في مال الله بغير حق أي بغير قسمة حق (فتح الباري، 6/ 219).
4. صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول الله تعالى {فأن لله خمسه وللرسول}.
5. السيرة النبوية، ابن هشام، 6/ 82.

وهذا عمر الفاروق، رضي الله عنه وأرضاه، صاحب مقولة: (متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)، التي جاءت في سياق أثر، ورد في بعض كتب التاريخ والسير، يوطِّد جذور مكافحة الفساد بين رعيته، وفي أقطار سيادته، (فقد جاء رجل من مصر إلى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين؛ هذا مكان العائذ بك، فقال: لقد عذت عياذاً، فما شأنك؟ قال: سابقت ولد عمرو بن العاص، فسبقته، فجعل يقنعني بسوطه، ويقول: أنا ابن الأكرمين، وبلغ عمراً، فحبسني خشية أن آتيك، فانفلت، فكتب عمر إلى عمرو: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم وابنك، وقال للمصري: أقل حتى يقدم عمرو ويشهد الحج، فلما كان رمى إليه بالدرة، فضرب ولد عمرو، وعمر يقول: اضرب ولد الأكرمين، حتى قال: يا أمير المؤمنين قد استغنيت، قال: ضعها على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين: ضربت الذي ضربني، قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد، حتى تكون أنت الذي ينزع، ثم قال: يا عمرو؛ متى تعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟!!).[1]

ومن مواقف عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، في ترسيخ مبدأ مكافحة الفساد، والتشجيع على ممارسة تداعياته، ما روي عن اعتراض أحد المسلمين عليه، حين خطب في المسلمين طالباً حقه عليهم بالسمع والطاعة، فعن العتبي، قال: (بُعِثَ إلى عمر بحلل، فقسمها، فأصاب كل رجل ثوب، فصعد المنبر وعليه حلة؛ والحلة ثوبان، فقال: أيها الناس؛ ألا تسمعون؟ فقال سلمان: لا نسمع، قال: وَلِمَ يا أبا عبد الله؟ قال: لأنك قسمت علينا ثوباً ثوباً وعليك حلة، قال: لا تعجل يا أبا عبد الله، ثم نادى: يا عبد الله؛ فلم يجبه أحد، فقال: يا عبد الله بن عمر، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: نشدتك بالله، الثوب الذي اتزرت به هو ثوبك؟ قال: اللهم نعم، فقال سلمان، رضي الله عنه: أما الآن، فقل نسمع)[2]

ويذكر ابن الجوزي: (عن الحسن، رحمه الله، قال: كان بين عمر بن الخطاب، رضوان الله

1. أوردها الزمخشري في ربيع الأبرار، 1 /289، والأبشيهي في المستطرف في كل فن مستظرف، ص: 239.
2. أوردها ابن قتيبة في عيون الأخبار، ص: 23، وابن دريد في الأمالي، ص: 22.

عليه، وبين رجل كلام في شيء، فقال له الرجل: اتق الله يا أمير المؤمنين، فقال له رجل من القوم: أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟! فقال له عمر، رضوان الله عليه: دعه فليقلها لي، نِعْمَ ما قال. ثم قال عمر: لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم).(*)

وما أروع شفافية عمر بن الخطاب في مكافحة الفساد، حين قرر مبدأ مساءلة المسؤولين، بمبدئه المتضمن في خطابه المشهور للمفوضين من قبله بتولي الولاية على أمور المسلمين، حيث كان يسألهم عما جمعوا من مدخرات وثروات، قائلاً: أنى لك هذا؟! وهو المبدأ الذي يحاول متتبعو قضايا الفساد والعاملون على مكافحته أن يترسموا خطواته، ويسيروا على هديه، لذلك تجدهم يلزمون متولي الوظائف العمومية بتقديم إقرارات خطية بذممهم المالية، حتى يكون نماء ثرواتهم، وتضخم أرصدتهم، واتساع نطاق ممتلكاتهم تحت المراقبة الحثيثة، ومجاهر الرصد والمحاسبة، إذا ما حامت حولهم شبهات، أو اتهموا بالاختلاس، أو تلقي الرشاوى، وما إلى ذلك من أشكال الفساد الإداري والمالي وصورهما.

ومبدأ المساءلة بعبارة: (أنى لك هذا؟) ذكره القرآن الكريم، على لسان زكريا، عليه السلام، حين تفاجأ بوجود رزق مجهول المصدر بالنسبة إليه عند مريم، عليها السلام، فقال تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}. (آل عمران: 37)

فرحم الله خلفاءنا الأبرار الذي فقهوا إسلامهم، وطبقوه في واقعهم، فكانوا خير ممثلين له، وأوضح مترجمين لمبادئه وقيمه، فاستحقوا أن يوصفوا بالهداة المهديين، بعد رسولهم الكريم، صلى الله عليه وسلم.

تمييز المفسد من المصلح:

يجدر التنبيه في سياق الحديث عن مكافحة الفساد على أنه ليس كل مسؤول محط تهمة

* ابن الجوزي، مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ص: 155.

بالفساد، فالأصل براءة الذمم، إلا إذا ثبت ما يخرمها ويطعن بسلامتها، والناس مطالبون بالتفريق بين المصلح من المفسد، حتى لا يقعوا في أحابيل اتباع الظن، الذي لا يغني من الحق شيئاً، والاتهام الظني يوقع بالإثم حين لا يلاقي محله، ومن المفترض في المؤمنين أن يظنوا بأنفسهم خيراً؛ انصياعاً لهدي الله سبحانه، إذ وجههم لذلك، فقال تعالى:{لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ}(النور: 12)

ووجه الله إلى التفريق بين المصلحين والمفسدين من الناس، فقال تعالى: {أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} (ص: 28)

ومكافحة الفساد لا تعني التمترس وراءها لإطلاق قذائف الاتهامات على المذنب والبريء، ولا حتى على من فسد في شأن، وتاب منه وأناب، ففي قصة الْمَرْأَة التي سَرَقَتْ في عَهْدِ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، وأَمَرَ رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم، بقطع يَدِهَا، فقد حَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذلك، وَتَزَوَّجَتْ، قالت عَائِشَةُ: (فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذلك فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إلى رسول اللهِ، صلى الله عليه وسلم)(*)، فتهمة الفساد ينبغي أن لا تلاصق من لحقت به إلى نهاية التاريخ، فالتوبة تجُبُّ ما قبلها، وحري بالناس أن يعينوا من قصد الصلاح على تحقيق مراده، تماشياً مع التوجيه الرباني المتضمن في قوله تعالى: {...وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (المائدة: 2)

بعض ثمار الشفافية في مكافحة الفساد:

لو أن العمل بمبدأ الشفافية في مكافحة الفساد وجد طريقه للتطبيق الحقيقي، والجدية العملية الصادقة، لتغير حال الناس إلى أحسن بكثير مما هم عليه، حال غيابه عنهم حقيقة، أو مغيب عنهم حكماً، حين تطرحه الحناجر أجوفَ من غير أن تطبقه الأيدي الفاعلة والمؤثرة، فإن مما يتنافى مع شفافية مكافحة الفساد والصدق فيها، أن يطرح شعارها نظرياً دون تطبيق حقيقي، فكثيراً ما تطلق شعارات الشفافية للمزايدات الفارغة، والتدليس الخادع، وينطبق على هذا الانحراف الإنكار الإلهي المذكور في القرآن الكريم، حيث يقول

* صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب من شهد الفتح.

تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ* كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ}(الصف: 2 – 3)

ولا يؤدي المسؤول عمله على الوجه المطلوب، إذا لم ينأَ بنفسه عن غش رعيته، ولم يدفع عنهم الفساد، ويجتثه من بينهم، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ومن ثمار تطبيق هذا المبدأ أنه يساهم في تنشيط اليقظة لدى عامة الناس، ويبث الوعي بمعرفة الحقوق والواجبات، ويساهم في وجود العدل والحلم والحكمة لدى الأمراء والمسؤولين عن تطبيق هذا المبدأ، وفي تقبل الرأي الآخر، وتوجيه الناس نحو الصواب وعين الحقيقة، دون مواربة ولا تزييف ولا تخويف، وإذا ما وجدت هذه المعاني ترجمةً بين الناس، فإن المحبة تسودهم، والطمأنينة تعمهم، والاستقرار يشملهم، فلا يخاف الراعي من غدر الرعية وثوراتها، ولا تخاف الرعية من بطش الراعي وظلمه واستبداده، ويجد أي فرد من الرعية في نفسه كفاءة وقدرة وشجاعة على محاجة السلطان، والجهر بالحق الذي يقتنع به أمامه دون وجل.

فمكافحة الفساد ضرورة شرعية، وحاجة اجتماعية وسياسية، لمبتغي الاستقرار المجتمعي وأمنه وسلامته، ولا بد لهذه المكافحة حتى تؤتي ثمارها الزكية، ونتائجها المرجوة، من انتهاجها في إطار من الشفافية والنزاهة، حتى لا يخدع بعضنا بعضاً، ولا نسير في نفق مظلم تحفه المخاطر، وتتهدده انفجارات الاحتجاجات، وثورات الغاضبين.

ومما يجدر التنبيه إليه في هذا المقام أن الواجب الشرعي يقتضي مساندة مبادرات مكافحة الفساد، والشدَّ على أيدي حاملي هذا اللواء بالخير والدعم والمساندة، بل ينبغي بذل الجهد لإنجاح كل مبادرة صادقة في هذا السبيل، وتقديم المساهمة المستطاعة في تحقيق أهداف اجتثاث الفساد بالأساليب المشروعة، والوسائل المناسبة، التي تتجنب معالجة المنكر بمثله، وإنما تلتزم الحكمة في انتقاء الوسائل والأساليب الناجعة لذلك.

الفهرس

	تقديم	4
	مقدمة	5
	الفصل الأول / عقيدة	
1.	ما أحوجنا إلى البصيرة	7
2.	الإعانة على النوائب	15
3.	عباد الله المخلصون	22
4.	تجارة المؤمن مع الله	27
5.	مسألة وقت ليس إلا	33
6.	لماذا يحقدون على الإسلام؟	42
	الفصل الثاني / عبادات	
7.	احتساب أجر الصيام	51
8.	المسارعة إلى الخير في رمضان	56
9.	تجديد عزائم الخير والإيمان في رمضان	61
10.	الصيام وتعزيز الوازع الداخلي	71
11.	الحج وسلوك العابد	79
12.	البيت الحرام وحجاجه في أمن الرحمن	89
13.	الحج ومشكلة الزحام	98
	الفصل الثالث / السيرة النبوية	
14.	من مثل الحبيب محمد، صلى الله عليه وسلم؟!	105
15.	التطاول بذريعة قميص عثمان	114
16.	تأملات في ذكرى المولد النبوي الشريف	127
17.	يدور الزمان	134
18.	إلا تنصروه فقد نصره الله	143
19.	انتصار إرادة المؤمنين بعقيدتهم وحقوقهم المشروعة	149
20.	دلالات إيمانية لمقولة (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)	157
21.	عام جديد والأمة تبكي حالها	163

الفصل الرابع / المسجد الأقصى المبارك		
.22	الإيمان متطلب للتصديق بالإسراء	169
.23	ملخص المطلوب لحماية مسرى الرسول، صلى الله عليه وسلم	172
.24	مسؤولية مسلمي العالم عن حماية مسرى نبيهم، صلى الله عليه وسلم	175
.25	الله يعلم المفسد في شد الرحال إلى المسجد الأقصى من المصلح	180
.26	في ظلال القدس عاصمة الثقافة العربية لعام 2009 م … إطلالة على ثانوية الأقصى الشرعية	188
الفصل الخامس / الفتوى		
.27	الفتوى بين المتربصين والمسيئين والمستوى المنشود	193
.28	صرخة استفاقة لمتهافتي الأدعياء ومتبذليهم	199
الفصل السادس / سلوك وآداب		
.29	الجاهلية تواصل مسيرتها في نبذ الفضيلة	206
.30	نحن وثقافة الاعتذار	211
.31	وجهة نظر دينية في جرائم الشرف	217
.32	وجهة نظر في .... فهم الآخر	222
الفصل السابع /مقالات ذات صلة بقيم مجتمعية		
.33	الوحدة والمصالحة وإنهاء الانقسام سبيل الخلاص من مسلسل النكبات والنكسات	225
.34	صبر المبتلى وثقته بفرج الله ونصره	232
.35	صناعة الأحداث وطريقة قراءتها	238
.36	الثقة بين الراعي والرعية	245
.37	على أي شيء نتناحر؟!	249
.38	التنازع في ضوء التعددية والبون الشاسع بين واقع الأمة ومبادئها	252
.39	طاحونة الإرهاب	258
الفصل الثامن / اقتصاد		
.40	كان الله في عون الفقراء	265
.41	تجويع للتركيع وأنى ذلك	277
.42	المطلوب الأهم في مواجهة أزمة المال العالمية	283
.43	شفافية مكافحة الفساد الإداري والمالي	292